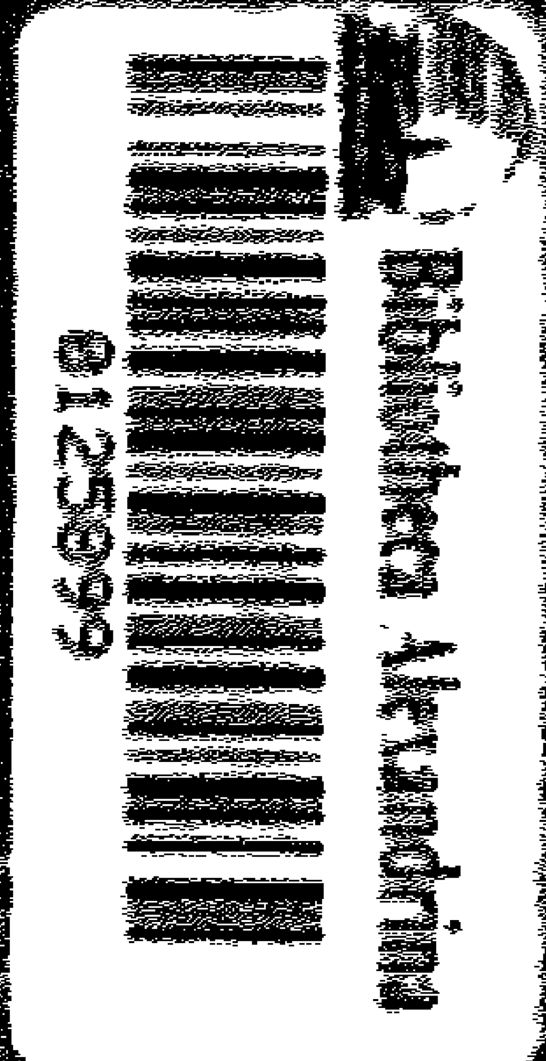
الدكتور أحمد الشرباصي



توجيه الرسول

الدكتور أحمد الشرباصي

توجيه الرسول ﷺ
للحياة والأحياء

دار الجيل
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله جل جلاله، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله، وعلى خاتمهم سيدنا محمد، وعلى ذريته وآله، وصحبه ورجاله، والمهتدين بأعماله وأقواله، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين.

ونستفتح بالذي هو خير: « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ».

شعاع من كتاب الله

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً ، فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

(سورة النساء)

تصدير

الحياة الفاضلة لا بدّ لها من رائد ، والأحياء الأتقياء لا غنى لهم عن قائد ، وأنعمْ برسول الله – صلى الله عليه وسلم – رائداً للحياة كأسمى ما تكون الحياة ، وأنعمْ به قائداً للأحياء كأعلى ما يكون الأحياء ؛ فهو الذي قال فيه رب العزة : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » . وقال له : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » . وأخبره بأنه قد أرسله « داعياً إلى الله بإذنه » . وقرر أنه الموجه إلى الخير ، الهادي إلى البر ، الداعي إلى أكرم طريق ، فقال له : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » . وحدد له طريقة التوجيه وأسلوب الدعوة ، فقال له : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن » !.

وهذا رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – يقول عن نفسه الشريفة : « إن الرائد لا يكذب أهله » . وصدق رسول الله ، فقد كان الرائد الأمين ، والمبلّغ المبين ، والبشير النذير ، والسراج المنير .

ولقد وجه رسول الله الحياةَ والأحياء ، في ميادين العقيدة ، والعبادة والمعاملة ، والسلوك ، ولقد كان توجيهه واسعاً جامعاً ، شاملاً للقول والعمل ، والفرد والجماعة ، حتى تحقق وصف الله له : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

والدارس للسنة النبوية المطهرة يرى فيها ذلك الفيض الغامر من التوجيه ،

ودلك التراث العظيم من التعليم والتقويم ، ولا عجب ، فالسنة تأتي من وراء القرآن مصدقاً له ، ومبيناً لإجماله ، ومفسراً لأحكامه وآدابه .

ومن فضل الله العميم على صاحب هذا القلم أن ربطه – منذ وقت مبكر في حياته الفكرية– ببابي الإرشاد والإسعاد ، وسببي النجاح والفلاح ،وينبوعي البيان والأدب ، وهما الكتاب والسنة ، ومن حولهما صدرت له جهود متواضعة ، يسأل صاحبُها ربّه واهب القُوى والقُدَر ، أن يجعلها له لسان صدق بين الناس ، وسبب أجرٍ عند رب الناس ، الذي لا يضيع أجرَ من أحسن عملاً .

وهذا الكتاب جانب من تلك الجهود ، يدور فيه الحديث حول «توجيه الرسول للحياة والأحياء» ، ويتعاون على تجليته مدد من بيان يستظهر بأدب الإسلام ، ويعتز بلغة القرآن ، وسند من حقائق العلم الديني المتعلقة بأمور الحياة وشئون الأحياء ، وربط بين الدين والدنيا ، ليظل دين الله مهيمناً على الدنيا ، وتظل الدنيا مهتدية بنور الدين : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم »

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

أبو حازم
أحمد الشرباصي

حلاوة الإيمان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولاً » .

(رواه مسلم والترمذي وأحمد)

* * *

إننا نتطلع يميناً وشمالاً في جوانب الحياة ، ونتسمع إلى هذا أو ذاك من الأحياء ، فنجد كثيراً من ألوان التعب والشقاء ، ونقف على كثير من أنواع الضيق والشكوى ، ولا نجد من أهل السعادة والغبطة إلا العدد القليل ، وأكبر السبب في هذا هو ذلك الغول الهائل أو السرطان الخبيث ، الذي يعصف بالأمان والاطمئنان . وهو عدم اليقين والإيمان ، لأن من آمن عرف طريقه ، ومن عرف طريقه رضي به وسار عليه . فبلغ ووصل ، وقد يجد في أثناء ذلك تعباً أو نصباً ، فيتلقاه بعزم وصبر . ويمضي في سبيله لا يبالي بما يلقى ، لأن بصره وفكره معلّقان بما هو أسمى وأبقى . وها هوذا الحق جل جلاله ينادي من آمن واطمأن فسعد وفاز ، بقوله : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي » .

ولقد رسم سيد الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه طريقَ الإيمان والأمان حين قال : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً » . وللايمان طعم يفوق الطعوم ، ومذاق يعلو كلَّ مذاق ،

ونشوة دونها كل نشوة ، لأن حلاوة الإيمان حلاوة نفسية روحية قلبية ، تسري سريانَ الماء في العود ، وتجري جريانَ الدماء في العروق ، وتُشع على صاحبها إشعاع الأضواء خلال الدياجي : فلا قلق ولا أرق ، ولا ضيق ولا تضييق ، بل سعة ورحمة ، ورضى ونعمة : « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » .

* * *

وأول باب من أبواب الوصول إلى حلاوة الإيمان هو أن يرضى الإنسان بالله تبارك وتعالى رباً ، لأنه خالق كل شيء ولأنه القائم على كل نفس بما كسبت ، ولأنه قيوم السموات والأرض ، ورحمن الدنيا والآخرة ، وديان العالمين ، والرضا به يستلزم الرضا بعبادته ورجاءه والخوفَ منه والتبتلَ إليه ، والنزول على أوامره وأحكامه ، والانتهاءَ عن محارمه ونواهيه ، سواء أدركنا الحكمة في الأمر والنهي أم لم ندرك ، لأن العبد الضعيف القاصر لا يسأل خالقَه العليم ومولاه الخبير عن حكمة كل شيء ، بل يُسْلم وجهه إلى بارئه ، مؤمناً بحكمته وعدالته ، راجياً لرحمته ، خائفاً من نقمته ، وله في رسوله أعظم القدوة حين كان يدعو ربه فيقول : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من معاقبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

وكان يدعو ربه فيقول : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخَلْق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمةَ الحق في الغضب والرضى ، وأسألك القصدَ في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع . وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زيّنا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » .

كما أن له القدوة في الأعلام من سلف هذه الأمة الذين جاهدوا أفضل الجهاد ، وعملوا خير العمل ، ثم رضوا بالله تعالى كلَّ الرضا ، ورحبوا بتقديره كل الترحيب ، وهذا مثلا هو الحاكم العادل خامس الراشدين عمر ابن عبدالعزيز كان يكثر من قوله: «اللهم رضّني بقضائك،وبارك لي في قدَرك؛ حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته ، ولا تأخير شيء عجلته». وكان خامس الراشدين رضوان الله عليه يقول عن هذه العبارة : « لقد تركتني هؤلاء الدعوات وما لي في شيء من الأمور كلها أرب إلا في مواقع قدر الله » .

ويروى أن خامس الراشدين كان يقول أيضاً : «أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القَدَر » ، ويروى أنه كان يقول : « ما أصبح لي هوى في شيء سوى ما قضى الله عز وجل » .

وهذا عبدالله بن مسعود يترجم عن معنى الرضى وتسلطه عليه ، فهو يرضى بما يساق إليه ، فيقول : « الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت : إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى فإن فيه البذل » .

وقيل ليحيى بن معاذ : متى يبلغ العبد مقام الرضى ؟ . فقال : إذا أقام نفسَه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه ، فيقول : إن أعطيتني قبلتُ ، وإن منعتني رضيت ، وإن تركتني عبدت ، وإن دعوتني أجبت ..

ولو صدق العبد في رضاه بربه ، وإقباله عليه ، واستجابته له ، لتفجرت ينابيع الخير والبر والبهجة من حوله ، ولانطلق لسانه يردد مع القائل يخاطب ربّه :

يا منتهى الآمـال ، أنـت كفلتـني وحفظتـني
وعـدا الزمـانُ عـليَّ كي يغتـالَني فمنعتني
فانقـادَ لي متخشّعـا لمـا رآك نصرتني
وكسوتني ثوبَ الغـنى ومـن المذلـة صنتني

فـــإذا سكتُّ بـــدأتني وإذا سألتُ أجبتـــني
وإذا شكرتك زدتـــني فمنحتـــني وبهرتني !

وإذا رضي الإنسان بالله رباً فقد رضي عنه ربُّه ، وإذا رضي عنه ربه ، فقد أرضاه وكفاه ، وحفظه ورعاه ، وليس وراء رضى الله غاية لطالب ، ولذلك نجد القرآن الكريم يقول : « قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم » . ويقول : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريبا » ويقول : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون » . ويقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه » .

* * *

والباب الثاني من أبواب حلاوة الإيمان ولذة اليقين هو الرضى بالإسلام ديناً ، لأن الإسلام هو قارورة الدواء ، ومنبع الضياء ، ومصدر الاهتداء : « إن الدين عند الله الإسلام » ، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وإذا كان هناك أناس يتنكرون لإسلامهم ، أو يُعْرِضون عن دينهم ، أو لا يعنون بتوثيق روابطهم بعقيدتهم فقديماً كان المسلمون يضحون بكل شيء في سبيل أن يبقى لهم إسلامهم صحيحاً ودينهم سليما .

ولقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لامرأته عاتكة وقد غضب عليها

يوماً : والله لأسوأنّكِ . فقالت له : أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد إذ هداني الله تعالى إليه ؟. فقال لها : لا . قالت : فأي شيء تسوءني به إذن ؟.

فهي واثقة من أنها ستظل راضية النفس ناعمة البال ما دامت متمسكة بدينها ، حتى ولو صب عليها البلاء صبا ، وإنما يؤلمها شيء واحد ، وهو ترك الإسلام بعد الاهتداء إليه . وما كانت عاتكة وحدها هي التي تقول ذلك بل كل مؤمن صادق كان لا يرضى بالإسلام بديلا ، ولا يقبل بجواره شريكا أو نظيراً ، وشعار كل مؤمن من هؤلاء قول أحدهم :

ولست أبــالي حين أقتــل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

* * *

والباب الثالث المؤدي إلى حلاوة الإيمان ولذة الرضوان هو الرضى بمحمد رسولا . لأنه المبلّغ عن ربه ، المبيّن لدينه ، المفسر لقرآنه ، المطبق لشريعته ، ولأن الله تعالى يقول : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » . ويقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلموا تسليما » . ولأن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين » .

والرضى بالرسول يتضمن الاقتداءَ به ، والاهتداء بهديه ، والاستضاءة بسنته ، والتمثل بقوله وعمله ، فنتلقى تعاليم الدين من أحاديثه ، ونتطلع إلى تطبيق الإسلام في سيرته ، ونرى صورةَ المسلم الكامل في أفعاله وتصرفاته .

وإذا كانت هناك فئة ضالة مضلة تهاجم السنةَ النبوية ، وتشكك في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتدعو إلى الاقتصار على الأخذ من القرآن وحده ، فإن هذه الفئة في الواقع تريد أن تقضي على الإسلام ، ولو نجحت في دعوتها الإلحادية الإجرامية بالإعراض عن السنة النبوية ــ وهيهات هيهات ــ

لجاء الوقت الذي تدعو فيه إلى هجر القرآن : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

* * *

إذا كان هناك أناس يعرضون عن الإسلام ، ويتحللون من واجباته ، ويستخفون بأحكامه ، وإذا كان هناك أناس يؤمنون بالله ودينه ، ولكنهم ينطوون على أنفسهم ، فإن من أوجب الواجبات أن تكون هناك أمة مؤمنة واثقة بربها ودينها ونفسها ، متمكنة من هديها ويقينها . داعية إلى الصراط المستقيم في حكمة وقوة : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

فليستعن كل منا ربه في أن يكون فرداً من هذه الأمة المؤمنة الواثقة ، حتى يردد في سره وجهره ، ومن أعماق قلبه وحنايا نفسه قوله : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ، وبذلك يرضى عنا ربنا، ويغفر لنا ذنوبنا، فقد روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء (يعني الأذان) : رضيتُ بالله ربا ، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا ، غُفرت له ذنوبه » . وهو القائل أيضاً : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النـــار » .

وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

بين الحسنات والسيئات

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بيّن ذلك ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة »

(رواه البخاري ومسلم)

* *

هذا الحديث الشريف فيه تقرير لشرعة الحساب والثواب والعقاب ، وإخبار بأن ما يعمله الإنسان محصى عليه ومحاسب به ، وبأن فضل الله تعالى أوسع من كل فضل ، وفيه أيضاً حث قوي على فعل الحسنات والتفكير فيها والعزم عليها ، وتنفير قوي من عمل السيئات أو التفكير فيها أو العزم عليها .

« والهَمّ » هو ما هممت به في نفسك، ويقال : هم بالأمر إذا عزم عليه، ويقال : فلان ماضي الهم ، أي إذا عزم على أمر أمضاه ونفذه ، والهُمَام العظيم الهمة ، والهم هنا هو العزم المصمم الذي يوجد معه الحرص على العمل ، وليس مجرد خاطرة تمر بالبال ثم تزول دون عزم أو تصميم ، وذلك مثل أن يستريح الإنسان على فراشه وهو عازم أن يقوم بعد قليل ليصلي ، ثم

تغلبه عيناه فتتأخر صلاته، فمثل هذا يُكتب له ما نواه كما روى أبو الدرداء، ولذلك قال سعيد بن المسيب : «من هم بصلاة أو صيام أو حج أو عمرة أو غزوة ، فحيل بينه وبين ذلك بلغه الله ما نوى» . وفي هذا إرشاد إلى أن يعقد الإنسان نيته على الخير دائما . و «الحسنة» في الأصل كلمة يعبّر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه أو بدنه أو أحواله ، والحسنة في عرف الدين هي كل عمل طيب يأتيه الإنسان بنية خالصة لله تعالى ، و «السيئة» هي الفعلة القبيحة ، وكل من الحسنة والسيئة — كما يقول الأصفهاني — ضربان . أولهما بحسب اعتبار العقل والشرع ، كما في قوله تعالى : «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها» ، والضرب الآخر هو أن الحسنة ما يستخفه الطبع ، والسيئة ما يستثقله . كما في قوله تعالى : «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه» .

وقد ذكر الحديث هنا أربع حالات : الأولى أن يهم الإنسان بالحسنة ولا يعملها ، والثانية أن يعمل الحسنة ، والثالثة أن يهم بالسيئة ولا يعملها ، والرابعة أن يعمل السيئة ، ولكل حالة حسابها وجزاؤها عند الله تعالى الذي ماز بين الحسن والسيء ، وأحصى على كل إنسان حسناته وسيئاته : «في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى» .

«فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة» : وذلك من فضل الله العظيم وكرمه الواسع ، فهو يثيب الإنسان على النية الطيبة والعزم الكريم ، فمن انتوى أن يقوم بعمل طيب ، ثم حال دون عمله حائل ، أو لم تسعفه الطاقة بتحقيقه ، فإن الله يكتب له هذا حسنة كاملة عنده ، وقد عبر الحديث بكلمة «عنده» تنويهاً بهذه النية ، وتشريفاً لصاحبها ، لأن الحسنة تسجّل عند الله العلي الكبير ، ثم وصف الحسنة بأنها «كاملة» أي غير منقوصة ، وفي ذلك ما فيه من تحريض على أن ينوي الإنسان الخيرَ ويفكر فيه ، وإنما الأعمال بالنيات .

« وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة » . وهذا تدرج في مراقي التوفيق للعمل الطيب ، فالإنسان الذي يفكر في الخير ويختاره دون الشر ، ثم يعزم على عمل هذا الخير ، ثم يقوم به، يكافئه الله عليه من الثواب عشرةَ أضعاف ، بل بسبعمائة ضعف ، بل بما هو أكثر من سبعمائة ضعف ، وكلما زاد الإخلاص وتأكد الإيمان ، زادت الأضعاف المضاعفة إلى ما شاء الله .

ولقد روي في الحديث الصحيح أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ناقة فقال : يا رسول الله ، هذه في سبيل الله . فقال له النبي : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة » .

ولا تقف مضاعفة الثواب عند هذا المرتقى السامي ، بل إن فضل الله الواسع يضاعف أكثر من ذلك ، كلما زاد الإنسان في درجات الإحسان ، ويروى أنه لما نزل قول الله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبعَ سنابل في كل سنبلة مئة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » ، قال النبي : يا رب زد أمتي . فأنزل الله تعالى قوله : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » ، فقال النبي : يا رب ، زد أمتي . فأنزل الله تعالى قوله : « إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

وقد جاء في السنة ما يفيد أن الله تعالى يضاعف الحسنة آلاف الأضعاف ، واستشهد أبو هريرة على ذلك بقوله جل وعلا : « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » . وقال : « إذا قال الله : أجراً عظيماً فمن يقدر قدره ؟ » . والمثل الواضح في هذا هو الصوم الذي قال عنه الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلا الصوم فإنه لي ، وأنا أجزي به » .

والقرآن الكريم يتحدث في كثير من آياته عن مضاعفة الحسنات بفضل الله وكرمه ، كأن يقول : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم » . ويقول : « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم

ويغفر لكم والله شكور حليم » .ويقول « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ».

* * *

« وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة » : وهذا من فضل الله سبحانه أيضاً ، فاذا عرض للانسان خاطر من خواطر السوء لم يؤاخذه الله به ، ولو فكر فيه أو عزم عليه لم يؤاخذه الله عليه أيضاً ، بل هو يثيبه لو أنه قاوم هذا الهم أو حارب هذ العزم حتّى زال عنه ولم يعمل السيئة ، وإنما يثاب لأنه قاوَم وسوسةَ الشيطان في نفسه ، فصدها عما كانت تريد أن تأتيه من سوء ، وكأن هذا تعليم من الرسول صلى الله عليه وسلم لأتباعه بأن يقهروا أهواءهم وشهواتهم ، وأن يقاوموا نزغات الشيطان في نفوسهم ، والرسول يخبرهم بأنه يكتب لهم بالانصراف عن هذا الهم السيء حسنةً كاملة غير منقوصة ، ويكتبها «عنده » : وأكرم به من مقام .

ولذلك قال بعض شرّاح هذا الحديث : « فانظر يا أخي — وفقنا الله وإياك — إلى عظيم لطف الله تعالى ، وتأمل هذه الألفاظ ، وقوله : (كتبها عنده) إشارة إلى الاعتناء بها ، وقوله : (كاملة) للتأكيد وشدة الاعتناء بها ، وقال في السيئة التي هم بها ثم تركها : (كتبها الله عنده حسنة كاملة) فأكدها بكاملة ، (وإن عملها كتبها سيئة واحدة) ، فأكد تقليلها بواحدة ، ولم يؤكدها بكاملة ، فلله الحمد والمنة ، سبحانه لا نحصي ثناء عليه » .

وقد اشترط العلماء هنا أن يكون ترك السيئة خوفاً من الله تعالى ، لا خوفاً من الناس ولا رياء منهم ، لأن الرياء لا يقبله الإسلام للمسلم ، وكذلك يشترط ألا يكون تركه لها بسبب قاهر غير إرادي ، فاذا هم الإنسان بالمعصية وحاولها ، ثم حيل بينه وبينها لسبب لم يرده ، فإنه يكون في منزلة العاصي.

« وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » : وهذا هو العدل الكامل . ويزكيه قول القرآن الكريم : « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » . ولنتدبر هنا أن الله تعالى حينما تكلم عن كتابة السيئة لم يخبر عن هذه الكتابة بأنها « عنده » . وأنه وصف السيئة المكتوبة بأنها « واحدة » حتى يؤكد العدالة في الجزاء .

وقد ذكر العلماء أن السيئة قد تعظم وتفحش فيشتد العقاب عليها . مثل الاعتداء في الأشهر الحُرُم ، والمعصية في الحج ، والمعصية في رمضان ، أو في الحرم . ولذلك رُوي أن بعض الأخيار كانوا يتجنبون سكنى الحرم خشيةَ ارتكاب الذنوب فيه ، ومنهم الحاكم العادل خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه .

وروي أن الله تعالى يؤاخذ على الهم بالمعصية إذا كان في الحرم . واستشهدوا لذلك بقول الله تعالى عن الحرم : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » . بل قال الضحاك : « إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة ، وهو بأرض أخرى ، ولم يعملها ، فتكتب عليه » .

* * *

هذا وقد أفاض القرآن الكريم في الحث على الحسنات والتنفير من السيئات ، فقال : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها » . وقال : « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون » . وقال : « ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ، إن الله غفور شكور » . وقال : « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » .

وقال عن السيئات : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا » . وقال : « والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ».. الخ

* * *

وقد وردت في الحديث روايات أخرى منها :

(١) يقول الله للملائكة : إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة ، وإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف .

(٢) قال الله تعالى : إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل ، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها ، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها ، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها .

(٣) قالت الملائكة : ربّ ، ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة — وهو أبصرُ به — قال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرّائي .

(٤) من هم بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، وإن عملها كتبت له عشرا ؛ ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء ، فإن عملها كتب عليه سيئة واحدة .

(٥) من هم بحسنة فلم يعملها ، وعلم الله أنه قد أشعرها قلبَه وحرص عليها ، كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة لم تكتب عليه ، ومن عملها كتبت له واحدة ولم تضاعف عليه ، ومن عمل حسنة كتبت له بعشر أمثالها ، ومن أنفق نفقة في سبيل الله كانت له سبعمائة ضعف .

نسأل الله جلت قدرته أن يجنبنا السيئات ، وأن يوفقنا للحسنات ، إنه ولي التوفيق .

مظاهر رحمة الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نفّس عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة . وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتابَ الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عملُه لم يُسرع به نسبه » .

(رواه مسلم)

. . .

هذا حديث جليل يدل المؤمن على طائفة من أعمال الخير والبر ، ويتحدث عن طائفة من النعم والآلاء التي يمن الله تعالى بها على من يقوم بهذه الأعمال في إيمان وإصلاح ، وهو لون من ألوان الحث البليغ على صنع الجميل وتقديم الطيبات ، وإذا كان الله الكريم العظيم هو الذي يَعِدُ بالثواب فإنه لا ريب في وقوعه ، ولا شك في فضله : « ومن أوفى بعهده من الله » ؟ ، « ومن أصدق من الله قيلاً » ؟ .

يقول الرسول : « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله

عنه كربة من كرب يوم القيامة » : والتنفيس هو التفريج والتخفيف ، ويقال : نفّس الدائن عن غريمه إذا أخّر مطالبته : واستجاب لقول الله تعالى : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » . والكربة هي الشدة العظيمة التي تُوقع صاحبَها في الكرب ، وهو التعب والضيق .

ومعنى هذا أن الله تعالى يجزي الإحسان بالإحسان ، ويجعل الثواب من جنس العمل ، فكما أن العبد قد بذل جهده حتى أنقذ أخاه مما تعرض له من سوء وشدة ، فإن الله تعالى ينقذ ذلك المعينَ من شدة عظيمة من شدائد يوم القيامة ، حيث يحتاج المرء يومئذ إلى رحمة الله وفضله ، وحيث يكون الأمر كما قال القرآن : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

ومن أمثلة مقابلة الجميل بالجميل ، وملاقاة العمل بمثله من الثواب : ما جاء في حديث آخر وهو : «أيّما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وايما مؤمن سقي مؤمناً على ظمإ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً من عري كساه الله من خضر الجنة » . فالإطعام مقابَلٌ بإطعام خير منه، وكذلك السقي مقابَل بسقي ، والكسوة مقابلة بكسوة ، والله ذو الفضل العظيم .

« ومن يَسّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة » :

التيسير هو التخفيف ، والتعسير هو التشديد ، والمعسر هو المتعرض للشدة ، ويغلب التيسير في مواطن التخفيف من صاحب المال القادر عن المدين الضعيف ، وقد يكون تيسيره بتأجيله استيفاءَ دَيْنه حتى يتيسر للمدين قضاؤه : وقد يكون التيسير بأكرم من هذا ، وهو تنازل صاحب المال عن بعض ماله أو كله إذا استطاع ذلك . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين اللونين من التيسير

حيث قال : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة : وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

فمن فعل شيئاً من ذلك التيسير أثابه الله تعالى في مقابله بتيسيره شدةَ الآخرة عليه ، وفي يوم القيامة يكون الأمر شديداً ، ويكون العُسْر على كثيرين ، ولذلك وصف القرآن يوم القيامة بأنه يوم « عسير » على مستحقي هذا التعسير ، و « يسير » على من يستحق التيسير .

ولقد روت السنة المطهرة أن الله تعالى قد غفر لتاجر كان يتجاوز عن المعسر . كما قال النبي صلوات الله عليه وسلامه : « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » . وفي حديث آخر : « من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

وقد يقال : لماذا وصف الحديث الكربةَ التي يكشفها الله بأنها « من كرب يوم القيامة » . مع أنه وصف تيسير الله بأنه في الدنيا والآخرة ، وكذلك فيما يأتي من الستر ؟.. وقد أجيب عن ذلك بجوابين : الأول أن الكُرب هي الشدائد العظيمة . وليس كل أحد يحصل له كربة في الدنيا ، بخلاف الإعسار والعورات المحتاجة إلى الستر ، فإنه لا يكاد يخلو من ذلك أحد ، ولو بتعسر الحاجات المهمة . والجواب الآخر أن كُرب الدنيا بالنسبة إلى كرب الآخرة كأنها لا شيء ، فادخر الله ثوابَ تنفيسِ الكرب عنده ، لينفس به كربَ الآخرة .

* * *

« ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » : أي من كتم عيباً أو هفوة لأخيه ، ولم يشنع عليه بها ، فإن الله يستر عليه عيوباً له في الدنيا وفي الآخرة ، ويقابل هذا أن من كشف سترَ أخيه كشف الله ستره ، ولذلك

جاء في الحديث : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه . لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم . فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته » .

وقد قال العلماء إن الشخص إذا كان مستوراً غير معروف بمعصيته فإنه لا يجوز كشف ما قد يقع منه كزلة أو هفوة ، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم » . ولكن إذا كان الشخص مجاهراً بالمعاصي ، لا يستحي ولا يخجل ، فذلك لا بأس من التشهير به ، ولذلك قيل : لا غيبة في فاسق .

« والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » : إن الإسلام بهذا يريد أن يعلم أبناءه أن يعاونوا غيرهم ، ويبذلوا ما يستطيعون في سبيل تقديم المعونات للعباد ، صغرت هذه المعونات أو كبرت ، وقد ذكر العلماء أن قضاء الحاجات للناس أفضل من النوافل . وتاريخ هذه الأمة حافل بأخبار الذين كانوا يتقربون إلى ربهم بخدمة غيرهم من الناس بلا جزاء أو شكور ، بل يبتغون وجهَ ربهم ومرضاته .

« ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » : أي من شغل نفسه مخلصاً بطلب العلم — بأن سعى إليه ، أو تعب في مذاكرته وتحصيله وتفهمه — فان الله تعالى يوفقه لما أراد ، ويمهد الطريق أمامه لدخول الجنة ، ويفتح عليه من أبواب العلم ما لم يكن يعلم من قبل ، بفضل طاعته وإخلاصه ، والله تعالى يقول : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورَّثه الله علمَ ما لم يعلم » .

وينبغي أن نتذكر أن العلم الصحيح النافع يهدي صاحبه إلى مسالك الخير ومواطن الرشد ، فيكون ذلك سبباً لاستحقاقه الجنةَ ، وقد أشاد الإسلام

بشأن العلم أعظم إشادة ، ووصف الرسول العلماء بأنهم كالنجوم التي يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر .

* * *

ولما كان القرآن المجيد هو مصدر الحكمة وينبوع الرحمة ، وهو أساس العلم النافع ، قال الرسول : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وهذا حث على الاجتماع في المساجد لتلاوة كتاب الله تعالى ، وتفهم آياته ، والعمل بها ، ولا شك أن الاشتغال بالقرآن في مجال التقرب من الله هو أفضل الأعمال ، ولذلك قال الرسول : « خيركم من تعلم القرآن وعلّمه » . ولهؤلاء التالين المتدينين المخلصين من ربهم أن تنزل عليهم السكينة والطمأنينة ،وأن يشملهما لله برحمته ، وأن تحيط بهم الملائكة ، وينشروا أجنحتهم من حولهم تكريماً لهم ، وأن يذكرهم الله تعالى في الملإ الأعلى ذكرَ القبول والرضى ، فيثني عليهم ، ويباهي بهم وينوه بشأنهم ، والله تعالى يقول : « فاذكروني أذكركم » .

« ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » : أي أن العبرة في الإسلام بالعمل ، لا بالنسب ولا بالحسب ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، « فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » . فالذي يقصر في عمله يتأخر عن مواطن الرضى والثواب . ولا يستطيع نسبه مهما كان عظيماً أن يقدمه على سواه . أو يتقدم به نحو رحمة مولاه . ولقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقريش : « إن أوليائي منكم المتقون . فان كنتم أولئك فذاك . وإلا فانظروا : يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة ، وتأتوني بالأثقال ، فيعرض عنكم » . وكان النبي يقول لأهله : « اعملوا فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً » .

هذا وقد وردت روايات في معنى هذا الحديث منها ما يلي :

(١) المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يُسْلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة .

(٢) من نفس عن مؤمن كربة من كربه نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته ، ومن فرج عن مؤمن فرج الله عنه كربته .

(٣) من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، ومن نجّى مكروباً فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

نسأل الله جل جلاله أن يأخذ بنواصينا إلى صراط الحق وميدان الخير ، إنه هو الرءوف الرحيم .

من صفات الإيمان

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

(رواه البخاري ومسلم)

* * *

هذا الحديث الكريم يقص علينا طائفة من الخصال التي يجب أن يتحلى بها المسلم ، حتى يحقق مبادىءَ الإسلام في نفسه وفيما حوله ، ولهذا الحديث طرق أخرى في روايته تتضمن إضافةَ خصال أخرى : وقد جاء في بعض ألفاظها : « فلا يؤذ جاره » وفي بعضها : « فليصل رحمه » . وفي بعضها : « فليحسن قِرىً ضيفه » .

وقول الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ... » إلخ يدل على أن الأعمال من ضمن الإيمان ، بدليل تعليق تحقق الإيمان على وجود هذه الخصال : ومن هنا فسر الرسول عليه الصلاة والسلام الإيمانَ في حديث آخر بأنه الصبر والسماحة . وأراد بالصبر الامتناع عن المعاصي ، وبالسماحة القيام بالطاعة وعمل البر .

وأول خصلة يشير إليها الحديث قوله : « فليقل خيراً أو ليصمت » ، أي ليتعود النطق بالكلمة الطيبة ، والامتناع عن الكلمة السيئة ، ولا شك أن الكلمة سلاح من أسلحة المؤمن يستخدمها في مواطنها ، ولذلك جاء في الحديث : « إن المؤمن يجاهد بلسانه وسيفه » . وقد مجّد القرآن الكريم شأن الكلمة الطيبة ، وشوه صورة الكلمة الخبيثة ، فقال : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » (١) .

ومن صفة المسلم أنه يقول كلمة الخير ما استطاع إليها سبيلا ، فإن لم يستطعها ، أو لم يكن لها مجال ، فلا أقل من الصمت ، إذ لا يليق به أن ينطق بالهُجر ، وقد عجز عن كلمة الخير . وفي الحديث : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » . ولقد جاء أسود بن أصرم المحاربي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وقال له : « يا رسول الله أوصني . فقال له النبي : هل تملك لسانك ؟ ، قال : ما أملك إذا لم أملك لساني ؟. فقال له النبي : فهل تملك يدك ؟. قال : فما أملك إذا لم أملك يدي ؟. قال النبي : « فلا تقل بلسانك إلا معروفاً ، ولا تبسط يدك إلا إلى خير » .

ومواطن قول الخير كثيرة ، فنشر الفقه والعلم ، والدفاع عن المظلوم والمهضوم ، وردُّ البهتان والكذب ، والإصلاح بين الناس ، وإرشاد الضال ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؛ كل هذه مواطن للنطق بالخير ، ولقد

(١) سورة إبراهيم . الآيات من ٢٤ – ٢٧ .

تحدث محمد بن عجلان عن أصول المواطن التي يتكلم فيها الإنسان فيحسن منه الكلام ، فقال : « إنما الكلام أربعة : أن تذكر الله ، وتقرأ القرآن ، وتسأل عن علم فتخبر به ، أو تتكلم فيما يعنيك من أمر دنياك » .

وعلى الإنسان أن ينظر إلى الكلام ، فإن كان فيه فائدة له أو لغيره أو لدينه أو للناس ، نطق به . وإن لم يكن كذلك صدَّ نفسَه عنه ؛ وليحذر الثرثرة ، وكثرة الكلام ، فإن المكثار معثار ؛ ولقد يبدأ كلامه طيبا ، فلا يزال يكثر منه أو يزيد فيه حتى يخرج به عن طيبه وخيره ، إلى خبثه وشره ، ولذلك قال عمر : « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به » .

وقال ابن مسعود : « إياكم وفضولَ الكلام ، حسب امرىء ما بلغ حاجته » ، وقال النخعي : « يهلك الناس في فضول المال والكلام » .
وليتذكر الإنسان أنه محاسَب على كل ما يقول ، وأن القرآن الكريم يقول : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » (١) .

وأن الإنسان يكون أقرب إلى النجاة إذا كان ساكتاً منه إذا كان متكلما ، لأن صمته لا يعيبه إلا في مواطن توجب عليه أن يتكلم فيها ، ولكن كلامه إما أن يحسن فيكون له ، وإما أن يسوء فيكون عليه ، ومن هنا جاء في الحديث : « إنك لن تزال سالماً ما سكتَّ ، فإذا تكلمت كُتب لك أو عليك » . وقال وهب بن منبه : « أجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت » .

* * *

ولقد اختلفوا في المفاضلة بين من يسكت على علم ، ومن يتكلم على علم ،

---

(١) سورة ق الآية ١٨ .

ورووا في ذلك أن رجلاً من العلماء كان في مجلس لخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فقال : « الصامت على علم كالمتكلم على علم » . فقال عمر : « إني لأرجو أن يكون المتكلم على علم أفضلَهما يوم القيامة حالا ، وذلك أن منفعته للناس ، وهذا صمته لنفسه » . فقال الرجل : « يا أمير المؤمنين، وكيف بفتنة المنطق به »؟ فبكى عمر عند سماعه ذلك بكاء شديداً .

ولقد نظر كل منهما إلى الموضوع من جانب : فعمر رضي الله عنه نظر إلى الفائدة المترتبة على كلمة الخير والعلم ، وما فيها من نفع للناس . وأما الرجل العالم فنظر إلى ما يصيب المتكلم من العُجْب والمباهاة بكلامه ، ولذلك كان عمر يقطع حديثه إذا تذكر هذا المعنى ، ويقول : « إن القول فتنة ، والفعل أولى بالمؤمن » .

* * *

والخصلة الثانية هي إكرام الجار التي عبر عنها الحديث بقوله : « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » . وقد جاء في بعض الروايات : « فلا يؤذ جاره » ولا شك أن إكرام الجار أوسع مدى من عدم إيذائه ، إذ لا يتصور أنك تكرمه وأنت تؤذيه .

وإيذاء الغير — أيا كان — محرم شرعا ، ولكن إيذاء الجار أشد حرمة وشناعة ، ولذلك جاء في صحيح البخاري قول الرسول : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » ، قيل : مَنْ يا رسول الله ؟. قال : « من لا يأمن جاره بوائقَه » . والبوائق جمع بائقة ، وهي الداهية والشر ، ويراد بها هنا ألوان الأذى .

ولقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ، إن فلانة تصلي الليل وتصوم النهار ، وفي لسانها شيء ، تؤذي جيرانها ؛ سليطة ؛

قال : لا خير فيها . هي في النار ؛ وقيل له : إن فلانة تصلي المكتوبة ، وتصوم رمضان ، وتتصدق بالأثوار (وهي القطع من اللبن الجامد) وليس لها شيء غيره ، ولا تؤذي أحداً . فقال : هي في الجنة » ..

ولقد كان من دعاء الرسول لربه قوله : « أعوذ بك من جار السوء في دار الإقامة » ..

ولو رجعنا إلى القرآن لوجدناه يوصي بالجار ، ويذكره ضمن من لهم حرمتهم ومكانتهم ، وذلك في قول الله تعالى عزّ من قائل : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا ، وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » (١) .

ولو رجعنا إلى السنة لوجدنا الرسول يرفع من شأن الجار بتعليم الله تعالى له فيقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه » .

وللجار حقوق كثيرة ، منها : مشاركته في الفرح ، ومشاطرته إذا حزن ، ومعاونته فيما يحتاج فيه إلى المعونة ، والإهداء إليه ، وصنع المعروف معه ، وزيارته ، والسؤال عنه ، وعدم التطاول عليه بالبنيان ، وقال الحسن : « ليس حسن الجوار كف الأذى ، ولكن حسن الجوار احتمال الأذى » .

والجار إما جار غير مسلم ، وإما جار مسلم ، وإما جار مسلم قريب ؛ ولكل من هؤلاء الثلاثة درجة، ولذلك جاء في الأثر ما يفيد أن الجار غير المسلم له حق الجوار، والجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام ، والجار المسلم القريب له حق الجوار وحق الإسلام وحق القرابة .

---

(١) سورة النساء الآية ٣٨

وقد فسح الإسلام دائرة الجيرة إلى مدى أربعين جارا من كل جهة ، ولذلك قال السلف إن حد الجوار هو أربعون دارا ، وقال الزهري : « أربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأشار بيده أمامه وخلفه ، وعن يمينه وشماله .

* * *

وأما الخصلة الثالثة فهي أن يكرم المؤمن ضيفه . وإكرام الضيف هو إحسان ضيافته ، والقيام بواجبه خلال مدة الضيافة التي حددها أدب الإسلام . وهي ثلاثة أيام ، وأقل الضيافة ليلة : وهي واجبة على كل قادر . فإن أكمل الضيافة ثلاثة أيام فقد تممها ، فإن زاد على الثلاثة فذلك مزيد فضل منه ، والواجب على الضيف ألا يثقل على مضيفه، وألا يحرجه أو يكلفه ما لا يطيق، وأن يتحول عنه بعد انتهاء مدة الضيافة .

وليس على المضيف في أدب الإسلام أن يتكلف لضيفه ما يرهقه ، بل يقدم له ما يسهل عليه بلا تعسير .

ولا شك أن الخصال الثلاث التي ذكرها الحديث يدل إتيانها بصدق وإخلاص على صحة الإيمان وعمق الثقة بفضل الله العلي الكبير . فلم يكن غريباً أن يعدها الرسول عليه الصلاة والسلام برهاناً على الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر .

من اقتصاديات الإسلام

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يَبِعْ حاضر لبادٍ ، ودعوا الناسَ يرزق الله بعضهم من بعض » .

(رواه مسلم وأبو داود والترمذي)

* * *

هذا الحديث الشريف من جوامع الكلم التي زان الله تعالى بها منطق رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأن كلماته قليلة . ومعانيها جليلة ، وهو يعطينا صورة كريمة من صور العناية النبوية بصيانة المعاملات بين أبناء الاسلام من سوء الاستعمال والاستغلال ، وجَعْلها على صراط مستقيم ، يحقق التعاون الكريم بين المؤمنين . وبدأ الحديث بالنهي عن بيع الحاضر للبادي . والبيع : هو إعطاء السلعة وأخذ الثمن ، والشراء ضده وهو إعطاء الثمن وأخذ السلعة ، ويقال للبيع شراء ، كما يقال للشراء البيع .

و « الحاضر » : اسم فاعل من الحَضَر ، والحضر خلاف البدو . والحضارة السكون بالحضر ، أي المدن والبلاد ، فالحاضر هو المقيم فيها . و « البادي » هو الذي يكون في البادية ، وسكنه المضارب والخيام ، والبادية هي كل مكان يبدو فيها — أي يظهر — ما يَعِنُّ فيه أي يعرض . وهي أيضاً البدو ، وفي

القرآن الكريم « وجاء بكم من البدو » . سورة يوسف (آية ١٠٠) ، أي البادية ، وبدا خرج الى البادية ، وفي التنزيل : « يودون لو أنهم بادون في الأعراب » سورة الأحزاب (آية ٢٠) .

وقد روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن معنى : « لا يبع حاضر لباد » ، فقال ، لا يكون له سمسارا ، أي يغريه على عدم البيع بسرعة ، أو بسعر الوقت ، أو بسعر المِثْل ، ويحاول أن يرجيء البيع ليبيع له السلعة بسعر أغلى ، ويستفيد من وراء ذلك . والسمسار هو الشخص الذي يدخل بين البائع والمشتري متوسطاً لإمضاء البيع ، وقيل هو متولي البيع والشراء لغيره ، وهو بهذا سيحاول تحقيقَ الانتفاع لنفسه ، وإن أبدى أنه ينفع غيره ، وهذا أمر منهي عنه ، وفي حديث سالم أن أعرابياً قدم بجَلوبة — والجلوبة كل ما يُجلب للبيع — فنزل على طلحة ، وكأنه أراد من طلحة أن يتولى بيعها له ، فقال طلحة : نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيع حاضر لباد .

ويقول ابن الأثير في النهاية : « المنهي عنه أن يأتي البدوي البلدةَ ومعه قوت يبغي التسارعَ إلى بيعه رخيصاً ، فيقول له الحضري : اتركه عندي لأغاليَ في بيعه ، فهذا الصنيع محرم ، لما فيه من الإضرار بالغير — والبيع إذا جرى مع المغالاة منعقد — وهذا (١) إذا كانت السلعة مما تعم الحاجة إليها كالأقوات فإن كانت لا تعم ، أو كثر القوت واستغنى عنه ، ففي التحريم تردد ، يعوَّل في أحدهما على عموم ظاهر النص وحسم باب الضرر ، وفي الثاني على معنى الضرر وزواله » .

وجمهور الفقهاء على أن هذا التدخل بين جالب السلعة ومريدها للانتفاع

---

(١) يقصد هذا التحريم .

بها حرام ، وإن كان بعضهم كمجاهد وعطاء وأبي حنيفة قد قالوا : إن النهي عن بيع الحاضر للبادي مكروه كراهةً تنزيهية لا تبلغ التحريم ، ولكن الشوكاني رجح التحريم في كتابه : « نيل الأوطار » . وقد يظن ظان أن مثل هذا الاستغلال لا توجد له صورٌ الآن ، ولكنا نقرأ في كتاب « فقه الكتاب والسنة » للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى هذه العبارة : (١) « ليس صحيحاً ما قد يقال من أن هذا الضرب من البيع لا يوجد هذه الأيام ، فما من فائدة للحديث عنه . هذا ليس صحيحاً ، لأنه يوجد هذه الأيام وبكثرة في كثير من الجهات والحالات ، ولولا يقظة أولي الأمر ، لكان منه أذى كثير لكثير من المواطنين البائعين والمستهلكين على السواء .

من الحق أن الحكومة سعرت كثيراً من المنتجات الزراعية ، وهذا حسن بلا ريب ، ولكن من الحق أيضاً والواقع الذي لا ينكره أحد ، أن هناك كثيراً من المنتجين الضعاف الذين يقعون فريسة لبعض التجار الجشعين النهازين للفرص ، إذ يذهب أولئك بسلعهم إلى الأسواق الرسمية بالارياف ، فيتلقاهم هؤلاء التجار على مبعدة من هذه الأسواق ، وفي غفلة عن أعين المراقبين من رجال الحكومة ، ويشترون منهم ما يحملون من منتجات ، بأقل من السعر المحدد لها ، بعد أن يوهموهم بأن هذا هو السعر الذي تباع به في الأسواق الرسمية .

ومن ذلك نرى أن من الخير — بل من الواجب — معالجة هذه الحالات التي يُخدَع فيها كثير من البائعين ، ويفيد منها التجار الجشعون ، الذين لا خلاق لهم ، وهذا لا يكون إلا بالمزيد من الرقابة الرسمية ، وبتطبيق ما جاء عن الرسول في هذه الناحية » .

* * *

---

(١) كتب هذا سنة ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م ، عليه رحمة الله تعالى .

ثم يقول الحديث : « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » . والرزق هو العطاء الجاري دنيوياً كان أو أخروياً . وقد يطلق على النصيب ، وقد يطلق على الغذاء، أو على ما يؤكل ويلبس ويستعمل مما يخرج من الأرض ، وفي الحديث : « التمسوا الرزقَ في خبايا الأرض ».

وقد يظن ظان أن هناك تعارضاً أو تناقضاً بين قول الحديث : «لا يبع حاضر لباد » . وقوله : « ودعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض» .وليس الأمر كذلك ، لأن المراد هو أن الشخص الذي يقيم في الحضر ، ويعرف ثمنَ السلعة في السوق ، يحرم عليه أن يكون وسيطاً بين البادي جالب السلعة — وهو المنتج بلغة العصر — والذي سيشتريها في السوق — وهو المستهلك بلغة العصر — ولكن عليه أن يترك القادمَ بالسلعة من البادية ليبيعها باجتهاده إلى من يشتريها باجتهاده ، دون تدخل مَنْ يتسبب في رفع السعر على المستهلك ، أو في بخسه بالنسبة إلى المنتج ، وعلى هذا تكون الجملة الثانية في الحديث مؤكدة للجملة الأولى .

والحديث لا يتعارض أيضاً مع جواز أن يقوم الحاضر بتوجيه النصيحة للبادي ، إذا كان جاهلاً بالسعر المناسب لسلعته ، أو بالسعر المألوف عند البيع ، لأن توجيه النصيحة هنا لون من الإرشاد والتحذير من الغبن ويمكننا أن نعتمد في هذا على الرواية الواردة التي تقول : « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض ، فإذا استنصح الرجل فلينْصَحْ له » . كما روي عن البخاري أنه حمل النهي على المتوسط في البيع مقابل أجرة ، فإن كان بغير أجرة فهو من باب النصيحة الجائزة.وكذلك لا يعارض الحديث فيما نفهم جوازَ أن يكون الإنسان « وكيلا » لشركة من الشركات ، أو لمنتج من المنتجين ، حيث يقوم الوكيل مقامَ المنتج في استقبال السلعة منه ، والقيام ببيعها بسعر مناسب .

وقد يحتمل أن يكون معنى قوله : « لا يبع حاضر لباد » هو نهي الإنسان عن أن يبيع سلعة يحتاج إليها أهل بلده لأشخاص طارئين على بلده. قاصداً من وراء ذلك زيادة الربح ، لأنه يكون بهذا قد ارتكب خطأين : أولهما أنه حرم اهل بلده ما يحتاجون إليه ، والآخر أنه استغل طروءَ القادم على البلد ، فباع السلعة بسعر فيه ربح فاحش .

أو كما يمكننا أن نلحظ من قوله : « ودعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » الحكمةَ الاقتصادية في النهي عن بيع الحاضر للبادي ، وهي إلغاء « الوسيط » بين البائع والمشتري ، أو بين المنتج والمستهلك بتعبير آخر ، لأن هذا الوسيط سيحرص غالباً على أن يغبن الباديَ وهو البائع ، فيأخذ منه السلعة بثمن بخس ، ثم سيحرص هذا الوسيط غالباً على أن يظلم مَنْ يشتري منه السلعة بعد ذلك ، بأن يبيعها له بثمن مرتفع أو باهظ ، فكأنه سيسيء إلى من اشترى منه ، وإلى من باع إليه ؛ ولو أن الصفقة تمت مباشرة بين المنتج والمستهلك ، لما حدث لهما هذا السوء ، بل يكون كل منهما معواناً على تحقيق النفع لصاحبه ، لأنه سيبقى لهما وبينهما ما كان سيأخذه الوسيط ، وبذلك يتحسن السعر قليلاً بالنسبة للبادي صاحب السلعة ، ويخف السعر بعضَ الشيء بالنسبة للحضري آخذ السلعة . وهكذا نرى أن الحديث على وجازة عبارته قد أعطانا معنى جليلاً عميقاً واسع الأثر ، وهذا الجانب البياني الباهر في النصوص الدينية ينبغي أن يستوفي حظه من العناية ؛ ولعل هذا هو الذي يدفعني إلى محاولة تجليته فيما قدمت وأقدّم من شروح للأحاديث النبوية والأحاديث القدسية .

هذا ولقد جاء الحديث في بعض كتب الفقهاء على الصورة التالية : « لا يبع حاضر لباد ، دعوا الناس في غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض » . فزادت في هذه الرواية كلمة : « في غفلاتهم » . والغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ ، ورجل غُفْل — بضم فسكون — لم تعلمه التجارب .

وكلمة « غفلاتهم » هذه ليست من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل هي مُدْرَجة في الحديث ، وقد ذكر الفقهاء الحديث موردين هذه اللفظة ، فيظن الظان أنها من الحديث ، وهي ليست منه .

* * *

ويقرب من نهي الحديث عن بيع الحاضر للبادي نهيُه أيضاً عن « تلقي الركبان » ، والركبان هم الذين يجلبون السلعة من مصدر إنتاجها إلى المدينة لبيعها ، وتلقيهم هو مبادرة بعض أهل البلد من التجار إلى لقائهم خارج المدينة ، ليشتروا منهم السلعة بثمن بخس ، ثم يرفعوا ثمنها بعد ذلك على الناس، فيكون هناك غبن للجالب وغبن للمشتري ، والشافعي ومالك وجمهور الفقهاء يرون أن ذلك التلقي حرام ، ويكون فاعله آثماً وإن صح العقد ، لأن الحضري في « تلقي الركبان » يستقبل البدويَّ بعد بلوغه السوق ، ويخدعه فيقول له إن هذه السلعة كاسدة ، وثمنها منخفض ، يريد بذلك أن يشتريها منه بالثمن الوَكْس – بفتح فسكون – أي الناقص القليل ، وهو ما كان أقل من ثمن المثل ، وهذا تغرير محرَّم ، وإذا كان العقد ينعقد إذا اتفقا عليه ، فإنه لو كذب الحضري وظهر الغبن كان البائع بالخيار في إمضاء العقد أو الرجوع فيه ، وقد ورد عن أبي هريرة أنه قال : « نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلقى الجَلَب (أي المجلوب من بلد إلى بلد للتجارة) فإن تلقاه إنسان فابتاعه ، فصاحب السلعة فيها بالخيار إذا ورد السوق » . وفي رواية عن ابن مسعود : « نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تلقي البيوع » .

ويؤخذ من الحديث : « لا يبع حاضر لباد » عدة أمور منها : ترك بعض الحرية للبائع والمشتري دون تدخل بينهما ، وترك الاستغلال الذي يحاوله الوسيط معهما ، وتيسير السلعة للراغب فيها بثمن أقل ، لأن الوسيط لو تدخل لارتفع الثمن بمقدار ما سيأخذه الوسيط تقريباً .

ولقد أورد الشوكاني طائفة من الأحاديث في هذا الباب ، ثم قال : « وأحاديث الباب تدل على أنه لا يجوز للحاضر أن يبيع للبادي من غير فرق بين أن يكون البادي قريباً له أو أجنبياً ، وسواء كان في زمن الغلاء أو لا ، وسواء كان يحتاج إليه أهل البلد أم لا ، وسواء باعه له على التدريج أم دفعة واحدة . وقالت الحنفية إنه يختص المنع من ذلك بزمن الغلاء ، وبما يحتاج إليه أهل المصر ، وقالت الشافعية والحنابلة إن الممنوع إنما هو أن يجيء البلد بسلعة يريد بيعها بسعر الوقت في الحال ، فيأتيه الحاضر فيقول : ضَعْهُ عندي لأبيعه لك على التدريج بأغلى من هذا السعر . قال في الفتح : فجعلوا الحكم منوطاً بالبادي ومن شاركه في معناه ، قالوا : وإنما ذكر البادي في الحديث لكونه الغالب ، فألحق به من شاركه في عدم معرفة السعر من الحاضرين ، وجعلت المالكية البداوة قيد .

وعن مالك : لا يلتحق بالبدوي في ذلك إلا من كان يشبهه ، فأما أهل القرى الذين سيعرفون أسعار السلع والأسواق فليسوا داخلين في ذلك . وحكي ابن المنذر عن الجمهور أن النهي للتحريم ، إذا كان البائع عالماً ، والمبتاع مما تعم الحاجة إليه ، ولم يعرضه البدوي على الحضري . ولا يخفى أن تخصيص العموم بمثل هذه الأمور من التخصيص بمجرد الاستنباط ، وقد ذكر ابن دقيق السعيد فيه تفصيلاً حاصله أنه يجوز التخصيص به حيث يظهر المعنى ، لا حيث يكون خفياً ، فاتباع اللفظ أولى ، ولكنه لا يطمئن الخاطر إلى التخصيص به مطلقاً ، فالبقاء على ظواهر النصوص هو الأوْلى ، فيكون بيع الحاضر للبادي محرما على العموم ، وسواء كان بأجرة أم لا » .

* * *

هذا ، ولقد ورد الحديث بعدة روايات منها :

(١) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع حاضر لباد ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه .

(٢) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع حاضر لباد . وإن كان أخاه أو أباه .

(٣) عن أنس قال : نُهينا أن يبيع حاضر لباد ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه .

(٤) لا تلقوا الركبانَ ، ولا يبع حاضر لباد .

(٥) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يبيع حاضر لباد ، وأن يتناجشوا (والتناجش الزيادة في ثمن السلعة تظاهراً بالرغبة في الشراء ، لينخدع بذلك آخر) .

ولا بد لنا بعد كل هذا أن نتذكر أن أحدث نظم التعاون في العصر الحاضر لم تزد جديداً في هذا المجال على ما جاء به الحديث منذ قرابة أربعة عشر قرنا ، فالحديث يشير إلى إلغاء الوسيط بين المنتج والمستهلك ، وهذا ما يقوم عليه التعاون الحديث ، والفضل الأول للاسلام : « صبغةَ الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

مِن آفات المجتمع

«عن البَرَاء بن عازب رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتقَ في بيوتها — أو قال في خدورها — فقال: يا معشر مَنْ آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين. ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورةَ أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته».

(رواه أبو يعلى في سنده)

* * *

إن للانسان حرمةً كبيرة يجب أن تصان وترعى، ولقد رُوِيَ أن ابن عمر نظر إلى الكعبة يوماً وقال: «ما أعظمك وأعظمَ حرمتك، ولَلْمؤمن أعظم حرمةً عند الله منكِ». ومن أجل هذه الحرمة وتلك المكانة حرَّم الإسلام أن يغتاب الإنسان شخصاً من إخوته في الدين، و «الغِيبَة» — بكسر الغين — هي أن يذكر الإنسانُ غيرَه في غيبته بسوء، وإن كان فيه ذلك الشيء السوء، فإن ذكره بما ليس فيه فهو البَهْتُ والبهتان. والبهت والبهتان هو الكذب والافتراء، وهو أيضاً الباطل الذي يتحير الإنسان منه، والإنسان البَهُوت هو الكثير الكذب.

والغيبة عرَّفها بعض العلماء بقوله هي الوقيعة في النّاس، وهي مأخوذة من مادة «الغيب» لأن الغيب هو ما غاب، ويقال: غابت الشمس، أي استترت

عن العيون ، وقيل للوقيعة في الناس غيبة ، لأنها لا تقال إلا في غيبة من يذكرونه بسوء . وقال آخرون : الغِيبة هي أن يذكر الإنسان غيرهُ بما فيه من عَيب ، من غير اضطرار إلى ذكره ؛ وهي أقوال متقاربة . وقد فسر الحديثُ النبوي الغيبةَ فيما رواه أبو داود ، وفيه أن أبا هريرة سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ . قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول ؟. فقال النبي: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه . أي كذبت وافتريت عليه .

والغيبة محرمة بالقرآن والسنة وإجماع المسلمين ، وقد ورد فيها النهيُ الإلهي الشديد ، حيث شبهها القرآن الكريم بأكل الإنسان لحمَ أخيه وهو ميت ، فقال في سورة الحجرات : « ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرِهتموه ، واتقوا الله . إن الله تواب رحيم » . ومعنى كرهتموه : أي كما تكرهون أكل لحم الميت طبعاً ، فاكرهوا الغيبة شرعاً ، فإن عقوبتها أشد من هذا ؛ وهذا التصوير القرآني يراد منه التغفير عن الغيبة والتحذير منها .

وكذلك ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام تصويرٌ زاجر للمغتابين ، فقال فيما رواه أنس بن مالك من حديث الإسراء والمعراج : « ولما عُرِجَ بي مررت بأقوام لهم أظفار من نحاس ، يخمشون بها وجوههم وصدورهم ؛ قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ . قال : هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس ويقعون في أعراضهم » .

ولقد تكرر النهي عن الغيبة في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام . فقال في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا » . وقال : « كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه ، حسبُ امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » .

والغيبة تمحق الأعمالَ الصالحة والقربات الطيبة . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم عن امرأتين صامتا عن الطعام وجلستا تغتابان الناس : « إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحومَ الناس » .

* * *

والحديث الذي معنا صورة نبوية أخرى من صور التحذير من الغيبة والنهي عنها . وقد جاءت في أوله من عبارة الراوي كلمة : « العواتق » ، والعواتق جمع : عاتق ، والعاتق: هي الشابة أولَ ما تدرك ، وقيل إنها التي ما زالت في بيت والديها لم تتزوج بعد ، وقد أدركتْ وشبت ، وقد تُجمع كلمة عاتق على عُتَّق — بضم العين وتشديد التاء المفتوحة — ويقال : عتقت الجارية ، وكل شيء بلغ أوانَه فقد عتق ، وقيل إن الفتاة العاتق سُميت عاتقاً لأنها عتقت عن الزواج ، فهي لم تتقيد بقيود الزواج بعد .

و « الخدور » جمع خِدْر . والخدر ناحية في البيت يقام عليها ستر ، فتكون فيه البكر ، وتسمى الفتاة حينئذ مُخدَّرة ، وقد يطلق الخدر على البيت . ويفهم من عبارة : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتقَ في بيوتها — أوقال في خدورها » أن الرسول رفع صوتَه في خطبته حتى وصل خدورَ النساء ، وذلك لعناية الرسول بهذا الأمر ، ولأن النهي عن الغيبة يشمل الرجال والنساء .

« يا معشر » : المعشر كل جماعة أمرهم واحد ، فالإنس معشر ، والجمع معاشر .

« لا تتبعوا عوراتهم » : لا تتحولوا إلى عيوب الناس لتجعلوها أمامكم وهدفاً لكم ، وتبحثوا عنها ، وتجمعوها وتذيعوها بين الناس . فذلك من عمل اللئام لا من عمل الكرام . والعورة هي كل ما يستحي منه الإنسان إذا ظهر ،

وكل عيب أو خلل في الشيء فهو عورة . والرديء من كل شيء من الأمور والأخلاق يقال له : أعور ، وكذلك يقال للكلمة القبيحة الزائفة : عوراء ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها : « يتوضأ أحدكم من الطعام الطيب ، ولا يتوضأ من العوراء يقولها » .

« يفضحه » : فضحه كشفه وبيّنه للأعين ، وفضيحة الإنسان هي ظهور العيب فيه واطلاع غيره عليه .

« جوف بيته » : أي داخله ، لأن الجوف من معانيه البطن والقلب .

والغيبة أنواع وألوان ، ومن أنواعها أن يقلد الإنسان غيرَه بصورة تؤذيه وتسيء إليه ، بأن يقلد مشيةً له فيها عيب أو خلل . وقد ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عن تقليد الإنسان لغائب بما لو رآه لساءه ، وقال النبي في ذلك : « ما أحب أني حكيت إنساناً ، وأن لي كذا وكذا » . وحكيت : أي فعلت مثل فعله في الحركة أو المشية أو الكلام ، أو غير ذلك ، يقال : حكاه وحاكاه ، وأكثر ما تستعمل الكلمة في القبيح .

وروي أن امرأة قصيرة دخلت على السيدة عائشة رضي الله عنها ، ثم قامت المرأة لتخرج ، فأشارت السيدة عائشة إلى النبي إشارةً تريد منها أن هذه المرأة قصيرة القامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغتبتها » . وكأن الرسول لم يرتض للصدّيقة بنت الصديق هذه الإشارة التي تبدو في نظرنا خفيفة طفيفة ، ولذلك روي أن عائشة قالت للنبي : حسبك من صفية كذا (تعني أنها قصيرة) ، فقال لها : « قد قلتِ كلمة لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجته » . أي لو خُلطت بماء البحر لغيّرته وجعلته خليطاً مزيجاً . وهذا على سبيل التهديد والتخويف .

والواجب على المغتاب أن يسارع بالإقلاع عن الغيبة وعدم العودة إليها ، ويعزم على ذلك عزماً قوياً ، ويندم على ما فعله منها قبل ذلك ، ويسترضي من اغتابه ويتحلل منه ، وقال بعض العلماء لا يشترط أن يتحلله ، فإنه إن أعلمه بذلك ليطلب منه أن يجعله في حل مما فعل ، ربما تأذى الإنسان الذي قيلت أو

ارتكبت الغيبة في حقه . والأمثل هنا أن يثني الإنسان على من اغتابه سابقاً ، ويذكر ما فيه من حسنات في المجالس التي كان يغتابه ويذمه فيها ، وأن يرد عنه الغيبة ما استطاع ، فتكون تلك بتلك .

والواجب على المسلمين أن ينكروا على متعود الغيبة ويقاوموه ، ولقد روي عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ؛ ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبّه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » . وكذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام : « ما من امرىء يخذل مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه ، إلا خذله الله تعالى في مواطن تجب فيها نصرته ؛ وما من امرىء ينصر امرأ مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته ، إلا نصره الله عز وجل في مواطن تجب فيها نصرته » .

* * *

هذا وقد ذكر العلماء أن الغيبة تجوز إذا كانت هناك مصلحة تدعو إليها ، أو ضرورة تبيحها ، كما في موقف الشهادة ، أو المطالبة بحق ، أو المخاصمة ، أو المشورة بشأن الزواج ، أو الجرح والتعديل في رواية الأحاديث النبوية ، أو ما شابه ذلك .

وقد وردت روايات أخرى للحديث الذي معنا ، منها ما رواه أبو داود عن أبي بردة البلوي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من يتّبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته » .

ومنها رواية ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يُفض الإيمان إلى قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا

تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتّبع عورات المسلمين يتّبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رَحْله » . والرحل هنا يراد به البيت ، ومما يدل على ذلك الحديث الذي يقول : « إذا ابتلّت النعال (أي من المطر) فالصلاة في الرحال » يعني الدور والمساكن .

نسأل الله جل جلاله أن يحفظ ألسنتنا من القول السوء ، وأن يهدينا إلى القول الطيب .

مُقاومة المنكر

عن أبي سعد الخُدْري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

(رواه مسلم)

* * *

يدل هذا الحديث الشريف على أنه يلزم كلَّ فرد في الأمة المؤمنة أن يغيّر المنكرَ بما استطاع ، وأن يقاومه قدرَ طاقته ، حتى يتعاون المجتمع على إزهاق روح الشر ، وتقوية جانب الخير ، وبذلك يصبح المجتمع مجتمعاً فاضلاً تسوده المبادىء الكريمة ، وتعمره الحياة الرشيدة ، ولأن المجتمع إذا تَرك إنكار المنكر وتغييره مع القدرة على ذلك ، تعرض لغضب الله الشامل ، ونقمته العامة ، بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر من يعمله ، فلم يغيروه إلا عمّهم الله بعقاب » . وقوله : « إن الله لا يعذب العامةَ بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ،وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامةَ والخاصة » . وقوله : « ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي ، ثم يقدرون على أن يغيروا فلا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقابه » .

وقد ذكر الحديث الشريف ثلاث مراتب، الأولى هي مرتبة الإنكار باليد ، والثانية هي مرتبة الإنكار بالقول ، والثالثة هي مرتبة الإنكار بالقلب .

وكأنه صلوات الله وسلامه عليه قد أراد أن يقول إن كل فرد يستطيع أن يُسهم بنصيب — مهما كان قليلاً — في مقاومة المُنكر وإزالته . وكأن الرسول يشير أيضاً إلى أن كل طائفة من الناس يناسبها مرتبة من مراتب هذا الإنكار ، فالتغيير باليد يكون من واجب أصحاب السلطة والقدرة ، الذين يستطيعون بمكانتهم وطاقتهم أن يأخذوا السبيلَ على المنكر أخذا حازماً صارماً ، ولعل هذا هو ما يشير إليه الأثر الإسلامي الحكيم : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

والإنكار باللسان من شأنه أن يكون للقادرين على البيان ، والتفريق بين الحلال والحرام ، والتمييز بين الحق والباطل ، وإظهار ما في المنكر من شرور وأخطار ، حتى يحركوا بذلك القول البليغ الوجيع عواملَ الخوف والخشية عند المنحرفين ،وعواملَ الثبات على الحق عند المتقين ،وأما الإنكار بالقلب فإنه آخر المراتب ، ولذلك لا يجوز لمسلم أن يتخلى عنه أو ينأى منه ؛ وليس معنى التغيير باليد أن يندفع المغير للمنكر إلى إثارة الفتنة ، أو الحرب ، أو القتال ، أو الشقاق بين المسلمين ، وإنما يغير في حدود الإصلاح المثمر ، كأن يمنع ظالماً من الظلم ، أو عدوانَ قوي على ضعيف ، أو يزيل ما يؤذي .

ومن واجب المنكر باللسان أن يكون شجاعاً في إنكاره للاثم ، وألا يجبن في ذلك ، وأن يتذكر قولَ الرسول صلى الله عليه وسلم : « ألا لا يمنعن رجلا هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه » . وقوله : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » .

والإنكار بالقلب فرض على كل مسلم ، لأن عدم إنكار القلب للاثم معناه الرضى بالمنكر ، والرضى به معناه إحلالُ ما حرم الله ، وهو ما لا يجوز صدوره من مسلم ، ومهما يكن من أمر ، فكل مسلم مأمور — على أقل تقدير — بأن يغير المنكر بقلبه ، وذلك بأن يبغضه ، ويستهجنه ، فيكره من أعماق قلبه أن يقع ذلك المنكر ، ومن الطبيعي أن تظهر آثار هذه الكراهية القلبية على

ظاهر الإنسان في سلوكه وتصرفاته، وفي إقباله وإدباره ، وذلك فوق نفور مشاعره من ذلك المنكر وعدم مشاركته لأهله .

وللامام علي رضي الله عنه كلمة بليغة عميقة المدلول ، يشير فيها إلى أن أعلى الدرجات التغيير للمنكر ، هي درجة التغيير العملي الإيجابي ، لأن الإصلاح الفعلي إزالة للمنكر من دنيا الواقع ، ومتى زال المنكر ، أتاح المجال للمعروف الطيب ، ثم يشير الإمام علي إلى أن الدرجة الثانية بعد هذا الإصلاح العملي الإيجابي هي التغيير بالقول والكلمة الصريحة الحازمة ، ثم يشير إلى أن أدنى الدرجات هي الإنكار القلبي للاثم ، فإذا حُرم الإنسانُ الانكار القلبي للإثم فقد خرج على بشريته . ويشير الإمام في كلمته إلى أن الأمة حينما تتعرض للضعف يكون أول ضعفها أن تفقد الدرجة العليا من درجات المقاومة للمنكر ، وما تزال تضعف حتى لا تنكر بقلوبها ، فكأنها ليست من بني آدم ، يقول الإمام : « إن أول ما تُغْلَبون عليه من الجهاد جهاد بأيديكم ، ثم الجهـــاد بألستكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ، فمن لم يعرف قلبه المعروف ، وينكر قلبه المنكر نُكِس فجُعِلَ أعلاه أسفله » .

* * *

وإنما تكون مقاومة المنكر إذا شاهده الإنسان ورآه ، لأن الحديث يقول : « من رأى منكم منكراً » . ومفهوم هذا أنه إذا لم يره بأن كان بعيداً منه ، أو مستوراً عنه ، فإنه لا يتجسس ، ولا يتتبع العورات ، لأن النصوص في النهي عن ذلك كثيرة ، وإن كان هذا لا يمنع من التحقق مما يعلمه الإنسان أو يتأكد لديه . وهناك فرق واضح بين التجسس وتسقط الهفوات ، وبين التأكد مما يبلغ الإنسانَ من أمور يعلمها ، ولو تركها دون تحقق وعلاج لأدت إلى أوخم العواقب .

وقد ورد في القرآن الكريم كثير من الآيات التي تدعو إلى مقاومة المنكر ، مثل قول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » [1] . وقول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » [2] وذم الله تعالى لئام الناس بقوله : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » [3] .

وقد اشترط العلماء في تغيير المنكر — سواء أكان باليد أم باللسان — ألا يؤدي هذا الإنكار إلى منكر أكبر أو إثم أعظم ، ولعل هذا هو الذي جعل الإسلام الحنيف يحث المسلم على طاعة الإمام في غير المعصية إذا اجتمعت عليه كلمة الأمة ، ولو بدرت منه هفوات ، إذا كان الخروج عليه سيؤدي إلى الفتنة ، وتفريق كلمة المسلمين .

ويشترط في تغيير المنكر أن يكون الإنسان قادراً على هذا التغيير ، وقد استدل الفقهاء على هذا الشرط بقول الرسول السابق : « ثم يقدرون على أن يغيروا ، فلا يغيروا ، إلا يوشك أن يعمهم الله بعقابه » . ويشترط فيمن يغير المنكر أن يكون عالماً بأنه منكر ، وأنه مما يلزم تغييره ، فلا يجوز لجاهل لا يفرق بين الحلال والحرام ، ولا بين المعروف والمنكر ، أن يتهجم على مقام التغيير للمنكر بلا علم أو فهم . ومما ينبغي للمقدم على تغيير المنكر أن يكون غير متلبس بمثله ، وإلا قيل له :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وبعض الناس قد يتعلل في تقاعسه عن تغيير المنكر بعلة الكثرة في المنكرات والقلة في الطيبات ، وهذا تعلل غير سليم ، لأن الحق لن ينقلب باطلاً مهما

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤ .
(٢) سورة آل عمران آية ١١٠ .
(٣) سورة المائدة آية ٧٩ .

قلّ متبعوه ، ولأن الباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه . والله تبارك وتعالى يقول : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث » (١) .

نعم قد يسقط فرض الإنكار إذا تأكد الإنسان من عدم القبول ، ومن عدم الانتفاع بالإنكار ، ولذلك يقول الإمام ابن رجب الحنبلي ما نصه : « قد ورد ما يستدل به على سقوط الأمر والنهي عند عدم القبول والانتفاع به ، ففي سنن أبي داود وابن ماجه والترمذي عن ابن ثعلبة الخشني أنه قيل له : كيف تقول في هذه الآية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) (٢) ؟ قال : سألتَ عنها خبيراً ، أما والله لقد سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف . وانهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك نفسك ، ودع عنك العوام » . والله تعالى يقول : « فذكر إن نفعت الذكرى » (٣) .

ومن آداب المقاومة للمنكر أن يكون الإنسان حكيماً في هذه المقاومة . لأنها جزء من الدعوة إلى سبيل الله . والله تعالى يقول : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » (٤) . ولقد قال الامام سفيان الثوري : « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، إلا من كان فيه ثلاث خصال : رفيق بما يأمر ، رفيق بما ينهى ، عدْل بما يأمر ، عدل بما ينهى ، عالم بما يأمر ، عالم بما ينهى » .

ومن واجب المسلمين وقد كثرت فيهم المنكرات ، أن يتواصوا بالحق

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٠ .
(٢) سورة المائدة آية ١٠٥
(٣) سورة الأعلى آية ٩ .
(٤) سورة النحل آية ١٢٥ .

ويتواصوا بالصبر ، وأن يتناهوا عن المنكر ، وأن يقوم كل فرد منهم بوظيفته في مقاومة الباطل ، فالقادر بسلطته يلزمه أن يغير بيده ، ومن لم يقدر على غير القول ، لزمه أن يجهر بكلمة الحق ، ولا أقلّ من أن يعمر كل فرد قلبه بكراهية المنكر وعدم الرضى به ، فإن أقل ثمرات هذه الكراهية أن تولد بين الأفراد والجماعات شعوراً مشتركاً يؤدي إلى رأي عام ، يحسب له أهل الباطل حسابَه . وقد وردت في معنى الحديث روايات منها :

(١) ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون لسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك الإيمان حبة خردل .

(٢) سيصيب أمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم ، لا ينجو منه إلا رجل عرف دينَ الله فجاهد عليه بلسانه ويده وقلبه ، فذلك الذي سبقت له السوابق ، ورجل عرف دين الله وصدّق به ، وللأول عليه سابقة ، ورجل عرف دين الله فسكت عليه ، فإن كان رأى من يعمل بخير أحبه عليه ، وإن رأى من يعمل بباطل أبغضه عليه ، فذلك الذي ينجو على إبطائه كله . (روي بسند منقطع) .

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا الى الخير ، وإلى مقاومة المنكر إنه أكرم مسئول ، وأفضل مأمول .

الإسلام ضد الأوهام

عن عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى ، ولا طِيرة ، ولا هامة ، ولا صَفَر ، وفِرَّ من المجـذوم كما تفر من الأسد » (رواه البخاري) .

* * *

إن الله تبارك وتعالى هو مسبب الأسباب ، وخالق الأحياء ، ومنظم السنن الكونية ، ومبدعُ خلقه على أساس النظام والإحكام ، فما من شيء في الكون يجهله خالقه ، ومـا من أمر يجري بغير ما قضى وقدَّر : « بديـع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » ، « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، ألا له الخَلْق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

والرسول صلوات الله وسلامه عليه يريد منا في هذا الحديث أن نعلم أن الإسلام ضد الأوهام ، وأن نغرس جذور التوحيد والإيمان واليقين في قلوبنا وعقولنا ، فنؤمن بأن الله هو الذي يعطي ويمنح ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل ، وهو على كل شيء قدير ، فقال عليه الصلاة والسلام أول ما قال : « لا عدوى » .

والعدوى هي الفساد ، وهي ما يُعدي من جرب أو غيره، وهو مجاوزته

من صاحبه إلى غيره ، وذكر ابن الأثير أن العدوى اسم من الإعداء ، يقال : أعداه الداء ، وهو أن يصيبه مثلُ ما بصاحب الداء ، وذلك أن يكون ببعير جرب مثلاً ، فيتقي الناس مخالطتَه لإبل أخرى ، حذراً من أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها مـا أصابه ، ونفهم من هـذا أن العدوى هـي انتقال المرض من المصاب به إلى غيره، ممن يخالطه أو يعاشره أو يلامسه أو يدنو منه ، أو يستعمل أشياء ذلك الإنسان المصاب ، وقد أثبت العلم الحديث أن هذه الأمراض المعدية تنتقل من المريض إلى السليم بوساطة جراثيم ضئيلة لا تستطيع العينُ المجردة أن تراهـا ، ولكن أهـل الجاهلية كانوا يعتقدون أن الأمراض تعدي بطبعها وقدرة ذاتية فيها ، لا صلة لها بتقدير الله أو إرادته ، مع أن الله هو الذي يهب كل قوة وكل قدرة .

ولما جاء الإسلام ووجد هذا الظن الباطل فاشياً نص على إبطاله ، فأعلمهم النبي عليه الصلاة والسلام أن الأمر أولاً وقبل كل شيء يعود إلى الله تعالى ، وأن المرض لا يتعدى بنفسه ، وإنما الله تعالى هو الذي يُمرض ويُنْزل الداء . أي ليست هناك قدرة ذاتية للمرض ينتقل بها من شخص إلى شخص حسب إرادة هذا المرض ، بل ما يحدث من أشباه ذلك إنما هو خاضع لأمر الله سبحانه، مسخّر تحت مشيئته ، وكأن هذا التذكير يوحي بالاطمئنان في نفس مَنْ ترغمه ظروف الحياة على معايشة مريض أو مساكنته ، لأن الحصانة النفسية تعاون على الوقاية والسلامة ، وكم من متوهمين للعدوى خائفين منها حاذرين لها ، تصيبهم هذه العدوى ، لأنهم استضعفوا أنفسهم أمامها ، فاستشعروا وقوعَها ، فمهدوا للعدوى طريقها وللمرض سبيله .

وبهذا نستطيع أن نوفق بين قول الحديث : « لا عدوى » وبين ما جاء من أحاديث أخرى تشير إلى وقوع العدوى، وتحث على تجنب أسبابها ، كقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا يُورِدنَّ ممرض على مُصِحّ » وفي رواية : « لا يوردن ذو عاهة على مصح » . والممرض هو صاحب الإبل المريضة ،

والمصح هو صاحب الإبل الصحيحة السليمة ، أي لا يوردن الذي إبله مرضى على الذي إبله صحاح ، أي لا يسقيها معها، وهذا يتضمن الدعوة إلى التفرقة بين المريض والصحيح .

وكذلك روى البخاري ومسلم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: ماذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطاعون ؟ . فقال أسامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل ، وعلى من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به في أرض ، فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه » .

وهذا الحديث يتضمن إشارة قوية إلى نظام « الحجر الصحي » الذي يعزل المرضى بمرض مُعْدٍ عن بقية الأصحاء ، حتى لا ينتشر المرض بين الجميع ، بل يمكن أن نفهم من هذا الحديث أكثر من أمر . نفهم منه أنه يرشد إلى قطع الطريق على نقل العدوى ، فالذين يوجدون بداخل البلد المطعون أهله لا يخرج منهم أحد إلى خارجه ، لأنه ينقل بخروجه المرض إلى غيره ، وقد يكون هذا الخارج سليماً في الظاهر ، ليست به إصابة بادية ، ولكن المرض يكون فيه من الداخل ، وهذا الشخص هو الذي يسمى « حامل ميكروب المرض » ، فلو خرج لنقل الميكروب إلى شخص سليم صالح لتقبله فتنتشر العدوى .

ونفهم من الحديث أيضاً التوجيه إلى إبقاء من يقوم بشأن المرضى داخل البلد المطعون ، فالمرض قد يكون موجوداً عند فريق من أهل البلد دون سائرهم ، فلو أن من كان سليماً بادر إلى الخروج من منطقة المرضى ، لكانت النتيجة أن يبقى المرضى وحدهم دون معالج لهم ، أو ساهر على شئونهم ، مع أن هؤلاء الأصحاء الموجودين في البلد المطعون يستطيعون اتخاذ الحيطة والحذر مع بقائهم في البلد لقيامهم بواجبهم الإنساني نحو هؤلاء المصابين .

ونفهم من الحديث كذلك التوجيه إلى تقوية الروح المعنوية التي تؤدي إلى

لون من المناعة الجسمية التي تقاوم المرض وتتأبى على العدوى ، وكأن هذه التقوية سد يقف في وجه الضعيف الذي يبدو بشكل ملحوظ عند كثير من الناس حين الإحساس بعامل من عوامل العدوى . وكم من أناس أحيوا في أنفسهم هذه الروحَ المعنوية ، وسيطرت على أنفسهم عواملُ الاطمئنان والثقة واليقين ، فسلموا حين دفعتهم ظروف حياتهم إلى التعرض للعدوى في أثناء قيامهم بواجبهم نحو غيرهم من المرضى ، وهنا نتذكر ما رُوي من أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بيد مجذوم فوضعها مع يده في قصعة الطعام ، وقال له : « كُلْ ثقةً بالله وتوكلا عليه » ، وإنما كان ذلك لأن الرسول العظيم قد توافر له اليقين بأن العدوى لن تحدث إلا بإرادة الله تعالى ، فتأبّى بذلك اليقين على الخضوع لعواملها .

ومع ذلك فهو الذي دعا إلى عدم مخالطة المجذوم ، فقد روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم رد رجلاً مجذوماً كان في وفد ثقيف ، وقال له : « ارجع فقد بايعتك » . وإنما رده رسول الله لأن الجذام من الأمراض المعدية ، وكانت العرب تتطير منه وتتجنبه .

وقيل إنه قد رده لئلا ينظر أصحابُه إليه فيزدرونه ، ويرون لأنفسهم عليه فضلا ، فيدخلهم العجب والزهو ، وقيل : لئلا يحزن المجذوم برؤيته النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما فُضّلوا به عليه ، فيقل شكره على بلاء الله تعالى . وقيل : لئلا يعرض لأحدهم جذام فيظن أن ذلك قد أعداه .

هذا ما قيل ، ولكن النفس تميل إلى التعليل الأول ، وفي التاريخ الإسلامي ما يؤيد ذلك ، وهو قصة عمر الفاروق رضي الله عنه حينما علم بأمر الطاعون ، وقد أوردتُ هذه القصة في كتابي « أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ، وفيها أن الطاعون ظهر بالشام في العام السابع عشر ، وكان عمر في الخلافة ، وحدث أن خرج عمر في تلك السنة غازياً ، ومعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار ، فلما كان على مسافة من أرض الشام ، خرج إليه أمراء الأجناد ، وأخبروه بخبر

الطاعون ، وخوفوه وأشاروا عليه بالرجوع ، فجمع عمر الناسَ ليستشيرهم، مال كثير من القوم إلى الرجوع . فقال له أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قَدَرِ الله يا عمر ؟ .

فأجابه عمر قائلاً : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟ نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو أن رجلاً هبط عدوتين (ضفتين) إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس يرعى مَنْ رعى الجدبةَ بقدر الله ، ويرعى مَنْ رعى الخصبةَ بقدر الله ؟ .

ثم أراد عمر أن يستطلع رأي أبي عبيدة على جليته ، وأن يعرف برهانه في قوله ، أو يقنعه بحجته ، فاختلى به ناحيةً دون الناس ، وبينما الناس كذلك إذ أقبل عبد الرحمن بن عوف ، وكان غائباً عن القوم ، لم يشهد خلافَهم بالأمس ، فسأل عبدُ الرحمن : ما شأن الناس ؟ فأخبروه الخبر ، فقال : عندي في هذا علم .

قال عمر : فأنت عندنا الأمين المصدَّق ، فماذا عندك ؟ .

قال سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه » ، فقال عمر : فلله الحمد ، انصرفوا أيها الناس ، وعاد بهم .

وهذا الحديث الذي ذكره ابن‌عوف رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد.

وجاء في سيرة خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه أن محمد بن المنذري روى له في الطاعون حديثاً يقول : « عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذُكر عنده الطاعون ، فقال إنه رجز عُذّبت به أمم من الأمم، وقد بقيت منه بقايا ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تهربوا منها » . فقال خامس الراشدين : هكذا حدثني عامر بن سعد بن أبي وقاص » . ولاستيفاء الحديث المبسوط عن موقف عمر من الطاعون

يراجع كتابي « أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح » من صفحة ٤٣ إلى صفحة٤٧.

وإذا كان الحديث يقول : « لا عدوى في الإسلام » كما جاء في شرح ابن أبي الحديد لكتاب « نهج البلاغة » وجاء أيضاً في كتاب « أمين الأمة » الحديث الذي يقول : « لا يُعْدي شيء شيئاً » والحديث الذي يقول إن أعرابياً سمع الرسول يقول : « لا عدوى » فسأله : يا رسول الله ، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء ، فيخالطها البعير الأجرب فيُجْربها ؟ . فأجابه : فمن أعْدَى الأول ؟ .

والحديث الذي يقول إن أعرابياً قال للرسول : يارسول الله ، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها ؟ . فقال له : « فما أجرب الأول ؟ لا عدوى ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس، وكتب حياتها ومصابها ورزقها .

إذا كانت هذه الأحاديث قد وردت ، فالمراد منها هو أنه لا يعدي شيء شيئاً بقوة ذاتية فيه ، بل بقدرة الله وتأثيره . وبهذا لا تتعارض مع ما رواه أبو داود في سننه مرفوعاً وهو : « إن العرق التلف » وقد قال ابن قتيبة في تفسيره : « العرق مداناة الوباء والمرض » .

ويمكن أن نخلص من الحديث عن العدوى بما يأتي :

أولاً : لا يمكن نفي العدوى مطلقاً ، لأن هذا يصادم الحس والطب ، ولكن وقوع العدوى خاضع لقدرة الله وقضائه .

ثانياً : نفي العدوى في الحديث قد يقصد منه نفي الضعف عند رؤية المريض أو القرب منه ، حتى يستشعر السليم حصانة نفسية وقوة روحية في تلك الحال .

ثالثاً : لعل المراد بنفي العدوى نفيها في بعض الأمراض، مع وجودها في بعض آخر منها كالجذام مثلاً .

رابعاً : المرض ليست له قوة ذاتية تمكنه من أن يُعْدي باختياره ، وإنما الأمر راجع إلى الله سبحانه وتعالى ، فهو القادر على أن يسلب هذه الأمراض قوةَ العدوى الكامنة فيها .



ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ولا طِيرَة » .

والطيرة — بكسر الطاء وفتح الياء وقد تُسَكّن — هي مصدر تطير ، وهو التشاؤم بالشيء ، وقيل : الطيرة ما يتشاءم به من الفأل الرديء . يقال : تطير به وتطير منه ، وطار طيرُه : أي غضب .

وفي القرآن الكريم : « إن تصبهم سيئة يطيروا » أي يتشاءموا ، وفيه أيضاً : « إنما طائرهم عند الله » أي شؤمهم وما قد أعد الله لهم بسوء أعمالهم ، وفيه كذلك : « اطّيّرنا بك وبمن معك » أي تشاءمنا . وقد جاء في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكره الطيرة ، ويحب الفأل ، والفأل هو الاستبشار .

وقد أخذ العرب الأوائل كلمة « الطــيرة » من اعتمادهم في تفاؤلهم وتشاؤمهم على الطير ، فكانوا يتطيرون بالسوانح والبوارح من الطيور والظباء وغيرها ، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم ، فكانوا إذا هموا بأمر من أمور العمل أو الحرب أو المسالمة أو غيرهما ، زجروا الطير وأطاروها من أوكارها وأعشاشها ، فان اتجهت الطير يميناً استبشروا وأقدموا على ما أرادوا من عمل ، وإن اتجهت شمالاً تشاءموا ، وأحجموا عن الاقدام على ما هموا به من أعمال.

فجاء الإسلام فنفى ذلك وأبطله ونهى عنه ، وأخبر أن هذا ليس له تأثير في طلب نفع أو دفع ضر .

ولقد كانوا يتشاءمون من سماع العطاس في الصباح ، ولذلك كانوا يبكرون

إلى أعمالهم قبل أن يسمعوا عطاساً فيتشاءموا منه ، ومن شعر امرىء القيس في نحو هذا :

وقد أغتدي قبل العطاس بهيكل شديد منيع الجنب فَعْم المنطق

وقال رؤبة يصف صحراء : « قطعتها ولا أهاب العطاسا » . وكان الواحد منهم إذا سمع عطاساً من غيره قال له : « بكلابي ، أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا بي » . فجاء الإسلام ونهى عن ذلك ، وأرشد الإنسان إلى أن يدعو للعاطس بالرحمة .

وتشاءم العرب قديماً من الغراب وسموه « غراب البين » ، كما تشاءموا من الثور الأعصب ، وهو المكسور القرن ، وتشاءموا بالطير البارح ، وهو ما ولاك مياسرَه ، وتطيروا من ذكر البرص .

والتطير كان شائعاً عند الكثير من العرب ، وإن استنكره القليل منهم كالذي قال :

لعمرك ما تدري الضواربُ بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وكالذي قال :

وما عاجلات الطير تُدني من الفتى نجاحاً ، ولا عن ريثهن قصور

ولقد أشرق الإسلام فعلم الناس أن يبحثوا أمورهم ، ويميزوا بين الخبيث والطيب ، ويستعين بعضهم بآراء بعض عن طريق المشاورة والمناصحة ، فإذا استبان لهم طريقُ الخير بعد تمحيص الآراء ، وتقليب وجوه التفكير ، أقدموا على ما اقتنعوا به راشدين جادين ، وهذا بعض ما يفهم من قول الله تعالى : « وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله » .

وقد ورد في النهي عن « الطيرة » جملة أحاديث ، منها ما رواه ابن حبان عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا طيرة ، والطيرة على من تطير »

وأخرج ابن عدي عن عبد الرحمن بن صخر مرفوعاً : « إذا تطيرتم فامضوا ، وعلى الله فتوكلوا » . وعن ابن عمر موقوفاً : « من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل : اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك » . وعن أبي الدرداء : « لن ينال الدرجات العلى من تكهن ، أو استقسم ، أو رجع من سفر تطيراً » . وروي عن النبي أيضاً : « ليس منا من تطير أو تُطيِّرَ له » . وروي أنه كان لا يتطير من شيء .

* * *

ودعا الإسلام في هذا المجال إلى التفاؤل والاستبشار وتوقع الخير ، ولذلك روت السنة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، وكان يقول : « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل الصالح » . ويقول : « حسن الظن بالله من حسن العبادة » . وقال : « بشّروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا » . والقرآن الكريم قد أشار في أكثر من موطن إلى الأثر الطيب للتفاؤل والاستبشار ، فقال عن والد يوسف عليهما السلام : « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً » . وبشرت الملائكة ابراهيمَ بالولد وهو طاعن في السن ، ولما قال : « أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ؟ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ، قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » وقال الله تعالى عن القرآن : « يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ، ماكثين فيه أبداً » . وجاء في القرآن : « وبشر المؤمنين » ، « وبشر المحسنين » ، « وبشر الصابرين » .. إلخ . .

وقد روى ابن أبي الحديد في شرحه كتابَ « نهج البلاغة » عن الإمام علي قولَه : « الفأل الحق ، والطيرة ليست بحق ، والعدوى ليست بحق » .

ولقد خوّف بعضُ الناس ابن سيار الفزاري عن طريق التطير ، فلم يبال بذلك ، ومضى إلى غايته فأفلح ونجح ، وهو يردد قوله :

تعلَّمْ أنه لا طير إلا على متطير ، وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا ، وباطلُه كثير

وقد أشار الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى علاج الطيرة حين قال : « من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل : اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » وفي رواية أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما سئل عن هذه الأمور قال : « أحسنها الفأل ، ولا يرد قدراً ، ولكن إذا رأى أحدكم ما يكره يقول : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » . وقال في حديث آخر : « إذا ظننتم فلا تحققوا ، وإذا تطيرتم فامضوا ، وعلى الله فتوكلوا » . وقال : « تفاءلوا ولا تطيروا » . وحينما سئل الرسول عن الفأل الصالح الذي يحبه ، أجاب : الكلمة الطيبة . وحينما أشار النبي إلى تعرض كل إنسان في بعض الأحيان لمثل هذه الأمور بقوله : « ثلاث لا يسلم أحد منهن : الطيرة والحسد والظن » . قيل له : فما نصنع ؟ . قال : « إذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق » .

وقد شدد الرسول النكيرَ على التطير حين قال : « الطيرة شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل » . وتقدير ذلك هو : إلا وقد يعتريه التطير ، وتسبق إلى قلبه الكراهة . وإنما جعل الطيرة من الشرك ، لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعاً ، أو يدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبه . فكأنهم أشركوا مع الله في ذلك .

وقوله : « ولكن الله يذهبه بالتوكل » ، معناه — كما جاء في النهاية — : إذا خطر له عارض التطير ، فتوكل على الله ، وسلّم إليه ، ولم يعمل بذلك الخاطر ، غفر الله له ، ولم يؤاخذه به .

* * *

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ولا هامة » : والمشهور أن كلمة « هامة » بفتح الميم ، ولكن أبا زيد قال إنها مشددة الميم : « هامّة » وقال أبو

عبيدة عن ذلك : « ما أرى أبا زيد حفظ هذا » . والهامة هي رأس كل شيء . وجمعها هام ، وهي طائر من طيور الليل ، وهو « الصدى » كما ذكر القاموس المحيط ، وجاء في النهاية أن الهامة هي التي كانوا يزعمون أنها في الأصل عظام الميت ، تصير هامة ثم تطير من قبره » .

ومن مدلولات الهامة أيضاً ذوات السموم ، ودَوَابّ الأرض التي تهم بإيذاء الناس . وقيل إن الهامة هي الطير المعروف باسم « البومة » وهو يطير بالليل . وقال ابن الأعرابي : إن العرب كانوا يتشاءمون إذا وقف هذا الطائر على باب أحدهم ، حيث يتوهم أنه ينعى إليه نفسَه ، أو أحدَ أحبائه ، أو مالَه ، أو ما شاكل ذلك .

وكان عرب الجاهلية يزعمون أن القتيل إذا لم يؤخذ بثأره فإنه يخرج من رأسه طائرٌ صغير يسمى « الهامة » وينادي هذا الطائر فوقَ قبر القتيل : اسقوني فإني صَدِيَة (أي عطشى) . ويستشهد لذلك بقول ذي الإصبع :

يا عمرو إلاّ تدع شتمي ومنقصتي ... أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقول الفقعسي :

له هامة تدعو إذا الليل جنّها ... بني عامر ، هل للهلالي ثائر

بل زعموا أن كل ميت أو قتيل له هامة ، ولذلك قال قائلهم :

فيا رب إن أهلك ولم ترو هامتي ... بليلي أمت لا قبر أعطش من قبري

وقال الآخر :

سُلّط الموت والمنون عليهم ... فلهم في صدى المقابر هام

وذكر المسعودي في كتاب « مروج الذهب » أنه كان من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط في الجسم ، فإذا مات الإنسان أو قُتل ، لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر

حتى يكون كالبوم . وقيل إن الهامة هي أنثى البوم ، فالأنثى من البوم تسمى الهامة ، والذكر منها يسمى « الصَّدَى » . وقيل إن الهامة إحدى هوام الأرض . وقيل إنها دودة تدور حول قبر القتيل ، وتقول : « اسقوني اسقوني » ، فإن أخذوا بثأره انقطعت عن ذلك وذهبت ، وإلا بقيت .

ومعنى قول الحديث : « لا هامة » أنه لا يوجد شيء اسمه الهامة ، إذا فسرنا الهامة بأنه الكائن الحي الذي يخرج عقب القتل ، ويصيح ويقول : اسقوني اسقوني . وإذا فسرنا الهامة بأنها « البومة » فالمعنى أن هذا الطائر لا دخل له في الإضرار أو جلب الشقاء .

* * *

ثم قال الحديث : « ولا صفر » . ولفظ الصَّفَر من الألفاظ المشتركة ، وقد أطلقوه على أكثر من شيء ، فقال البخاري إن الصفر داء يأخذ البطن ؛ ورجح الطبري هذا التفسير . لأن الأعشى يقول في رثائه المنتشرَ بن وهب : «ولا يعض على شُرسوفه الصفر » . وقيل إنه حية تصيب البطن ، ويقال لها « شجاع البطن » ، ولذلك يقول الشاعر : « وشجاع البطن يختنق » . وقال آخر :

أردُّ شجاعَ البطن قد تعلمينــــه   وأوثر غيري من عيالك بالطعـــم

وجاء في القاموس أن « الصفراء » داء في البطن يصفر الوجه ، وحية في البطن تلزق بالضلوع فتعضها ، أو دابة تعض الضلوع والشراسيف ، أو دود في البطن أو الجوع . (والشراسيف جمع شُرسوف وهو الضلع) .

وفي « مفردات القرآن » للأصفهاني أن الصفر هو خلو الجوف والعروق من الغذاء ، ولما كانت تلك العروق الممتدة من الكبد إلى المعدة إذا لم تجد غذاءً امتصت أجزاء المعدة ، اعتقد جهلة العرب أن ذلك حية في البطن تعض بعض الشراسيف .

كما أن العرب كانت تعتقد أن هذه الحية تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه ، وأنها تعدي ، فنفى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « لا صَفَرَ » ، أي ليس في البطن ما يعتقدون أنه فيه ، وهو الحية .

وقيل إن المراد بكلمة « صفر » الشهر المسمى بصفر : وقد سمي بهذا الاسم — كما قيل — لخلو بيوتهم فيه من الزاد ، وكانوا في الجاهلية يتبعون نظام « النسيء » المتعلق بالشهور المحرم فيها القتال ، فكانوا يؤخرون شهر « المحرم » الذي يحرم فيه القتالُ إلى شهر « صفر » ويتقاتلون في « المحرم » مع أنه شهر حرام عندهم ، فأبطل الإسلام ذلك . وقال القرآن الكريم : « إنما النسيء زيادة في الكفر ، يُضَل به الذين كفروا . يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين ». وذلك عقب أن قال : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيهن أنفسكم » . والشهور الأربعة هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وعلى هذا فالمراد بكلمة « صفر » في الحديث واحد من أمرين ، إما ما كانوا يزعمونه من وجود حية في البطن تعض الإنسان إذا جاع ، وإما ما كانوا يفعلونه من إحلالهم القتالَ في شهر المحرم ، وتأخير التحريم للقتال إلى الشهر التالي له ، وهو شهر صفر ، وقد أبطل الإسلام كلَّ هذا ، لأن الأمر الأول من المزاعم الباطلة ، ولأن الأمر الآخر لون من المخادعة والاحتيال .

ونلاحظ هنا أن ابن أبي الحديد قد نقل عن أبي عبيدة قولَه : « صفر هو الشهر الذي بعد المحرم ، وهذا نهي عن تأخيرهم المحرم إلى صفر ، وهو ما هو كانوا يفعلونه من النسيء » . ثم علق ابن أبي الحديد بقوله : « ولم يوافق أحد من العلماء أبا عبيدة على هذا التفسير » . ومعنى هذا أن ابن أبي الحديد يرى أن المراد بالصفر هنا ما كانوا يزعمونه من وجود حية تعض الضلوعَ عند الجوع .

كما ينبغي أن نلاحظ أن العرب كانوا – في الغالب – يجعلون النسيء – وهو التأخير في تحريم الشهور – من المحرم إلى صفر ، بسبب أن الشهور الثلاثة الأولى من الشهور الأربعة تأتي متتابعة ، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وأما رجب رابعها فيأتي منفصلاً منفرداً ، فكانوا يستطيلون البقاء ثلاثة شهور متتابعة بلا قتال ، فكانوا يستحلون القتال في المحرم ، ويؤخرون التحريم إلى صفر .

ويروى أن أول من نَسَأ الشهور هو عمرو بن لحي الخزاعي ، وقيل إنه القَلَمّس حذيفة بن فقيم بن عامر ، وقيل غير ذلك ، فكانت القبائل تستبيح القتال في شهر المحرم ويجعلون مكانه شهراً آخر ، وقد تفاخر بذلك شاعر منهم فقال :

ألسنـا النـاسئين عـلى معـد شهورَ الحِلِّ نجعلها حرامـا ؟

وقد أشار رسول الله عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع إلى تحريم النسيء حيث قال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » . وأضيف رجب إلى مضر لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه أكثر من غيرهم .

ومعنى استدارة الزمان في الحديث هو عودة حساب الشهور إلى ما كان عليه ، بعد أن كان هذا الحساب قد تغير واضطرب ، بسبب نسيئهم وتغييرهم أسماءَ الشهور عند ذلك ، حيث كانوا يسمون الشهر المنسوء باسم الأصل .

وفي بعض روايات الحديث جاء قوله : « لا عدوى ولا صفر » ومن الممكن أن نفسر الكلمتين مترابطتين ، فإن العرب كانوا يعتقدون أن الصفر داء ينشأ من حية في البطن تصيب الماشية والناس ، وأنها أعدى من الجرب ، فجاء الحديث لينفي العدوى الناشئة بزعمهم مِن وجود الصفر ، وبحيث أنه لا توجد حية فلا

توجد عدوى ناشئة عنها ، والبخاري يرجح هذا التفسير . وعلله بكون الرواية عطفت بين العدوى والصفر وقرنت بينهما .

* * *

ثم قال الحديث : « وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد » .والفرار هو الروغان والهرب ، والجذام – كما في القاموس – بوزن غراب . علة تحدث من انتشار السوداء في البدن كله ، فيفسد مزاج الأعضاء وهيأتها . وربما انتهى إلى تآكل الأعضاء وسقوطها عن تقرح . وهو مرض شديد العدوى، ويعد من الأوبئة الخطيرة التي يلزم تجنبها باحتراس .

والمعنى : ابتعد عن المصاب بمرض الجذام . وتجنبه كما تتجنب الأسد الذي سيفترسك ، والأسد يضرب مثلاً للاخافة ، وللحمل على الفرار والهرب ، ولذلك جاء في القرآن الكريم قوله في تصوير شدة الفرار : « فرت من قسورة » أي من أسد . هذا ، وقد جاء في بعض روايات الحديث : « لا عدوى ولا هامة ولا صفر ولا غُول » . فجاءت كلمة « غول » والغيلان هي السعالى ؛ وهي كما يزعمون إناث الشياطين ، وذكر الدميري في كتابه « حياة الحيوان » أن الغول – بضم الغين – واحد الغيلان ، وهو جنس من الجن والشياطين : وهم سحرتهم ، ويضرب المثل بالغول في الهول ؛ ولذلك يقول امرؤ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وسميت الغيلان بذلك لأنها تغتالهم بزعمهم ، أو لأنها تتلون كل وقت ، من قولهم تغولت البلاد إذا اختلفت ، والتغول هو التلون ، وكانوا يزعمون أن الغول تتراءى عن الطريق ولذلك قال كعب :

فما تدوم على حال تكون بها كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغول .

ولم يَرِدْ تفنيد زعمهم من الغول في حديث واحد فقط ، بل ورد فيه أيضاً

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا تغولت الغيلان فنادوا بالآذان » وهو حديث صحيح ، أي ادفعوا شرّها بذكر الله تبارك وتعالى ، والجمع بين هذا الحديث والحديث السابق وهو : « لا عدوى ولا هامة ولا صفر ولا غول » يكون بأن نفهم أن المراد ليس نفي وجود الغول ذاتها ، ولكن المراد هو نفي ما كانوا يزعمونه فيها من الظهور والتلون والاغتيال ، فقوله : « لا غول » أي لا غول على الصورة التي يزعمونها . وقال جمهور العلماء في ذلك : كانت العرب تزعم أن الغيلان في الفلوات — وهي جنس من الشياطين — تتراءى للنـــاس وتتغول تغولاً ، أي تتلون تلونا لتضلهم عن الطريق وتهلكهم ، فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، وقالوا : معنى (لا غول) هو : لا غول تستطيع أن تضل أحداً .

وهكذا نجد أن هذا الحديث الشريف قد أبطل طائفة من الأوهام والمزاعم التي كانت موجودة في الجاهلية ، ودفع الناس إلى طريق العقل والرشاد ليحيوا حياة سعيدة رشيدة ، عمادها التفكير السليم ، والإيمان العميق بالله جل جلاله .

السبع المهلكات

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبعَ الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ . قال : الشرك بالله ، والسِّحْر ، وقتل النفس التي حرَّمَ الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولّي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

(رواه البخاري ومسلم)

* * *

إن الله تعالى قد فَرَّق بعلمه وحكمته وهديه بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، فجعل لنا الحلال بيّناً ، والحرام بيناً ، ليميز الخبيث من الطيب ،ويهدي من يريد الاهتداء إلى سواء السبيل ، وهناك طائفة من كبائر الآثام وعظائم السيئات لا يليق بالمسلم أن يقترفها أو يدنوَ منها ، وفي هذا الحديث أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبع منها ، فقال : « اجتنبوا السبع الموبقات » : أي المهلكات إهلاكاً ماحقاً ؛ يقال وبق فلان : أي هلك، ويقال أوبق غيرَه ، أي أهلكه .

وكأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد ذكر هذه الكبائر السبع مبهمة أولاً ، لينبه الأسماع إليها ، ويشوق النفوس المؤمنة إلى معرفتها لتحذرها .

فإذا فصلها بعد ذلك تمكنت من العقول . فوعتها وداومت على تجنبها ، ولذلك وجدنا الصحابة يتطلعون إلى معرفة هذه الكبائر ، لكي يباعدوا أنفسهم عنها ، فذكر لهم الرسول في أولها « الشرك بالله » ، وهو أن يجعل الإنسان مع الله شريكاً آخر : ملَكاً كان أو إنساناً أو جماداً أو كوكباً أو غير ذلك،والشرك بالله هو رأس كل خطيئة،وأساس كل كبيرة، ولذلك قال القرآن الكريم : إن الشرك لظلم عظيم » . وقال : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين » . وقال : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

والإنسان العاقل لا يسعه إلا الإيمان بإله واحد ، خلق الخلق ، وأجرى الرزق ، وسيطر على الكون ، لأن تعدد الآلهة يؤدي إلى التنازع ، والتنازع لا يتفق وكمال الاقتدار الذي هو صفة الله تعالى ، ولا يستقيم أمر العالم أيضاً مع هذا التنازع ، ولذلك يقول القرآن : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . والشواهد في الكون توحي بوحدانية الله وانفراده بالألوهية ، ولذلك قال الشاعر الحكيم :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد .

وهنالك ألوان من الآثام تعد ألوانا من الشرك الخفي ، فهي أشبه بأبواب قد يؤدي دخولها إلى بلوغ حمى الإشراك بالله ، وقد أشارت طائفة من الأحاديث إلى هذه الآثام مثل قول الحديث : « إن الشرك في أمّتي أخفى من دبيب النمل » ، يريد الرياء ، وقوله : « من حلف بغير الله فقد أشرك » حيث جعل ما لا يُحلف به محلوفاً به كاسم الله تعالى الذي يكون به الحَلِف . وقوله : « التطير شرك ، ولكن الله يُذهبه بالتوكل » .

والكبيرة الثانية هي « السحر » . والسحر في كلام العرب هو صرف الشيء عن وجهه ، وهو يعتمد في أغلب أحواله على المخادعة والاستهواء وخفة الحركة ، فيؤثر في بعض النفوس الصالحة لذلك ، ويخفي سره لغرابته أو دقته ، ويزعم السحرة أن لسحرهم دخلا في الحب والبغض ، والخير والشر ، والنفع والضرر .

والسحر كبيرة من الكبائر إذا عمله الإنسان وأضر به غيره . ولكن إذا تعلمه ليحذره ، أو ليحذّر الناس منه لم يكن ساحراً ، وقيل إن اقتراف السحر أيضاً يعد كفراً ، بدليل قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » . ولعل الكفر يكون حقيقة إذا قارف الإنسان السحرَ واستحله .

والكبيرة المهلكة الثالثة هي : « قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق » . أي إزهاق روح الإنسان الذي حرم الله قتله ، لأن نفسه محرّمة ، فالرسول يقول : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » . والقتل هو أول جريمة ارتكبت في تاريخ البشرية ، وهي أشنع جريمة تثير العداوة والحقد ، وتهلك الحرث والنسل ، وتفتح الباب لسلسلة من الجرائم والآثام ، ولذلك تهدد القرآن القاتلَ فقال : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » .

والشخص المعاهَد كالمسلم في حرمة الدم ، لأن الرسول يقول فيما رواه البخاري : « من قتل نفساً معاهَداً لم يرح رائحةَ الجنة . وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » . ورواية الترمذي : « من قتل نفساً معاهَداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحةَ الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً » . والمعاهد هو من عاهده المسلمون أو أمنوه ، أو كان كتابياً .

وقد قال الرسول هنا : « إلا بالحق » لأنه إذا قام على هذه النفس حق يبيح قتلها أو يستوجبه فإن قتلها لا يعد جريمة ، كمن يبغي علينا ويحاربنا ويبدأ قتالنا ، وكالقاتل لغيره ، فإنه يقتل قصاصاً ، لأن القرآن يقول : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » .

والكبيرة المهلكة الرابعة هي « أكل الربا » : أي أخذه والرضى به ، والربا معناه في الأصل الزيادة ، وفي الشريعة هو زيادة تشترط عند التعاقد على القرض فيشترط المقرض أن يرد إليه المقترض رأس المال وفوقه زيادة هي الربا ، وقد عرفه ابن الأثير بأنه الزيادة على أصل المال من غير عقد تبايع ، والربا وسيلة خبيثة لأكل أموال الناس بالباطل ، واستغلال القوي للضعيف ، وتحكم الغني في المحتاج ، وتمزيق أواصر الأخوة والتعاون بين الناس ، وبث الأحقاد والعداوات بين الأفراد والجماعات ، ولذلك روي أن الربا لم يحل في أي شريعة من الشرائع الإلهية ، وروُي أنه علامة لسوء الخاتمة ، ولم يهدد الله تعالى في القرآن عاصياً بالحرب سواه ، وقد جاء في القرآن عن الربا قوله : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » . وقوله : « يمحق الله الربا » . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون » .

والكبيرة الخامسة هي « أكل مال اليتيم » : أي أخذه أو انتهابه أو إتلافه وأكل مال اليتيم آثم يدل على دناءة النفس وخسة الطبع وضياع الأخلاق وموت الضمير ، فإن آكل مال اليتيم يستغل صغرَه وضعفه ؛ ويسطو على ماله ، ولذلك قال القرآن : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » . ويقول : « ولا تقربوا مال اليتيم

إلا بالّتي هي أحسن » . ويقول : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح » .

والكبيرة السادسة هي : « التولّي يوم الزحف » أي الفرار من واجب الجندية في ميدان الجهاد ، إذا التقى جيش الإيمان بجيش الكفران ، وقد يطلق الزحف على الجيش يزحف إلى العدو أي يمشي . يقال زحف إليه زحفاً إذا مشى نحوه .

ولا ريب أن الفرار من ميدان الجهاد رذيلة شنيعة وسيئة بالغة ، لأن هذا الفرار فيه تضييع لأشرف واجب ، وفيه فتح لأبواب الهزيمة الّتي تفضي إلى أوخم العواقب ، ولذلك نجد القرآن الكريم يحذر من هذا الفرار ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » . ولا يجوز التقهقر في هذا الميدان إلا إذا كان تمهيداً لمعاودة الكرّ ، أو لاتخاذ موقع أجدى في المقاومة ورد العدوان ، أو للانضمام إلى جماعة أخرى من المجاهدين للتقوّي بها أو لتأييدها . ولذلك قال القرآن المجيد عقب الآية السابقة : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير » .

وقد حث القرآن الكريم أقوى الحث على الثبات في الجهاد والنضال . فقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » . وقال : « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

والكبيرة السابعة هي « قذف المحصنات المؤمنات الغافلات » . والمراد

بالقذف هنا هو الاتهام بالزنى ، والأصل في القذف هو الرمي بشيء ، ثم استعمل في معنى الرمي بالزنى حتى غلب عليه ، والمحصنات هن النساء العفيفات الطاهرات ، والإحصان في الأصل هو المنع ، والحَصَان المرأة العفيفة ، ويقول ابن الأثير إن المرأة تكون محصنة بالإسلام والعفاف والتزوج ، ولكن المراد بالمحصنات هنا العفيفات .

والغافلات أي الغوافل عما يُرْمَى به من الزنى ، أي لا يفكرن في مثل هذه الجرائم لاستقامة سلوكهن .

ولا شك أن رمي النساء الطاهرات بهذه التهمة الخبيثة الشنيعة مما يهدم كيان الأسرة ، ويهدد سلامة المجتمع ، ويثير الشبهات المؤدية إلى النتائج السيئة ، ولا يستبيح كريمٌ لنفسه أن يقدم على هذا القذف الهادم للكرامات ، المثير للافتراء حول العفيفات . ولذلك قال القرآن الكريم : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » . وجاء في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله : « قذف المحصنة يهدم عملَ مئة سنة » وهو قول يشير إلى التهديد والوعيد الشديد ، ليحذر كل مسلم هذا الافتراء الخبيث .

نسأله جل جلاله أن يعمر قلوبنا بتوحيده ، وأن يجنبنا المخادعة والعدوان ، والسحت الحرام ، وأن يثبت خطانا في ميدان الحق والصدق ، وأن يعصم لساننا من كلم السوء ، وأن يجملنا بالتقوى في أعمالنا وأقوالنا ، إنه السميع المجيب .

القدوة الحسنة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سنّ في الإسلام سنةً حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

(رواه مسلم) .

* * *

الهدف الأساسي لهذا الحديث الشريف هو حثّ الناس على أن يكونوا قدوةً طيبة لغيرهم ، وأن يكونوا أسوة حسنة ، يهدون إلى صراط مستقيم ، فيدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويحذرون أن يرتكبوا إثماً أو عمَلاً قبيحاً يتابعهم فيه غيرُهم .

ولهذا الحديث مناسبة ذكرها راوية وهو الصحابي الجليل جرير بن عبدالله البجلي الكوفي ، الذي أسلم وبايع النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان من السنة العاشرة من الهجرة . وكان رجلاً وسيماً جسيماً ، وقال فيه عمر : «جرير يوسفُ هذه الأمة » ، وروَى عن رسول الله عليه الصلاة والسلام مئةَ حديث ،

وقد نزل الكوفة ، ثم تحول إلى أفريقية ، ومات بها سنة إحدى وخمسين ، وقيل توفي في الجزيرة سنة أربع وخمسين .

قال جرير : « كنا في صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه قوم عُراة ، مجتابي النّمار أو العباء ، متقلدي السيوف عامتهم ، بل كلهم من مضر ، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى فيهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذّن وأقام ، ثم صلى وخطب ، فقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » ، « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » ، تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، ولو بشق تمرة .

فجاء رجل من الأنصار بصرة كانت كفُّه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس ، حتى رأيت كومين من طعام وشراب وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مُذْهبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

وفي هذا النص ألفاظ تحتاج إلى بيان ، فصدر النهار هو أوله ، و « عراة » جمع عار أي ليس عليهم ثياب تقيهم الحرّ والبرد ، و « مجتابي النمار » : النمار جمع نَمِرة — بفتح فكسر — وهي كساء من صوف مخطط ، ومعنى مجتابيها : لابسيها حالة كونهم قد قطعوها ووضعوها في رءوسهم. والجَوْب هو القطع ، ومنه قول القرآن الكريم : « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد »

أي قطعوه ونحتوه و « العبَاء » – بفتح العين – جمع عباءة . و « « عامتهم » معظمهم . و « تمعر » : تغير . و « الفاقة » : الفقر أو شدة الاحتياج . و « تصدق »: أي ليتصدق، فهو فعل ماض بمعنى الأمر ، وهو أبلغ للدلالة على الوقوع . و « يتهلل » : يضيء ويستنير . و « مُذْهَبَة » : – بضم فسكون ففتح – أي بدا عليه الصفاء والاستنارة ؛ شبه الوجه في تهلله واستنارته بالشيء فيه خطوط مُذْهبة يرى بعضها أثر بعض . و « السنة » : في الأصل هي الطريقة والسيرة ، وإذا أُطلقت في الشرع أريد بها ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، أو نهى عنه ، أو ندب إليه قولاً وفعلاً ، مما لم ينطق به القرآن الكريم ، ولهذا يقال في أدلة الشرع : الكتاب والسنة، أي القرآن والحديث . وسنة النبي أيضاً طريقته التي كان يتحراها ، وسنة الله تعالى تقال لطريقة حكمته ، وتقال لطريقة طاعته .

والأجر : هو الجزاء والثواب ، والأجر ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً ، وتستعمل الأجرة في الثواب الدنيوي .

والوِزْر : الحمل والثقل ، ويطلق عادة على الذنب والاثم . ومعنى : «كان له وزرها » أي مثل وزر من عمل بها .

* * *

والمعنى العام للحديث أن من سبق فعمل عملاً طيباً اتخذه الناس قدوة وساروا على نهجه ؛ يكون له ثواب عظيم عند الله ، كثواب من يعمل هذا العملَ بعده ، فإذا تقدم شخص فأنفق نفقة مخلصاً فيها قاصداً بها وجه ربه ، وكان إظهار هذه النفقة بنية الحث على مثلها ، أو الاقتداء به فيها ، ثم تبعه في ذلك غيره فله ثواب من عمل بها من بعده .

وأما الذي يزين له الشيطان العجلةَ في عمل السوء ، ثم يعمل هذا السوء ،

ثم يقتدي به غيره ، فإن هذا المتعجل يكون عليه ذنب هذا العمل السيىء ، ويكون عليه من الحساب والمؤاخذة مثل ما على الذين اقتدوا به في هذا السوء .

ولقد تحدث حجة الإسلام الغزالي عن « الرخصة في قصد إظهار الطاعات » ، فذكر أن في أسرار أعمال الخير فائدة الإخلاص والبعد عن الرياء ، وأن في إظهار هذه الأعمال فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير ، واستشهد لجواز الأمرين بأن الله تعالى أثنى على السر والعلانية ، فقال جل جلاله : « إن تبدوا الصدقات فنعماً هي ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » . وذكر أن الإظهار قسمان : أحدهما في نفس العمل ، والآخر التحدث بالعمل : ثم قال :

« القسم الأول : إظهار نفس العمل ، كالصدقة في الملأ ، لترغيب الناس فيها ، كما روى عن الأنصاري الذي جاء بالصرة ، فتتابع الناس بالعطية لمّا رأوه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ، وأجر من اتبعه » . وتجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها . ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب . نعم الغازي إذا هم بالخروج : فاستعد وشد الرحل قبل القوم ، : تحريضاً لهم على الحركة ، فذلك أفضل له ، لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية : لا يمكن إسراره ، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان ، بل هو تحريض مجرد .

وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل ، لينبه جيرانه وأهله ، فيقتدى به . فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض ، بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء .

وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة : فإن كان إظهار الصدقة يؤذي

المتصدَّقَ عليه ، ويرغّب الناس في الصدقة ، فالسر أفضل ، لأن الإيذاء حرام ، فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلفت الناس في الأفضل، فقال قوم : السر أفضل من العلانية ، وإن كان في العلانية قدوة ، وقال قوم : السرّ أفضل من علانية لا قدوة فيها .

أما العلانية للقدوة فأفضل من السر ، ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء ، وخصهم بمنصب النبوة ، ولا يجوز أن يُظَنّ بهم أنهم حُرِمُوا أفضلَ العملين ، ويدل عليه قوله عليه السلام : « له أجرها وأجر من عمل بها » . وقد روي في الحديث أن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ، ويضاعف عمل العلانية إذا استّن بعامله على عمل السر سبعين ضعفاً . وهذا لا وجه للخلاف فيه ، فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء ، وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين ، فما يقتدى به أفضل ، لا محالة ، وإنما يخاف من ظهور الرياء ، ومهما حصلت شائبة الرياء ، لم ينفعه اقتداء غيره ، وهلك به ، فلا خلاف في أن السر أفضل منه » ..

وبعد أن يقرر حجة الإسلام هذا في كتابه « الإحياء » يذكر أن الشخص الذي يُظهر عملَه يجب عليه أمران : أولهما أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدَى به ، أو يظن ذلك ظناً ، والعالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة ، ولذلك ينبغي له الإظهار أكثر من غيره . والأمر الثاني أن يراقب قلبه حتّى يطهره من الرياء وشوائبه ، ولا يخدع نفسَــه في ذلك المجــال فيهلك ، ويشير حجــة الإسلام إلى أن المسلك هنا صعب وعسير ، وهو مزلة أقدام لعابدين وعلماء فضلاً عمن سواهم .

ثم ذكر حجة الإسلام القسم الثاني ، وهو التحدث بالعمل فقال : « القسم الثاني : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه ، والخطر في هذا أشد ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجري في الحكاية

زيادةً أو مبالغة ، وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء ، ولم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها ، فهو من هذا الوجه أهون ، والحكم فيه أن من قوي قلبُه ، وتم إخلاصه ، وصغر الناس في عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به ، والرغبة في الخير بسببه ، فهو جائز ، بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات ، لأنه ترغيب في الخير ، والترغيب في الخير خير » .

وبعد أن يذكر حجة الاسلام شواهد لإخلاص طائفة من السلف وعدم ريائهم يعود فيقول : « فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال ، والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء ، بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء ، فيه خير كثير للناس ، ولكن شر للمرائي ، فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله ، وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح ، فيسمع أصوات المصلين من القرآن بالبيوت ، فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء ، فتركوا ذلك ، وترك الناس الرغبةَ فيه ، فكانوا يقولون : ليت ذلك الكتاب لم يصنّف .

فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وأقوام لا خلاق لهم ، كما ورد في الأخبار ، وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم ، والله تعالى أعلم » .

هذا ولقد ذكر الإمام العراقي في تخريجه الأحاديثَ الواردة في كتاب « إحياء علوم الدين » أن حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وأن حديث : « إن الله يؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم » حديث صحيح رواه النسائي من حديث أنس .

* * *

وقد وردت رواية ثانية للحديث تقول : « من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل أجور من عمل بها ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله، كان عليه من الإثم مثل آثام من عمل بها ، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً » . كما وردت رواية أخرى تقول : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » .

وفي معنى الحديث جاء قول الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه مسلم : « من دلّ على خير فله أجر فاعله » . كما جاء قوله : « ليس من نفسٍ تُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأولِ كِفْلٌ من دمها ، لأنه كان أول من سنّ القتل». وابن آدم الأول هو « قابيل » الذي قتل أخاه « هابيل » حسداً وبغيا ، والكِفْل – بكسر فسكون – هو النصيب . وقد أشار القرآن إلى القصة في قوله : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » .

ثم قال القرآن الكريم بعد ذلك : « من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

* * *

والقرآن المجيد يوجه الناس إلى أن يكونوا قدوة طيبة لغيرهم . فيسارعوا

إلى الخيرات في إخلاص ليتابعهم سواهم . فجعل من دعاء عباد الرحمن الأخيار قولهم لربهم جل جلاله : « واجعلنا للمتقين إماماً » . ويقول عن صفوة من عباده : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » ، ويقول عن طائفة أخرى: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ». وهو هنا يحث على الاهتداء والاقتداء بالذين صلحوا وأصلحوا ، وبكروا إلى الطيبات والحسنات ، وهو في مواطن أخرى يحث على المبادرة إلى الخير ، والمسارعة إلى البر ، ويجعل هذه الصفة من شأن الأخيار الأبرار ، فيقول : « يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين » . ويقول : « أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » . ويقول عن أسرة زكريا عليه السلام : « إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » . وأمر بالمسارعة إلى أسباب الفوز والفلاح فقال: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

نسأل الله عز شأنه أن يوفقنا للمسارعة إلى الخير ، وأن يجعلنا أهلا للاقتداء بذوي الفضل ، إنه سميع مجيب .

من أسماء المصطفى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر يُحْشَر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » .
(رواه البخاري ومسلم) .

* * *

إن لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام مكانة تعلو على مكانة كل إنسان، وحسبُ رسول الله مجداً وشرفاً أن يكون اسمه الطيب مذكوراً مع اسم الله المجيد في أكثر من مقام ، فما من مسلم ينطق بكلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » حتى يعقبها بقوله : « محمد رسول الله » ، وإذا انطلق صوت المؤذن يردد في الأذان قوله : « أشهد أن لا إله إلا الله » أتبع ذلك بقوله « أشهد أن محمداً رسول الله » ، وإذا جلس المصلي للتشهد ، قال فيه : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ، ثم يعود بعد قليل ليقول : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » ، ثم يعقب ذلك بصلاة وسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، فيقول : « اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد » .

ولقد قرن الله تعالى باسمه اسمَ رسوله في كثير من آيات كتابه ، فقال : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار » (سورة النساء الآية ٣) . وقال : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها » (سورة النساء الآية ١٤) . وقال : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ».(سورة النساء الآية ١٠٠). وقال: « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » . (سورة المائدة الآية ٥٦) . وقال : « فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته» . (سورة الأعراف الآية ١٥٨) . وقال : « وسيرى الله عملكم ورسوله » (سورة التوبة الآية ٩٤) .

وهكذا تكرر هذا الاقتران بين اسم الله واسم رسوله عشرات المرات في القرآن الكريم ، وليس وراء ذلك تكريم .

* * *

ومما يدل على شرف الرسول أيضاً كثرة أسمائه المتضمنة كثيراً من صفاته النبيلة الجليلة ، ومن هذه الأسماء ما ذكره القرآن الكريم ، ومنها ما جاء في السنة المطهرة ، وقد توسع بعض المحبين ، فبلغ بها الثمانمائة ، وبعضهم توسع أكثر من ذلك وأكثر ، ولكننا نجد القاضي ابن العربي قد أوصل أسماء النبي صلى الله عليه وسلم إلى أربعة وستين اسماً ، وقد نقل عنه هذا الحافظ النووي ، ويبدو أنه ارتضاه ، ويلوح لي أن هذا هو أقرب الأقوال إلى الصحة والاعتماد [1] .

ولقد تحدث الامام أبو عبد الله الرصاع المالكي عن الحكمة في سر تعدد

---

(١) لي بحث عنوانه « مع أسماء المصطفى » أرجو أن يظهر في كتاب عما قريب .

أسماء الرسول ، فقال : « سر تعدد أسمائه عليه الصلاة والسلام تعظيم منزلته، وبيان قدره عند ربه ، لأن العرب إذا عظّمت أمراً في نفوسها أكثرت من أسمائه ، ولا أعظم عند الله من حبيبه المصطفى المجتبى صلى الله عليه وسلم ، فحلاّه سبحانه بصفات الكمال تعظيماً له في النفوس ، وتنبيها للخلائق على مكانته عند الملك القدوس ، فصارت تلك الأوصاف لكثرة إطلاقها على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أسماءً وألقاباً » .

* * *

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي معنا خمسةَ أسماء من أسمائه الكثيرة ، وأول هذه الأسماء هو « محمد » وهو أكثر أسمائه شهرة وتداولاً ، وهو اسم يدل على كثرة حمد الناس له .

وتروي السيرة النبوية أن الذي سماه بهذا الاسم هو جده عبد المطلب ، ولما سأله قومه عن السبب في تسميته بهذا الاسم قال : أردت أن يحمده أهلُ الأرض وأهل السماء .

وكل جامع لصفات الخير يسمّى محمداً ، وقد قال بعض العلماء : إن الله هو الذي ألهم بتسمية نبيه محمداً ، لما فيه من الصفات الحميدة ، وليلتقي الاسم والفعل ، ويتطابق الاسم والمسمى في الصورة والمعنى ، كما قال الشاعر :

وشق له من اسمه ليُجله فذو العرش محمود، وهذا محمد

وكانت العرب في جاهليتها لا تسمي باسم « محمد » ولكن حينما شاع قبيل ميلاد الرسول أن نبياً سيبعث اسمه « محمد » سمى بعض العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو ، والله أعلم حيث يجعل رسالته والذين تسموا باسم محمد منهم : محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي ، ومحمد بن مسلمة

الأنصاري ، ومحمد بن براء البكري ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجعفي ، ومحمد بن خزاعي السلمي[1] . يقول القاضي عياض : « ثم إن الله حمى كل من تسمى به أن يدعي النبوة ، أو يدعيها له أحد » .

* * *

والاسم الثاني الذي ذكره الحديث هو : « أحمد » ، وهذا هو اسمه المشهور به عند أهل الملإ الأعلى ، والمذكور به في الإنجيل ، بدليل قوله تعالى : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » . ومعنى أحمد أنه أكثر الناس حمداً لربه تبارك وتعالى ، فهو أحمد الحامدين لله ، وهو أجل من حمد مولاه .

ولقد قال القاضي عياض بشأن هذا الاسم الكريم : « وأما أحمد الذي أتى في الكتب ، وبشرت به الأنبياء فمنع الله بحكمته أن يُسَمّى به أحد غيره ، ولا يدعى به مدعو قبله ، حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب او شك » ، ثم يقول : « وقد سماه الله في كتابه محمداً وأحمد ، فمن خصائصه تعالى له صلى الله عليه وسلم أن ضمن أسماءه ثناءه فطوى أثناءَ ذكره عظيمَ شكره ، فأما اسمه أحمد فأفعل ، مبالغة من صفة الحمد ، ومحمد مُفَعّل مبالغة من كثرة الحمد ، فهو صلى الله عليه وسلم أجل من حُمِد ، وأفضل من حَمَد ، وأكثر الناس حمداً ، فهو أحمد المحمودين ، وأحمد الحامدين ، ومعه لواء الحمد يوم القيامة ، ليتم له صلى الله عليه وسلم كمال الحمد ، ويشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد ، ويبعثه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده ، يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم ، ويفتح عليه فيه من المحامد — كما قال عليه الصلاة والسلام —

(١) في كتابي « الشاعر سليل المحمدين » بينت أن عدد هؤلاء أكثر من ذلك . أنظر ص ٣–١٠ .

ما لم يعط غيره ، وسمى أمته في كتب أنبيائه بالحمّادين ، فحقيق أن يسمى صلى الله عليه وسلم محمداً وأحمد » .

* * *

والاسم الثالث هو « الماحي » أي الذي يمحو الأدران المعنوية من العقول والقلوب والأرواح والنفوس ، والذي يمحو بفضل ربه وتوفيقه — سيئات من يؤمن به ويتبعه ، لأن الإيمان يَجُبُّ ما قبله ، ويقطع ما سبقه . وقيل هو الذي يمحو الكفر من جزيرة العرب ، حتى لا يبقى فيها إلا دين الإسلام ، وقد يكون المحو هنا بمعنى إظهار الإسلام على غيره بسواطع الأدلة ودوامغ البراهين ، فيكون الإسلام مؤيداً بكل هذا ، ولا يثبت أمام نوره ملة أخرى محرفة أو مشوهة ، وقد يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » (سورة الفتح الآية ٢٨) .

ويقول بعض العلماء: «ولم يُمْحَ الكفر بأحد كما مُحِيَ به صلى الله عليه وسلم، فإنه بُعث وأهل الأرض كلهم كفار ، ما بين عباد أوثان ، ويهود ونصارى ، وعُبّاد كواكب ، وعباد نار ، ودهرية ولا يعرفون رباً ولا معاداً ، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء ولا يقرون بها ، فمُحِيَت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى ظهر دينه على كل دين ، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار ، وسارت دعوته مسيرَ الشمس في الأقطار ، فابتدأ صلى الله عليه وسلم يمحو الكفر من وقت مبعثه ، ولم يزل يمحوه مدة حياته ، ثم اشتاق إلى لقاء مولاه ، فانتقل إلى دار الكرامة ، وبقي نور ذاته في أمته ، فلا يزال نوره يمحو الكفر بواسطة خلفائه في الأرض » .

والاسم الرابع هو « الحاشر » . والحشر هو الجمع ، وقد قال الرسول

عليه صلوات الله وسلامه : « أنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي » أي بعدي وعلى أثري ، لأنه أول من تنشق عنه الأرض حين البعث ، وقيل إن الحاشر معناه الجامع ، أي الذي يجمع إليه الخلائقَ بفضله وجاهه ، حيث لا يجدون من يجتمعون عليه أو يلجأون إليه سواه ، فهم يقصدون من كل مكان وناحية وجهةَ مقامه ومحله ، يستظلون في ظل جاهه ، ويلوذون به ، ويومئذ يظهر فضل النبي على سواه .

* * *

والاسم الخامس هو « العاقب » . والعاقب في اللغة هو الذي يعقب غيره ويأتي بعده ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو العاقب ، لأنه خاتم الأنبياء وآخر المرسلين ، وهو الذي أتى بعد كل الأنبياء والمرسلين ، ولا نبي بعده ، وهذا الاسم — كما يقول الإمام الجمل — من أكرم الأوصاف ، وأدلها على فضله العظيم ، وذلك لأن الله تعالى أرسل الرسل يدعون الناس إلى العاقبة والعقبى الحسنة ، وإلى كل ما يعقب الخير من أمور الدين والدنيا والآخرة ، فبعث الله رسوله محمداً ، وجعله عاقباً وعقبى حسنة ، فهو في نفسه يعقب كل خير ، وفَعَلَ كل عقبى حسنة ، وشدَّ ظهور الأنبياء ، وانتهى في عواقب الخيرات إلى تمامها ، فدرجته فوق كل درجة .

صلاةً وسلاماً على النبي الكريم ، صاحب الأسماء الباهرة والصفات العاطرة ، صلاة وسلاماً عليه في الأولين والآخرين .

الإسلام والمرأة

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فوعدهن يوماً لقيهن فيه ، فوعظهن وأمرهن ، فكان فيما قال لهن : ما منكم امرأة تقدّم ثلاثةً من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار ، فقالت امرأة : واثنين ؟ . فقال: واثنين .

(رواه البخاري ومسلم) .

* * *

« قالت النساء » : ليس معنى هذا أن النساء قد نطقن كلهن بهذا القول ، أو تكلمن معاً دفعة واحدة ، بل المتبادر إلى الذهن أن إحداهن تكلمت نائبةً عنهن ، ولما كانت تترجم بكلامها عن رأي أخواتها نُسب القول إلى الجميع ، فقالت رواية الحديث : « قالت النساء » . وفي بعض الروايات أن هؤلاء النسوة كن من نساء الأنصار ، ورضوان الله على الأنصار ونساء الأنصار ، فقد كان الجميع يبادرون إلى الخير ، يبحثون عنه ، ويعملون به .

« غلبنا عليك الرجال » : غلب : كثر وزاد ، وغلب بمعنى انتصر ،

وتغلب : استولى قهراً . والمراد هنا أن الرجال زاحمونا عليك ، فصارت لهم الغلبة في الاستماع والانتفاع ، وضاق المجال والوقت علينا ونحن معهم .

« اجعل لنا من نفسك » : أي خصّص وعيّن لنا من تلقاء نفسك ، أو تفضل علينا بيوم من أيام توجيهك وإرشادك ، تجعله لنا صنيعةً كريمة من نفسك .

« ولدها » : الولد هو ذرية الإنسان ، وهو يطلق على المفرد والمثنى والجمع ، كما يطلق على الذكر والأنثى ، فيشمل الأبناء والبنات .

« إلا كان » : اسم كان هنا مقدر ، والتقدير : إلا كان هذا التقديم حجاباً . وهناك رواية تقول : « إلا كانوا » وحينئذ يكون اسم كان هو واو الجماعة التي تعود إلى الأولاد الثلاثة ، وهناك رواية ثالثة تقول : « إلا كُنَّ » أي هؤلاء الأنفس الثلاث .

* * *

وهذا الحديث النبوي الشريف يترجم لنا عن مكانة العلم بين أبناء الإسلام ، فقد رأيناهم في الصدر الأول وعلى عهد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يهرعون في شوق وشغف إلى مجالات العلم يطلبونه في جد واجتهاد ، ويعملون به في إتقان وإخلاص ، ورأينا الرجال والنساء يتنافسون تنافساً طيباً في هذا المجال ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، وكان هذا دليلا قوياً باهراً على أن دين الله الخاتم الجامع الباقي قد نهض على العلم والمعرفة .

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع لواء العلم ويدعو إليه . ويردد شعاره العظيم الكريم : « إنما بعثت معلماً » . وهذه هي مدرسته الكبرى وسط الصحراء تستقبل الجموع والوفود . ما بين رجال ونساء . والرجال يتصدرون الصفوف الأمامية ، والنساء من ورائهم ، ولكن الرجال يكثرون ، ويحتلون

من أماكن الاستماع ما يحتلون ، ويثيرون من مسائل البحث والنظر ما يثيرون ، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً أن يتقلبوا بين شتى الموضوعات والأمور ، والنساء بما فيهن من حياء ورقة لا يجدن الفرصة المؤاتية ، ولا الجرأة الكافية على أن يقلن كل ما يردن ، أو يسمعن في يسر كل ما يحببن ، أو يستوعبن كل ما تتطلع إليه نفوسهن من علم ومعرفة ، ولذلك اتفقت كلمتهن على أن يتقدم بعضهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطلبن إليه أن يتفضل عليهن فيفرد لهن من أيام تعليمه وتفقيهه يوماً يلتقين فيه بمعلّم الإنسانية وسيد البشرية محمد عليه الصلاة والسلام .

واستجاب نبي الرحمة لرغبة النساء المسلمات الطاهرات ، وخصص لهن يوماً ولقاء ، ووعظهن بما يناسب أحوالهن ، وأمرهن بما أوجبه الله عليهن ، وملأ نفوسهن بالحكمة والخير والتوجيه ، حتى يصلحن للمبادرة إلى أداء الواجبات ، ويبتعدن عن المحظورات ، وكان مما وعظهن به أن أرشدهن إلى الصبر والاحتساب ، والرضا بقضاء الله تعالى وقدره إذا ما جرت الأحداث يوماً بفجيعتهن في أحد أولادهن ، وذكر لهن أنه لو مات لواحدة منهن ثلاثة من أولادها ، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً ، أم كان بعضهم من الذكور وبعضهم من الإناث ، ثم صبرت ورضيت واسترجعت كان هؤلاء ستاراً يحول بينها وبين دخول النار .

وحينما سمع النساء ذلك قالت إحداهن — وهي أم سليم الأنصاري ، أو غيرها حسب اختلاف الروايات — : وهل تنال المرأة هذا الثواب الطيب لو أنها فُجعت في ولدين فقط من أولادها ؟. فأجابها الرسول بالموافقة فقال : واثنين . وهذا من فضل الله وكرمه .

وليست هذه البشارة مقصورة على النساء ، بل من فجع من الرجال ببعض

أولاده – ثلاثة كانوا أو اثنين – كان له مثل هذا الثواب إذا رضي وصبر. فقد جاء في الحديث القدسي: « يقول الله تعالى: ما لعبدي إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة ». كما جاء في الحديث: « من دفن ثلاثة فصبر عليهم واحتسب وجبت له الجنة »، فقالت أم أيمن: واثنين يا رسول الله؟. فقال: واثنين. فقالت: وواحد؟. فسكت النبي ثم قال: وواحد. ولقد روي عن قرة بن إياس أن رجلاً كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ومعه ابن له، فقال له الرسول: أتحبه؟. قال: نعم. ومضت مدة، ثم غاب الرجل عن مجلس النبي، فسأل عنه فقال: ما فعل فلان؟. قالوا: مات ابنه يا رسول الله. فلقيه النبي وقال له مهوّناً ومبشراً ومشيراً إلى ابنه: ألا تحب ألا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟، فقال الرجل: يا رسول الله، أهذه البشرى خاصة أم لكلنا؟. فقال: بل لكلكم.

* * *

وهذا الحديث من غير شك يعطي المسلمين رجالاً ونساء درساً رائعاً في الاحتمال والتضحية والصبر، ويعلّم المرأة بالذات – وهي التي تمثل الرقة والحنان والحزن المسارع – أن تكون صاحبة إرادة وعزيمة وثبات، وأن تصبر لما يقضي به الله عز وجل؛ ولقد ضربت المرأة المؤمنة في تاريخ الإسلام الطويل أروع الأمثلة في الاحتمال والصبر والفداء، وهذه مثلاً هي الخنساء: لقد مات أخوها صخر قبل أن تدخل في دين الله العظيم، فأقامت الدنيا وأقعدتها، بكاءً على أخيها ورثاءً له، وتفجعاً عليه، ثم هداها الله إلى الإسلام، وشرح صدرها بالنور الرباني الطهور، فإذا هي تصير امرأة أخرى غير التي كانت، ولعل أكبر دليل على ذلك التحول الهائل في حياتها وشعورها نحو الموت، هو موقفها حين قامت معركة « القادسية » بين المسلمين وأعدائهم الباغين.

لقد كان لها حينئذ أربعة أبناء هم زينة حياتها ، وشمس دنياها ، فحثتهم على المسارعة إلى الاشتراك في الجهاد، ووعظتهم موعظة جليلة حفظها التاريخ ووعاها الزمن ، فقالت لهم : « يا بني ، انكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذي لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم أبناء امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجّنت (أي قبّحت) حسبكم ، ولا غبّرت (أي لطخت) نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (سورة آل عمران الآية ٢٠٠).

فإذا أصبحتم غداً فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، ولله على أعدائه مستنصرين » . .

فلما بدأت المعركة ، تقدموا إلى الجهاد ، ينشدون الأراجيز ، وقاتلوا قتال الأبطال ، حتى نالوا الشهادة جميعاً ، وحينما علمت أمهم « الخنساء » باستشهادهم معاً ، لم تجزع ولم تفزع، بل صبرت وفرحت ، وعبرت عن ذلك بقولها : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » .

* * *

وهذا الحديث النبوي الشريف يدل على طائفة من الأمور ، فهو أولاً يفيد أن النساء لهن الحق في حضور مجالس العلم والانتفاع منها ، سواء أكان يوجد في المجلس رجال ونساء مع حفظ الوقار والعفاف ، أم كان المجلس مقصوراً على النساء . كما يدلنا الحديث على أن المرأة المسلمة في صدر الإسلام

كانت حريصة على طلب العلم الديني النافع لها في حياتها ، الدافع لها إلى طاعة الله وعبادته ، فهي تسعى إليه وتغترف منه ، لا لتزهو به أو تتعالم ، بل لتعمل به .

ونفهم من الحديث أيضاً أن المرأة المسلمة لها الحق في إبداء رأيها فيما يتعلق بها ، فحينما رأى النساء على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن الرجال يفوزون بالحظ الأكبر من وقت الرسول ومحاورته ، اتفقن مع الرسول على أن يخصص لهن يوماً ينفردن بمجلسه ، فيسمعن منه ويفهمن عنه ، وقد تكون لهن مسائل خاصة يحسن عرضها في مثل هذا الاجتماع الملائم .

كما نفهم من الحديث ذلك الخلق العظيم الذي طبع الله تعالى عليه رسوله الكريم . فقد أحسن الاستجابة لرغبة هؤلاء النساء ، فما كدن يحدثنه في ذلك حتى استجاب لهن ، واتفق معهن على الاجتماع في زمان ومكان معينين ، وجلس إليهن فأدبهن وعلمهن .

ويدل الحديث أيضاً على جواز تقسيم المتعلمين إلى فئات ، إذا صعب الجمع بينهم ، وقد يمكن الاستدلال بالحديث أيضاً على أنه ينبغي أن يخصص للنساء زمان ومكان للتعليم ، حتى لا يجدن صعوبة أو مشقة حسية أو نفسية إذا اجتمعن مع الرجال في مجلس العلم ، وهذا يتضمن أنه ليس من أدب الإسلام أن يحدث اختلاط غير وقور بين الرجال والنساء في هذا المجلس أو غيره ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

ذكر الله

عن عبد الله بن بشر قال : أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ ، فباب نتمسك به جامع ؛ . قال : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله » .

(رواه أحمد وابن حبان وابن ماجه) .

* * *

هذا الحديث الشريف يرمز إلى أن ذكر العبد لربه تبارك وتعالى هو السبيل إلى تحقيق فضيلة المراقبة عنده ، وهو الوسيلة التي تجعله موصول الأسباب بالله عز وجل ، فيؤدي له فرائضه ، ويلتزم أوامره ، ما دام ذاكراً له عن إيمان ويقين ، لأن الإنسان لو ذكر ربه ، وأهمل أوامره ، لكان عابثاً أو مخادعاً .

ولذكر الله تعالى عند الأئمة مكانة أي مكانة ، وهذا هو ابن القيم في كتابه « مدارج السالكين » يصف منزلة « الذكر » بأنها « منزلة القوم الكبرى ، التي منها يتزودون ، وفيها يتجرون ، وإليها دائماً يترددون » . ولقد ذكر ابن الأثير أن « الذكر » الوارد في الحديث النبوي يراد منه تمجيد الله وتقديسه تسبيحه وتهليله والثناء عليه بجميع محامده . وكثير من الناس يحسبون أن الذكر

هو مجرد التلفظ بأسماء الله أو صفاته ، مع أن الذكر الحقيقي هو حضور الشيء في القلب ثم التعبير عنه باللسان ، ولذلك قال منصور بن عمار : « سبحان من جعل قلوبَ العارفين أوعية الذكر » . وقال ابن خبيق الأنطاكي : « خلق الله القلوب مساكنَ للذكر » . وقال ابن القيم : « وفي كل جارحة من الجوارح عبوديةٌ مؤقتة ، والذكر عبودية القلب واللسان ، وهي غير مؤقتة » .

ولقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرَ من يستحضـــرون معانيَ الذكر في قلوبهم ، ثم يجعلون ألسنتهم ترجماناً عما في نفوسهم ، ولذلك لم تكن ألسنتهم تلوك كلمات الذكر لَوْكاً آلياً مجرداً من التأثر أو الاعتبار ، بل كانوا يمتزجون قلباً وقالباً بمعاني الذكر ، فإذا هم في فيض من يقظة الروح وحركة القلب ، ولذلك وصف الإمام علي الصحابةَ في هذا الباب فقال : «كانوا إذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في اليوم الشديد الريح ، وجرت دموعهم على ثيابهم » . وهذا هو البسطامي الصوفي يسأله سائل عن علامة العارف فيجيبه بقوله : « ألاّ يفتر عن ذكر الله ، ولا يمل من حقه ، ولا يستأنس بغيره » ، وهذه الإجابة صريحة في أن حقيقة الذكر ليست مجردَ الترديـــد باللسان ، بل هي في القلب إيمان ، وعلى اللسان بيان ، وفي مجال العمل إتقان وإحسان ، وفي ميدان المراقبة لله استمساك باليقين والبرهان . وإذا كان الحديث قد وجه المسلم إلى أن يظل لسانه دائماً رطباً بذكر الله ، وكان هذا الذكر ذا أثر حسي في اللسان من جهة تحريكه وترطيبه ، فإن الأهم من وراء ذلك هو أن يكون القلب أولاً وقبل كل شيء رطباً بمعاني الذكر ، حياً بروح المراقبة .

وذكر الله تعالى يستتبع الإقلاع عن التحدث فيما لا يجب أو لا يعني من أمور الناس ، ولذلك قال منصور بن عمار : « من اشتغل بذكر الناس انقطع عن ذكر الله » . بل قال يوسف الرازي ما هو أعمق من ذلك وأدق ، وهو : « من ذكر الله بحقيقة ذكره نسي ذكرَ غيره ، ومن نسي ذكر كل شيء في ذكره حفظ عليه كل شيء ، إذ كان عوضاً له من كل شيء » .

* * *

ولقد عني القرآن الكريم بالحديث عن ذكر الله تعالى في أكثر من موطن ، مثل قوله : « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً، وسبحوه بكرة وأصيلاً » . وقوله : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » . وقوله : « واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

ولقد وصف القرآن الكريم المنافقين في سورة النساء بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً فقال : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلاً » ، ولعل هذا هو السر في أن سورة « المنافقون » قد جاء في أواخرها الأمر بالذكر ، حتى يتجنب المسلمون صفات المنافقين ، حيث قال الله تعالى في السورة المذكورة : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

وذكر الله مشروع في كل وقت ، ولكنه يتأكد في بعض الأوقات ، فمما يتأكد فيه الذكر عقب الصلوات المفروضة ، وخاصة بعد صلاة الفجر وصلاة العصر ، ولذلك قال القرآن الكريم : « وسبحوه بكرة وأصيلاً » . وقال : « وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار » ، وكذلك الذكر بين العشاءين، وقبيل النوم ، وعند التقلب فيه ، وعند الاستيقاظ منه ، وقد أشار القرآن إلى طلب الذكر عند السعي على الرزق في قوله : « فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » . كما أشار إلى طلب الذكر عند لقاء العدو بقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فأثبتوا ، واذكروا الله كثيراً » .

وللامام ابن رجب الحنبلي عبارة مبسوطة يذكر فيها مواطنَ الذكر عامة، وهي : « أما ما يفعله الإنسان في آناء الليل وأطراف النهار من مصالح دينه وبدنه ودنياه ، فعامة ذلك يُشرع ذكرُ اسم الله عليه ، فيشرع له ذكر اسم الله وحمده على أكله وشربه ولباسه ، وجماعه لأهله ، ودخوله منزله وخروجه منه ، ودخول الخلاء وخروجه منه ، وركوبه دابته ، ويسمي على ما يذبحه من نسك وغيره .

ويُشرع له حمدُ الله على عطاسه ، وعند رؤية أهل البلاء في الدين أو الدنيا ، وعند التقاء الإخوان وسؤال بعضهم بعضاً عن حاله ، وعند تجدد ما يحبه الإنسان من النعم ، واندفاع ما يكرهه من النقم ، وأكمل من ذلك أن يحمد الله على السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، ويحمده على كل حال .

ويُشرع له دعاءُ الله عند دخول السوق ، وعند سماع أصوات الديكة بالليل ، وعند سماع الرعد ، وعند نزول المطر ، وعند اشتداد هبوب الرياح ، وعند رؤية الأهلّة ، وعند باكورة الثمار .

ويشرع أيضاً ذكر الله ودعاؤه عند نزول الكرب وحدوث المصائب الدنيوية ، وعند الخروج للسفر ، وعند نزول المنازل في السفر ، وعند الرجوع من السفر ، ويشرع التعوذ بالله عند الغضب ، وعند رؤية ما يكره في منامه ، وعند سماع أصوات الكلاب والحمير بالليل .

ويشرع استخارة الله عند العزم على ما يظهر الخيرة فيه ، وتجب التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب كلها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » . فمن حافظ على ذلك لم يزل لسانه رطباً بذكر الله في كل أحواله » .

ولقد أثرت عن أئمة هذه الأمة وزهادها كلمات بليغة في أهل الذكر ،

فقد قال أبو الدرداء مثلاً : « الذين لا تزال ألسنتهم رطبة من ذكر الله يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك » . وقال الحسن : « أحبُّ عباد الله إلى الله أكثرُهم ذكراً ، وأتقاهم قلباً » . وقال كعب : « من أكثر ذكرَ الله برىء من النفاق » . وقال فتح الموصلي : « المحب لله لا يغفل عن ذكر الله طرفة عين » . وقال الجنيد : « كان يقال : من علامة المحب لله دوامُ الذكر بالقلب واللسان ، وقلما ولع المرء بذكر الله إلا أفاد منه حب الله » . وقال ذو النون : « من اشتغل قلبه ولسانه بالذكر ، قذف الله في قلبه نور الاشتياق إليه » . وقال الحسن البصري : « تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، وفي الذكر ، وفي قراءة القرآن ، فإن وجدتم ، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق » .

* * *

وأكاد أفهم أن ذكر الله تعالى ينقسم إلى ثلاثة أنواع : ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالعمل ، وأقل هذه الأنواع شأناً هو الذكر باللسان ، وإن كان هذا الذكر يؤدي أحياناً إلى ذكر القلب ، إذ كان الإنسان في ذكره متفكراً متدبراً متأثراً معتبراً ، وذكرُ القلب هو استحضار جلال الله وعظمته في صدر الإنسان ، بحيث يشعر الإنسان أن الله معه ، وأن نور الله يعمر قلبَه ويهديه ، والذكر بالعمل هو تعبيرٌ عملي عن حمد الله وشكره وتقديسه ، فأنت إذا استجبتَ لربك فصليت له وصمت وزكيت ، وأحللت حلاله ، وحرمت حرامه ، وتقيدت بأوامره ، ووقفت عند حدوده ، فقد ذكرته ، وإن كان هذا الذكر العملي يحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى ذكر القلب بالمعنى الذي سبق ، حتى يدرك الإنسان أنه يعمل لله ، وأنه يعبر عن إيمان القلب بهذا التطبيق العملي ، ولعل هذا هو ما يفهم من قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » . وقوله : « نية المرء خير من عمله » .

* * *

هذا وقد وردت في معنى الحديث الذي معنا أحاديثُ أخرى منها :

١ ـ عن معاذ بن جبل قال : آخر ما فارقت عليه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن قلت له : أي الأعمال خير وأقرب إلى الله ؟ . فقال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله » .

٢ ـ أكثروا ذكرَ الله حتى يقولوا مجنون .

٣ ـ من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله .

٤ ـ سأل رجل الرسول : أي المجاهدين من أعظم أجراً يا رسول الله ؟ . قال أكثرهم لله ذكراً . ثم قال : أي الصائمين أعظم ؟ . قال : أكثرهم لله ذكراً . ثم ذكر لنا الصلاة والزكاة والحج والصدقة كلاً ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول: أكثرهم ذكراً .فقال أبو بكر : ذِكر الذاكرون بكل خير ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

٥ ـ استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل : وما هن يا رسول الله؟ . قال : التكبير والتسبيح والتهليل والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

هذا وكأن الصحابي الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث : « يا رسول الله ، إن شرائع الاسلام قد كثرت عليّ » أراد أن يقول ان تعاليم الإسلام متعددة متناثرة ، وأنا أحتاج إلى رابط ينتظمها ، أو جامع يجمعها ، حتى لا أهملها أو أضيعها ، ولذلك قال الصحابي : « فباب نتمسك به جامع » فأرشده النبي إلى ذكر الله ، لأن ذكر الله تعالى هو النور الذي يضيء للانسان جوانبَ الطريق ، فيذكّره دائماً بحقوق ربه ، لأن من ذكر الله ذكر وامره وفروضه ، ومتى ذكرها أداها ، والا كان ذكره عبثاً .

اللهم وفقنا لذكرك وشكرك ونوال أجرك ، إنك أنت السميع المجيب .

خصائص للنبي

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نُصرت بالرعب من مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحــد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يُبعث لقومه خاصة ، وبُعثت للناس عامة » .

(رواه البخاري ومسلم)

* * *

ذكر سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام في هذا الحــديث خمسَ خصائص ، تفضل الله عز وجل فأنعم بها على رسوله . وفي هذا الإنعام ما فيه من تكريم لنبيه المصطفى ، ولأتباع هذا النبي العظيم ، وأولَى هذه الخصائص يعبر عنها الرسول بقوله : « نُصرت بالرعب من مسيرة شهر » . والرعب هو الخوف والفزع ، وقيل : هو الانقطاع من امتلاء الخوف . فالله تبارك وتعالى يوقع الرعبَ والهلع في قلوب أعداء النبي صلوات الله وسلامه عليه ، حتى لو كان بينه وبينهم مسيرة شهر لهابوه ، وفزعوا منه ، فسالموه أو انصرفوا عنه ، أو خضعوا له واستجابوا إليه .

وكلمة « مسيرة » : مصدر بمعنى السير ، والمراد هو المسافة التي يسار فيها

من الأرض . ولعل المراد هو إظهار ما أعطى الله تعالى رسولَه من الهيبة والرهبة في قلوب الأعداء ، ولقد تحدث القرآن الكريم عن إلقاء الله جل جلاله الرعبَ في قلوب هؤلاء ، فقال في سورة آل عمران : « سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » .

وقال في سورة الأنفال : « إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » . وقال في سورة الأحزاب : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً » .

كما تحدث القرآن المجيد عن قوة نصره سبحانه لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ، فقال في سورة الأنفال : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين » . وقال في سورة التوبة : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ، إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » . وقال في سورة غافر : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . وفي سورة الفتح : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » . وقال في سورة النصر : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » .

* * *

وثانية الخصائص التي خص الله تعالى بها الرسول وأمته يعبر عنها الحديث الشريف بقوله : « وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً . » وفي رواية أخرى: « وجعلت لي الأرض ولأمتي مسجداً وطهوراً » . و « مسجداً » أي مكاناً صالحاً للسجود ، ويراد بالسجود هنا الصلاة ، وهذا من إطلاق اسم الجزء على الكل ، لأن السجود هو أبرزُ عمل في الصلاة لإظهار الخضوع لله جل جلاله .

و « طهوراً » : الطَّهُور – بفتح الطاء – هو ما يتطهر به الإنسان ، والماء الطهور في الفقه هو الذي يرفع الحدثَ أو يزيل النجس حقيقةً أو حكماً .

ومعنى هذا أن الله تبارك وتعالى خص أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها يباح لها أن تصلي على الأرض ، وتُعَدُّ الأرض حينئذ طاهرة ، ما لم تكن فيها نجاسة ظاهرة بعينها أو جرْمها ، وإذا كان هناك أبناء أديان أخرى لا تُقبل منهم عباداتهم أو صلواتهم إلا في أماكن معينة محددة ، فإن أبناء الإسلام السمح الباقي يباح لهم أن يصلوا في أي مكان من الأرض ، ما دام لا يوجد مانع شرعي من ذلك . كما أنه يباح لأبناء هذه الأمة المحمدية أن تجعل ترابَ هذه الأرض – ما دام طيباً طهوراً – بديلاً عن الماء في الوضوء عند التيمم .

وقد استدل العلماء بهذا النص على مشروعية التيمم، وأنه من خصائص هذه الأمة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التيمم في سورة المائدة، حيث قال: « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنباً فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .
ويروى أن سبب نزول هذه الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان

في إحدى الغزوات ومعه زوجته عائشة رضي الله عنها ، فضاع منها بعض متاعها ، فبحثوا عنه حتى أدركتهم الصلاة ، ولم يكن معهم ماء ، واغتاظ والدها أبو بكر فقال لها : حبست الناس وليس معهم ماء » ، فأنزل الله تعالى الآية السابقة تبيح رخصة التطهير بالتيمم .

وفي بعض الرواياتأن الرسول بعث بعض الصحابة، وفيهم أسيد بن حضير ، للبحث عن قلادة ضاعت من السيدة عائشة . وأدركته الصلاة فصلوا بغير وضوء حيث لم يجدوا ماء ، وعادوا فأخبروا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك . فنزلت آية التيمم ، وهنا قال أسيد بن حضير لعائشة : « يرحمك الله ، ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله للمسلمين ولك فيه مخرجاً » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن هذه الخصيصة الثانية « فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ » . وهذه العبارة تحتمل اباحة الصلاة في أي مكان من الأرض يكون الإنسان فيه ، ويدركه فرض من فروض الصلاة ، كما تحتمل أيضاً إباحةَ التيمم من أي تراب طيب طاهر من تراب الأرض، إذا أراد الإنسان الصلاة ولم يجد ماءً أو عجز عنه .

* * *

وثالثة الخصائص عبّر عنها الرسول بقوله : « وأُحلت لي الغنائم ولم تَحِلّ لأحد قبلي » . ومعنى « أحلت » : صارت حلالاً ، أي مباحة لا مانع منها ، لأن الحلال ضد الحرام ، والحرام هو المحرم شرعاً ، أي الممنوع . و « الغنائم » : جمع غنيمة ، والغنيمة والمغنم والغُنْم ألفاظ متقاربة المعنى ، والغنيمة هي ما يصيبه المسلمون من أموال الكافرين في الحرب ، وأوْجفوا عليه بالخيل والركاب ، أي أسرعوا إليه المسير ، وحثوا على تحصيله الخيولَ والدواب ، أي بطريق الحرب والقتال .

وقد فرق العلماء بين الغنيمة والفيء ، فقالوا ان الغنيمة هي المال المأخوذ

من الكفار بطريق القتال وإيجاف الخيل والركاب والفيء هو المال المأخوذ من الكفار بغير قتال وبغير ايجاف خيل أو ركاب ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله في سورة الحشر : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ، ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ».

وقيل إن لفظ « الفيء » يشمل المالين ، وقيل إن كلا من اسمي الغنيمة والفيء يقع على الآخر إذا أفرد بالذكر ، فإذا جمعنا بينهما افترقا كلفظي الفقير والمسكين . وقيل إن الفيء ما رجع إلينا بدون صنع منا ، فيسمى فيئاً لأنه فاء بنفسه ، وأما الغنيمة فلنا فيها صنع ، فهي لم ترجع إلينا بنفسها ، بل ردها الغانمون على أنفسهم بتوفيق الله تعالى ، وقد تحدث الإمام النووي عن ذلك في كتابه « تهذيب الأسماء واللغات ».

والقرآن الكريم يذكر الغنائم في أكثر من موطن ، فيقول في سورة الأنفال « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » . ويقول في السورة نفسها بعد ذلك : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم » .

ويقول في سورة الفتح : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين

ويهديكم صراطاً مستقيماً ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً » .

* * *

ورابعة الخصائص عبر عنها الحديث بقوله : « وأعطيتُ الشفاعة » . والشفاعة هي السؤال في التجاوز عن الذنوب ، وقد وردت أحاديث كثيرة في كتب الصحاح ، تتحدث عن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأمته : ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كلُّ نبي دعوتَه ، وإني اختبأت دعوتي (ادخرتها) شفاعةً لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » . ومنها قوله : « أنا أول الناس يشفع في الجنة (أي في فتح أبوابها ، ودخول بعض العصاة فيها) وأنا أكثر الأنبياء تَبَعاً » . ومنها قوله في حديث صحيح طويل : « فأنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله عليّ ، ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي ، ثم يقول : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تُعْطَهْ ، اشفع تُشفع ، فأرفع رأسي فأقول : يا رب أمتي أمتي .... » إلخ .

ونحن نفهم من آيات القرآن الكريم أن الشفاعة جائزة بشرط إذن الله تعالى فيها لمن يرتضيه من خلقه ، وخير خلقه هو سيدنا رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، فالقرآن يقول في سورة البقرة « « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ، ويقول في سورة يونس : « ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم » . ويقول في سورة مريم : « لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » . ويقول في سورة طه : « يومئذ لا تنفع الشفاعةُ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً » .

* * *

ثم تأتي خامسة الخصائص المذكورة هنا ، وهي التي يعبر عنها الحديث الشريف بقوله : « وكان النبي يُبعث لقومه خاصةً ، وبُعثتُ للناس عامة » . ولا شك أن هـــذه فضيلة جليلة عظيمة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فكل رسول قبله كان مبعوثاً لقوم بأعينهم ، ولزمن موقوت ، وأما رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فقد أرسله الله إلى الخلق كلهم ، وإلى الناس جميعهم ، والله يؤيد هذا حين يقول في سورة النساء : « وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً » . ويقول في سورة الأنبياء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ويقول في سورة سبأ : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

* * *

هذا ولقد جاءت في هذا الحديث رواية أخرى رواها أحمد والبيهقي عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُعطيت ما لم يعطَ أحـــد من الأنبياء ، فقلنا : يا رسول الله وما هو ؟ . قال : نُصرت بالرعب ،وأعطيت مفاتيح الكعبة ، وسُميت أحمد ، وجُعل التراب طهوراً ، وجعلت أمتي خير الأمم » .

وقوله : « وأعطيت مفاتيح الكعبة » يرويه ابن الأثير هكذا : « أوتيت مفاتيح خزائن الأرض » ويذكر أن المراد بذلك هو ما سهل الله تعالى له ولأمته من افتتاح البلاد المتعذرات ، واستخراج الكنوز الممتنعات .

وأما قوله : « وسُميت أحمد » فإن القرآن الكريم يؤيده ويؤكده حين يقول في سورة الصف : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث المتفق عليه : « لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا

أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » ، والعاقب هو الذي ليس بعده نبي . وفي الحديث الذي يرويه مسلم يقول عليه الصلاة والسلام : « أنا محمد وأحمد والمقفّي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة » . والمقفي هو العاقب للأنبياء قبله ، لأنه قفاهم وتبعهم في الزمن .

وأما قوله : « وجعلت أمّتي خير الأمم » فيزكيه قول الحق تبارك وتعالى: « كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

ولقد جاء في حديث آخر أخرجه مسلم وأحمد ما له صلة بالموضوع ، وهو ما رواه حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فُضّلنا على الناس بثلاث : صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء ». صلاة وسلاماً على خير خلق الله : محمد رسول الله .

* * *

قدرة الخالق

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم يُجمع خلْقُه في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملَك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمَرُ بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد .

فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتّى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتّى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

(رواه البخاري ومسلم) .

* * *

هذا الحديث الجليل حديث متفق على صحته وتلقيه بالقبول ، وهو يقص علينا الأطوارَ التي يمر بها الجنين في بطن أمه ، وكيف يُنفخ فيه الروح ، ويُكتَب له ما قدره الله تعالى عليه ، وهذا الحديث يرينا قدرة الله العلي الكبير ، التي أخذ العلماء والأطباء يبحثون في مظاهرها وآثارها فاستبان لهم أن كتاب الله المجيد قد أورد من أوصاف الحمل وتكوّن الجنين ما يدل على أنه كتاب

عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولقد ذكر القرآن الكريم خلقَ الإنسان وتكوين الأجنة في الأرحام في أكثر من سورة ، فقال عز من قائل : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وقال في سورة الحج : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى» . وقال في سورة الزمر : « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، في ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو ، فأنى تصرفون . » وقال في سورة الانفطار : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك » . ؟ .

* * *

ونعود إلى الحديث الذي معنا فنجده يوافق ما ذكره التنزيل الحكيم ، فيقول : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك » . والنطفة في الأصل هي الماء الصافي ، ويعبر به عن ماء الرجل الذي يتم به التناسل مع ماء المرأة ، والعلقة قطعة من الدم ، وقيل هي دم لا يستبين فيه الخَلْق ، والعَلَق هو الدم الجامد ، والله تعالى يقول : « خلق الإنسان من علق » . والمضغة القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ ، وقد جعلت « المضغة » اسماً للحالة التي ينتهي إليها الجنين بعد العلقة . والمعنى أن الجنين يكون في أول أمره ماءً تناسلياً ، ويظل في حكم هذا الماء أربعين يوماً ، ثم يكون قطعة من الدم أربعين يوماً كذلك ، ثم يتجمد ويكون قطعة

من اللحم أربعين يوماً كذلك . وهذا يفيد أن الجنين يظل مئة وعشرين يوماً في هذه الأطوار الثلاثة قبل أن يُنفخ فيه الروح .

« ثم يرسل الله إليه المَلَك فينفخ الروح » بأمر الله وقدرته ، ويكون نفخ الروح في الجنين بعد أربعة أشهر ، وقد رُوي عن الإمام علي كرم الله وجهه قال : « إذا تمت النطفة أربعةَ أشهر بعث الله إليها ملكاً فينفخ فيها الروح في الظلمات ، فذلك قوله تعالى :«ثم أنشأناه خلقاً آخر » . وفي رواية عن ابن عباس قال : « إذا وقعت النطفة في الرحم مكثت أربعة أشهر وعشرا ، ثم نفخ فيه الروح » . وفي إسناد هذه الرواية نظر أشار إليه العلماء .

وهناك رواية عن الإمام أحمد لعلها تفسر لنا زيادةَ الأيام العشرة حيث قال عن الجنين : « إذا بلغ أربعة أشهر وعشرا ففي تلك العشر ينفخ فيه الروح » أي في خلال العشر ، وقد يكون ذلك في أولها أو وسطها أو آخرها . ويؤيد روايةَ ابن عباس السابقة رواية لأبي الحارث وهي : « تكون النسمة نطفة أربعين ليلة ، وعلقة أربعين ليلة ، ومضغة أربعين ليلة ، ثم تكون عظماً ولحماً ، فإذا تم أربعة أشهر نفخ فيه الروح » . وأيد هذا سعيد بن المسيب حين سئل عن عدة المرأة المتوفى عنها زوجها — حيث جعلت أربعة أشهر وعشرا — : ما بال العشر ؟ قال : ينفخ فيها الروح .

* * *

وبعد أن يكون مضغة تتحول المضغة إلى عظام ، ثم يكسى العظام باللحم ، ثم يتم خلقه في هيئته الأخيرة . وفي بعض روايات الحديث أنه يكون عظماً أربعين يوماً ، وهذه الرواية تقول : « إن النطفة تكون في الرحم أربعين يوماً على حالها لا تغير ، فإذا مضت الأربعون صارت علقة ، ثم مضغة كذلك ، ثم عظاماً كذلك ، فإذا أراد الله أن يسوي خلقه بعث إليه ملَكاً » إلى آخر الحديث

ومفهوم هذه الرواية أن الجنين يكسَى باللحم بعد مئة وستين يوماً ، وفي هذا خلاف .

ويؤمر – أي الملك – بأربع كلمات : « بكتب (أي كتابة) رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد » أي أن الله تعالى حينما يرسل أحد ملائكته لينفخ الروحَ في الجنين يأمره أيضاً بأن يكتب في صحيفة هذا الجنين ما يتعلق برزقه وعمره وعمله وشقاوته أو سعادته . وفي صحيح مسلم ما يفيد أن الملك الذي يرسله الله يقول : يارب أشقيٌّ أم سعيد ؟ . فيقال له الجواب ، فيكتب في صحيفته ، فيسأل : أذكَر أم أنثى ؟ . فيقال له الجواب ، فيكتب ، ويقال له أيضاً ما يتعلق برزقه وأجله وعمله وأثره فيكتبه ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا ينقص فيها .

وروى الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنهم قال : النطفة إذا استقرت في الرحم جاءها ملَك فأخذها بكفه فقال : أي رب ، مُخلَّقة ، أو غير مخلقة (والمخلقة المصورة المتبينة الخلق) ، فإن قيل : غير مخلقة ، لم تكن نسمة ، وقذفتها الأرحام دماً ، وإن قيل : مخلقة ، قال : أي رب ، ذكَر أم أنثى ؟ شقي أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأي أرض تموت . قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ . فتقول : الله . فيقال : من رازقك ؟ . فتقول : الله . فيقال : اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد فيه قصة هذه النطفة .

قال : فتخلق فتعيش في أجلها ، وتأكل في رزقها ، وتطأ في أثرها ، حتى إذا جاء أجلها ماتت ، فدفنت في ذلك ، ثم تلا الشعبي قوله تعالى : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى

الأرض هامدة فإذا نزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

ثم قال الشعبي : فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة ، فإن كانت غير مخلّقة قذفتها الأرحام دماً ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة — أخرجه ابن أبي حاتم وغيره .

* * *

وإذا كان الحديث يفيد أن هناك كتابة لهذه الأمور في صحيفة صاحبها وهو جنين ، فلا يجوز أن يتخذ الإنسان ذلك سبباً لترك السعي والعمل ، ففي الحديث الصحيح عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار ، وإلا قد كُتبت شقية أو سعيدة . فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ . فقال : اعملوا فكل ميسّر لما خُلق له ، وأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة . ثم قرأ : « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » .

ثم جاء في الحديث : « فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهـــل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

وروي أن هذه العبارة ليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنها من كلام ابن مسعود راوي الحديث ، ومع هذا نجد معنى العبارة موجوداً في أكثر من حديث نبوي ، كالأحاديث التالية المختلفة الأسانيد :

١) إنما الأعمال بخواتيمها .

٢) الأعمال بخواتيمها .

٣) إنما الأعمال بخواتيمها ، كالوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله .

٤ – لا عليكم أن تُعْجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له . فإن العامل يعمل زماناً من عمره – أو برهة من دهره – بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً ، وإن العبد ليعمل البرهة من عمره بعمل سيىء لو مات عليه دخل النار ، ثم يتحول فيعمل صالحاً .

٥ – إن الرجل ليعمل الزمانَ الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة .

وقد يكون المراد هذا العملَ الظاهري الذي يكون من ورائه ما يخالفه ، ولعل مما يشير إلى ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس ، وهو من أهل الجنة » .

وقد علق الإمام ابن رجب الحنبلي على كلمة : « فيما يبدو للناس » بهذه العبارة: « قوله فيما يبدو للناس إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد،لا يطلع عليها الناس ، أما من جهة عمل سيىء أو نحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت .

وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار ، وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير ، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره ، فتوجب له حسن الخاتمة » ..

وقد يخيل لبعض الجهلاء أن سبق الكتاب المشار إليه بقوله : « فيسبق عليه

الكتاب » يتم بلا حكمة وبلا عدل، وهذا خطأ ، فالله تعالى يرى ما لا نراه ، ويعلم ما لا نعلمه ، وقد رويت قصة رجل لقنه بعض الناس – وهو على فراش الموت – شهادة (لا إله إلا الله) فقال الرجل في نهاية كلامه : « هو كافر بما تقول » ومات على ذلك ، وكان عبد العزيز بن أبي رواد حاضرا هذا المشهد ، فسأل عن حال هذا الرجل في حياته ، فعرف أنه كان مدمناً للخمر ، فقال عبد العزيز : « اتقوا الذنوب فإنما هي التي أوقعته » ..

ولذلك قيل : « الخواتيم ميراث السابق » . وقيل : « دسائسُ السوء الخفية توجب سوء الخاتمة » . والمطلوب من المسلم أن يستقيم على الطريق ، ويداوم على الطاعة ، وأن يحذر التفريط والإهمال ، حتّى لا ينقلب على وجهه فيخسر الدنيا والآخرة . ولقد كان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لربه قوله : « يا مقلبَ القلوب ، ثبّتْ قلبي على دينك » . فقيل له : يا نبي الله ، آمنا بك ، وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ . قال : نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبها كيف يشاء ...

اللهم ثبت قلوبنا على دينك، واكتب لنا حسن الخاتمة ، فإنك أنت الرءوف الرحيم .

رُخصة الكذب للاستهلاك

عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فيَنْمِي خيراً ، أو يقول خيراً » . قالت : ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : يعني الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها » .

(رواه البخاري ومسلم) .

* * *

راوية هذا الحديث هي أم كلثوم بنت عقبة ، وهي صحابية أسلمت قديماً ، وهاجرت وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم، وهي أخت عثمان بن عفان لأمه ، ولما هاجرت تزوجت أكثرَ من رجل آخرهم عمرو بن العاص ، وبقيت معه حيناً ثم ماتت عنده في خلافة علي ، وقد روت طائفة من الأحاديث، أحدها الحديث الذي معنا ، والذي يبين لنا أن للضرورة أحكامها الخاصة ، وأن للمصالح الكبيرة من التقدير ما يبيح لنا أن نرتكب من أجلها ما لا يباح في الأحوال المألوفة ، كالكذب غير الضار مثلاً ، فإن الدين يحرم الكذب إلا عند الضرورة كما سنرى .

والكذب ضد الصدق ، وهو مختص في الحقيقة بالأقوال ، وقد يستعمل

مجازاً في غير الأقوال ، مثل : كذبتك عينُك ، وقال بعض العلماء إن الكذّاب المذموم شرعاً هو من يذكر غير الصدق ، وهو يعلم أن ما يقوله كذب ، ويكون من شأن قوله أن يؤدي إلى ضرر أو فساد .

وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا أن من أراد الإصلاح بين الناس ، واحتاج إلى الكذب لتحقيق ذلك الإصلاح ، لا يكون كذاباً مذموماً أو آثماً في نظر الدين . والصلح أو الإصلاح هو إزالة النّفار بين الناس ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً » . وكلمة « نَمَى » تدل في أصلها على الارتفاع والزيادة ، يقال : نمى المال إذا زاد ، وتنمّى الشيء ارتفع من مكان إلى مكان ، ونَمَّيْتُ الحديثَ (بتشديد الميم) أشعته ، وتطلق كلمة « النامية » على الناس لأنهم يزيدون ، وفي الحديث : « لا تمثلوا بنامية الله » أي بعباده ، ويقال : « نَمَى فلان الحديثَ — دون تشديد الميم — أي ذكره على وجه الإصلاح ، و « نمّى الحديث » — بتشديد الميم — أي ذكره على وجه الإفساد ، قال ابن الأثير في النهاية : « يقال : نَمَيْتُ الحديث أنميه إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير ، فإذا بلغته على وجه الإفساد والنميمة قلت : نمّيته بالتشديد ، هكذا قال أبو عبيد وابن قتيبة وغيرهما من العلماء » .

وعلى هذا يكون معنى : « فينْمِي خيراً ، أو يقول خيراً » أنه يقوي جانب الخير حتّى يتغلب على جانب الشر ، فيعود الصفاء والوئام إلى المتخاصمين أو المتفرقين ، فالمصلح يخبر بما يعرفه من الخير وعوامل الصلح ، ويسكت عما يعلمه من حوافز الخلاف والخصام بينهم ، وينشر الوئام والسلام فيهم ، وينزع الأحقاد والضغائن منهم ، وبذلك يعيشون أحبةً متآخين ، لا أعداء متناحرين ، ونحن نعلم أن الخلاف ظاهرة شائعة بين الناس ، وهو يقع بين الزوجين ، أو الأخوين ، أو القريبين ، أو الشريكين ، أو الدولتين ، ومعظم النار من مستصغر الشرر ، فلو تركنا هذا الخلافَ بلا إصلاح ، لزاد البلاء وتضاعف الشقاء ،

وبذلك تتمزق الروابط بين الأحبة ، وتتحكم عوامل الشقاق والعداوة ، فتصير الحياة بئيسة ، ويصبح الأحياء بها أشقياء .

ولذلك لم يجعل الدين على الإنسان حرجاً إذا احتاج إلى أن يكذب ، وهو ينوي بكذبه أن يصلح بين الناس ، لأن الكذب هنا — وإن كان فيه فساد قليل — يؤدي إلى خير كثير ، وفوق هذا نرى أن الكذب في مثل هذا المقام لا ينشأ عنه ضرر لأحد ، بل بالعكس يؤدي إلى خيرٍ هنا وهناك ، فالمصلح يأتي مثلاً إلى أحد الخَصْمين ويذكر له أن خصمه يحبه ، أو أنه قد أثنى عليه وقال فيه كلاماً جميلاً ، وقد يذهب هذا المصلح إلى الخصم الآخر ويذكر له نحوَ هذا ، وبذلك يفتح قلبَ كلٍ من الخصمين للوفاق والصلح . وقد يعرف المصلح الكثيرَ من الأمور المتعلقة بالخصومة، ولكن ذكر بعض هذه الأمور يؤدي إلى الاتفاق ، وذكر بعضها يؤدي إلى بقاء الشقاق أو توسيع دائرته ، فإذا هو يُعْرِض عن ذكر البعض الضار ، ويحرص على تجلية البعض الطيب . والدين يبيح هذا .

* * *

والإصلاح بين الناس أمر عُنِيَ به القرآن المجيد ، فقال : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » . والمراد بذات البين هنا الحال التي من حقها أن تكون بينكم وتجمعكم من القرابة والمودة والمحبة . وقال القرآن أيضاً : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » . وقال : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاءَ مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . وقال : « إنا لا نضيع أجر المصلحين » .

كما أن السنة النبوية المطهرة عنيت بهذا الإصلاح ، فقال رسول الله

صلوات الله وسلامه عليه : « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » . وقال : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » . والحالقة يراد بها هنا الخصلة التي من شأنها أن تحلق — أي تهلك وتستأصل — الدين ، كما يستأصل الموسى الشعر.

* * *

وينبغي أن نتذكر هنا أنه لا يجوز للناس أن يستغلوا هذه الرخصة الدينية ، فيقبلوا على الكذب لأسباب تافهة أو غير ضرورية ، بل الواجب أن يقتصر الإنسان في هذا المجال على القدر الضروري من الكذب الذي يتوسل به مخلصاً إلى الإصلاح بين الناس ، دون أن يؤدي هذا إلى الإضرار بأحد منهم .

وقد ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام — حسبما روت الصحابية أم كلثوم — أن هناك ثلاثة مواطن يباح فيها الكذب بمقدار ما تحتاج إليه ، وهي موطن الحرب ، وموطن الإصلاح بين الناس ، وموطن الحديث بين الزوجين . وقد سبق الحديث عن موطن الإصلاح بين الناس ، وأما موطن الحرب فقد أباح الدين فيه الكذب ، لأن من شأن الحرب أن تقوم على المخادعة بين طائفتي المتحاربين ، ولذلك جاء في الحديث : « الحرب خدعة » ، وقد رويت كلمة « خدعة » في هذا الحديث بفتح الخاء وسكون الدال ، وبضم الخاء وسكون الدال ، وبضم الخاء وفتح الدال ، و « خَدْعة » — بفتح وسكون — معناها أن الحرب ينقضي أمرها بخَدْعة واحدة من الخدع تكون محكمة وموفقة ، وهذه هي أفصح الروايات وأشهرها . و « الخُدْعة » — بضم فسكون — معناها الخداع ، أي أن الحرب تقوم على المخادعة . و « الخُدَعة » — بضم ففتح — معناها الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تفي لهم .

فلا مانع شرعاً من أن يكذب المؤمن على عدوه ، ليكسب المعركة ضد هذا العدو الباغي عليه .

* * *

وأما موطن الحديث بين الزوجين ، فإنه يباح للزوج — عندما يستلزم الأمر أن يثني على زوجته مثلاً بما ليس فيها ، ما دام ذلك يرضيها ، أو يثني على ثوب لبسته ، أو طعام صنعته ، حتى لو كان للزوج في ذلك رأي آخر ، ما دام يعلم أن زوجته تغضبها المصارحة ، وترضيها كلمةُ الثناء ، وكذلك يباح له أن يذكر لها أنه يحبها ، حتى ولو قل حبُّه لها ، إذا كانت المصارحة بالكراهية ستؤدي إلى سوء العاقبة . ويقال مثل هذا أو قريب منه فيما يتعلق بحديث الزوجة إلى زوجها ، فهي مثلاً تطوي ذكرَ عيوبه ومساوئه ، أو تمسها برفق وبقدر ، وتجلّي أمامه محاسنَه لتشجعه وتقوي عزيمته ، ولا بد أن نتذكر هنا أن هذا الموطن دقيق وحساس ، وسوء التصرف فيه أو الاستغلال له ، يؤدي إلى ما هو شر من الصدق والصراحة ، فعلى كل من الزوجين أن يستخدم هذه الرخصةَ بلباقة وحكمة وإخلاص ونية طيبة ، وعلى كلٍّ من الزوجين أن يحذر استخدام هذه الرخصة للخيانة أو الخداع أو التضليل ، أو تحليل حرام أو تحريم حلال .

* * *

ومن وحي هذا الحديث نفهم أيضاً أن الإنسان يباح له الكذب في حالة الخوف على النفس ، أو في حالة دفع ظالم عن ظلمه ، فإذا جاء لص ليسرقك وسألك عن مكان مالك وكذبت عليه فلا إثم عليك ، وإذا وقع الإنسان في حالة إكراه لا يطيق احتمالها فاضطرته إلى الكذب وكذب فلا إثم عليه ، حتى ولو كان هذا يتعلق بكلمة الإيمان أو الكفران ، لأن القرآن الكريم يقول : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » .

ومهما يكن من أمر فإن الكذب لا يباح إلا لمصلحة كبيرة أو لضرورة قاهرة ، ويجب على الإنسان أن يقتصر فيه على هذا النطاق ، وإن استطاع أن يبلغ مراده بالتعريض دون الكذب فعل ، والحديث يقول : « إن في المعاريض مندوحةً عن الكذب » والمعاريض جمع معراض ، من التعريض ، وهو خلاف التصريح من القول ، والمندوحة هي السعة والفسحة ، والمعنى أن في التعريض بالقول من الاتساع ما يغني الرجل عن تعمد الكذب . وفي حديث عن ابن عمر : « أما في المعاريض ما يغني المسلم عن الكذب » . وفي حديث ابن عباس : « ما أحب بمعاريض الكلام حمرَ النعم » .

* * *

ولنتذكر دائماً أن الإسلام يحمل حملة شديدة قاسية على الكذب والكذابين، حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام ، سئل : أيكون المؤمن جباناً ؟ . قال : نعم . قيل : أفيكون بخيلاً ؟ . قال : نعم .

قيل : أفيكون كذاباً ؟ . قال : لا .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً . وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

هذا وقد وردت في معنى الحديث رواية أخرى تقول : « ليس بالكاذب من أصلح بين الناس ، فقال خيراً ، أو نَمَى خيراً » . وهكذا نرى صورة من صور التيسير في الاسلام ، إن الله بالناس لرءوف رحيم .

* * *

سنن الفطرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عشرة من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، والاستنشاق بالماء، وقص الأظافر ، وغسل البراجم ، ونتف الأبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء ، والمضمضة » .

(رواه مسلم وأحمد) .

* * *

يغلب على هذا الحديث الشريف التوجيه إلى الطهارة والنظافة ، وهو يجعل الحرصَ على أسباب النظافة من سنن الفطرة ، و « الفطرة » هي السنة القديمة والخِلْقة المبتدأة ، والله تعالى هو فاطر السموات والأرض ، أي الذي ابتدأ خلقهن في أول أمرهن. وقيل إن الفطرة هي إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال ، ويقول القرآن الكريم في سورة « الروم » : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد قال بعض المفسرين إن هذا إشارة من الله تعالى إلى ما فطر ، أي أبدع وركز في الناس من معرفته سبحانه ؛ وفطرةُ الله هي ما ركزه في الإنسان من قوة على معرفة الإيمان .

وذكر الزمخشري أن فطرة الله التي فطر الناس عليها هي أنه خلقهم قابلين

للتوحيد ودين الإسلام ، غير تائهين عنه ، ولا منكرين له ، لكونه مجاوباً للعقل ، مساوقاً للنظر الصحيح ، حتى لو تُرِكُوا لما اختاروا عليه ديناً آخر ، ومن غوى عنه فإنما أغوته شياطين الإنس والجن .

وقال ابن عطية في تفسيره : إن الذي يعتمد عليه في تفسير فطرة الله هو أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل ، التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مخلوقاتِ الله ، ويستدل بها على شرائعه .

وقيل إن المراد بالفطرة هي ملة إبراهيم عليه السلام ، ولعل هذا يناسب الحديثَ الذي معنا ، وقد يقوّي هذا ما أخرجه عبد الرازق بسند صحيح ، من أن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ذكر قوله تعالى في سورة البقرة : « وإذ ابتلى إبراهيمَ ربّه بكلمات فأتمهن » ، وقال : « ابتلاه بالطهارة وقال : خمس في الرأس وخمس في الجسد ، في الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفي الجسد : تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء » .

* * *

ونستطيع أن نتعرف إلى السنن العشر التي ذكرها الحديث ، ثم نتعرف إلى ما زاد على هذه العشر مما جاء في الأحاديث الأخرى التي تحدثت عن سنن الفطرة :

١ ــ « قص الشارب » ، وهو أحد السنن الخمس التي توجد في الرأس ، كما أشار عبدالله بن عباس فيما سبقت روايته من تفسيره لقوله تعالى : «وإذ ابتلى إبراهيمَ ربه بكلمات » . وقص الشارب هو تقصيره ، والأخذُ منــه حتى لا يطول ويسترسل ، ولعل من الحكمة في ذلك أنه إذا طال أكثر مما ينبغي غطّى الوجهَ ، وربما عاق عن وضوح التكلم ، أو اختلطت أطرافُه بالطعام

والشراب . وقص الشارب سنة ، وقد ورد في الحديث : « من لم يأخذ من شاربه فليس منا » . وليس المراد هنا نفي الإسلام عنه ، بل المراد أنه ليس متبعاً لسنتنا وطريقتنا . وهذا قد جاء على طريقة الزجر والتهديد .

٢ — « إعفاء اللحية » : أي إرسالها وتطويلها حتّى تعفو ، أي تطول وتكثر ، وهذا أمر واجب عند أكثر الفقهاء ، وقال البعض — كالرافعي والنووي — إن ذلك سنة ، وإن حلق اللحية بالنسبة للرجل مكروه ، وبعض الفقهاء المتأخرين في الزمن يرون أنه لا شيء في حلق اللحية ، فلا حرمة فيه ولا كراهة،لأنه أمر يتعلق بالهيئة ولا يتعلق بالعبادة .

٣ — « السواك » : ويراد به هنا استعمال عود شجر الأراك الذي يسمى بالسواك—أو ما يقوم مقامَه من فرشة أو معجون أو نحوه من كل طاهر يزيل الوسخ — في تنظيف الأسنان لتذهب عنها الصفرة وغيرها من الفضلات أو الرواسب ، واستعمالُ السواك سنة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنه : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » .

ويستحب استعمال السواك بصفة خاصة في مواطن خاصة ، فيستحب عند الوضوء ، وعند الصلاة ، وعند قراءة القرآن الكريم ، وعند الاستيقاظ من النوم ، وعند تغير رائحة الفم ، وعند دخول البيت ، وهكذا .

والحكمة في استعمال السواك هو تطهير الفم وتطييبه ، ومنع الرائحةالكريهة عنه ، وَجعله نظيفاً غير كريه المنظر .

٤ — « الاستنشاق » : ويراد به إيصال الماء الطاهر إلى ما لان من الأنف ، بجذبه بالنَّفَس إلى داخل الفم ، وهو سنة ، وقيل إنه واجب، ولعل السبب في ذلك أن الأنف هو طريق الهواء إلى الصدر ، والهواء يكون في الغالب محملاً

بالأتربة والغبار ، وهذا الغبار يترسب خلال الشعيرات الموجودة في أرنبة الأنف من الداخل ، فلو تركنا هذه الأتربة دون إزالة أو تطهير ، أدى ذلك إلى القذارة. وقد يتسبب ذلك في حدوث أمراض ، فيأتي الاستنشاق ، فيطهر هذه الأوساخ، وبذلك يسلم الإنسان .

٥ — « قص الأظافر » : وقد يعبر عنه بتقليم الأظافر ، والمراد هنا أظافر اليدين والرجلين ، والمراد بتقليم الأظافر هو قص ما طال منها ، وهو سنة يحسن الإتيان بها كلما طالت الأظافر واستحقت القص عرفا ؛ والأفضل أن يكون ذلك القص يوم الجمعة قبل صلاة الجمعة ، ليستكمل المسلم نظافتَه عند التقائه بإخوانه في صلاة الجمعة .

والحكمة في ذلك أن الأظافر إذا طالت أكثر من اللازم بدا منظرها قبيحاً ، وكأنه تذكير بالوحش ذي المخالب . وكذلك تحوي الأظافر الطويلة الوسخَ بداخلها ، مما يتسبب في القذارة أو وجود الجراثيم .

٦ — « غسل البراجم » : والبراجم جمع بُرْجُمَة — بضم فسكون فضم — والبراجم هي عُقَد الأصابع ومفاصلها ، وغسلها سنة مستقلة غير خاصة بالوضوء، والحكمة في ذلك أن التعاريج التي تكون عند هذه المفاصل تهيىء الفرصةَ لوجود الوسخ أو الفضلات بداخلها ، فهي تحتاج مزيداً من العناية عند تنظيفها ؛ ويقاس عليها كل مكان يجتمع فيه الوسخ بسهولة، كما في معاطف الأذن والصماخ ، أو ما يجتمع داخل الأنف من الوسخ ، أو تحت الأظافر ، أو بين أصابع القدمين أو باطن الركبتين ، وهكذا .

٧ — « نتف الإبطين » : وهو شد الشعر الذي يكون تحت الإبطين ونزعه ، وهو سنة ، وتجوز إزالته بالحلق أو بمسحوق أو دهن أو دواء . والحكمة في ذلك هو أن إفراز العرق يكثر في الإبطين ، واختلاط العرق بالشعر الموجود

في الإبطين يزيد في انتشار الرائحة الكريهة ، وإزالة الشعر من الإبطين تخفف هذه الرائحة .

٨ — « حلق العانة » : أي إزالة الشعر الموجود فوق عضل التناسل من الرجل ، والشعر الموجود حول فرج المرأة . وتسمى هذه الإزالة بالاستحداد ، لأن إزالة هذا الشعر تكون عادةً بوساطة حديدة كالموسى ونحوه ، ويمكن أن تتم هذه الإزالة بالحلق أو القص أو النتف أو بمسحوق ، أو بمعجون ، والحلق أفضل .

ويسن أن يزيل الإنسان هذا الشعر كلما طال ، وهذا الطول يختلف باختلاف الأحوال ، ولكن ينبغي ألا يتجاوز ذلك أربعين يوماً . فقد ورد ذلك عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

٩ — « انتقاص الماء » : أي انتقاص الماء في الاستنجاء ، والاستنجاء هو المعبّر عنه في حديث ابن عباس بقوله : « غسل أثر الغائط والبول بالماء » أي غسل الموضع الذي يخرج منه البراز أو البول ، أو مسحه بما ينظفه ، وهو واجب عند جمهور العلماء . وقال بعضهم وهم الحنفية إنه سنة مؤكدة ، ويكون الاستنجاء في الأصل بالماء ، ويُجزىء عنه الحجر ، وكل قالع طاهر ، والحكمة في ذلك هي إزالة النجاسة وتحقيق الطهارة والنظافة .

١٠ — « المضمضة » : والمضمضة في الأصل هي التحريك ، ويراد بها هنا استيعاب الماء جميعَ الفم ، بأن يُدخل الماءَ الطاهر فمه ، ويحركه بداخله ، حتى يعم الماء جميع أركان الفم ، وفائدة ذلك أنه ينظف الفم من الفضلات المتخلفة فيه ، وكذلك يزيل ما تعرض له من تغير الرائحة بسبب جوع أو صمت طويل أو غير ذلك .

* * *

هذه هي الأمور العشرة التي عدها الحديث الشريف من سنن الفطرة فيما رواه الإمامان مسلم وأحمد ، وهناك أمران آخران يضافان إلى هذه الأمور .
وقد ورد هذا الأمران في حديث ابن عباس المتقدم ، وأولهما هو « الختان » والختان هو — في الرجل — قطع جميع الجلدة التي تغطي طرف عضو التناسل من الرجل ، وهذا الطرف يسمى « الحشفة » . وهو في المرأة : قطع جزء من أعلى العضو الغضروفي الموجود في أعلى فرج المرأة ، وهو يشبه النواة أو عرف الديك .

وقد قال بعض الفقهاء كالشافعي : إن الختان واجب بالنسبة إلى الرجل والمرأة ، وقال أكثر أهل العلم : إن الختان سنة في حق الرجال والنساء . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الختان سنة للرجال ، مكرمة للنساء » . وكذلك قال : « من أسلم فليختتن ، ولو كان كبيراً » . ولكن العلماء قالوا إذا أسلم الرجل كبيراً ، ولم يطق الختان ، فله أن يتركه .

وذكر العلماء أن وقت الختان يكون بين السنة السابعة والسنة العاشرة من عمر الطفل ، ولكن روي أن الصحيح أن الختان يكون في اليوم السابع من ولادة الطفل ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام ختن الحسن والحسين — رضوان الله عليهما — في اليوم السابع من ولادتهما .

* * *

والأمر الأخير من السنن الفطرية هو « فرق الشعر » والمراد فرق شعر الرأس ، أي جعله نصفين من جانبي اليمين واليسار .

وهذا سنة ، وكذلك يسن ترجيل الشعر وهو تسريحه وتطييبه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من دهن شعره بالطيب ، وقد ورد عنه قوله : « من كان له شعر فليكرمه » .

* * *

إن هذا الحديث الشريف يرينا كيف عني الإسلام الحنيف بأمر النظافة والطهارة . وإذا كان هناك شرقيون أو غربيون يفخرون بأنهم اهتدوا إلى آداب للنظافة والعناية بتطهير الجسم ، فإنهم مسبوقون في هذا بمئات السنين ، حيث جاء الإسلام قبلهم فأوجب الاغتسال في مواطن تتكرر ، وأوجب الوضوء للصلاة وغيرها من بعض العبادات كمس المصحف ، وأرشد إلى هذه السنن التي سماها سنن الفطرة ، أي السنن التي يدعو إليها الطبع الصافي والذوق الرفيع السامي .

والعجيب أن هذه السنن تمتد مواطنها من أعلى هامة الإنسان إلى قدميه . ففي أعلى الرأس تكون سنة ترجيل الشعر وتنظيفه وتطييبه ، وفي الأنف تكون سنة الاستنشاق ، وفي الفم تكون سنة السواك وسنة المضمضة . وفي الإبطين تكون سنة نزع الشعر ، وفي وسط الإنسان تكون سنة حلق العانة ، وسنة الختان ، وسنة الاستنجاء ، وفي الكفين تكون سنة غسل البراجم ، وسنة قص الأظافر ، وفي القدمين تكون سنة قص الأظافر منها أيضاً .

فصلوات الله وسلامه على نبي المتطهرين الذي دعا قومه إلى حسن الاستجابة لهدى القرآن الذي يقول في سورة البقرة : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، ويقول في سورة المائدة : « ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

ويقول في سورة الأنفال : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجس الشيطان » . ويقول في سورة التوبة : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » . ويقول في سورة المدثر : « وثيابك فطهر » .

صلاة وسلاماً على إمام الطاهرين .

الدين يسر

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لن يُنجي منكم أحداً عملُه . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ . قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته . فسَدّدوا وقاربوا ، واغدوا وروحوا . وشيء من الدُّلجَة . والقصدَ القصدَ تبلغوا . (رواه البخاري) ..

* **

هذا الحديث الشريف يعلّم المؤمن خصالاً ، منها الحذر من الاغترار بالعمل . والتعلق الدائم برحمة الله الواسعة ، والتوسط في العمل والسعي ، والمداومة على الطاعة حتى يبلغ المؤمن رضا ربّه في الدنيا والآخرة .

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لن ينجي منكم أحداً عمله » : أي إن العملَ وحده لا ينقذ الإنسان من النار ، ولا يوجب له دخولَ الجنة ، وإنما تتحقق النجاة والفوز بفضل الله ورحمته ، وقد رمز القرآن الكريم إلى ذلك حين قال : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار » . فغفران الذنوب هنا تفضُّلٌ من الله تعالى ، وإدخالهم الجنة إنما كان برحمته سبحانه ، ولذلك قال الأولون : إن الإنسان في الآخرة إما أن يعصمه الله ويتفضل عليه بالعفو ، وإما أن يهلكه بإدخاله النار .

فإن قيل : كيف لا يُدْخل العملُ صاحبَه الجنةَ ، مع أن الله تعالى يقول :

« تلكم الجنة أُورثتموها بما كنتم تعملون » ؟ فالجواب أن الله تعالى جعل العملَ سبباً لدخول الجنة ؛ ولم يجعل العمل موجباً لهذا الدخول ، فلا يلزم ترتُّب الدخول على العمل ، ولكن الله تعالى هو الذي تفضل فجعل العملَ سبباً للدخول.

ولذلك يقول المؤمنون عند دخولهم الجنة : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » . وحينما يقولون هـذا يتفضل الله عليهم بنعمته ؛ ويزيد في كرمه ، بأن يضيف العملَ الطيب إليهم فيقال لهم :
« تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » .

فالله تبارك وتعالى هو صاحب الفضل أولاً وأخيراً ، ولذلك جاء في الحديث القدسي : « يقول الله عزوجل للجنة : أنت رحمتي ، أرحم بكِ من أشاء من عبادي » . والله جل جلاله لا يظلم مثقالَ ذرة ، لأنه إن عذب فبالعدل يكون العذاب ، وإن أثاب فبفضله يكون الثواب . وقد سئل بعض العارفين : أي الأعمال أفضل ؟ . فقال : رؤية فضل الله عز وجل .

ومما ينبغي تذكره أن الإنسان لا بد أن يخطىء ، ولو أن محاسبة الله تعالى له مشت على العدل وحده لثقلت كفة السيئات فيهلك ، ولكن فضل الله تعالى هو الذي يضاعف الحسنات ويبارك فيها فتربو على السيئات ، فيمضي الإنسان بذلك إلى رحمة الله ونعمته .

وكذلك ينبغي أن نتذكر أن نعم الله تعالى على الإنسان لا تعد ولا تحصى ، وأي نعمة تتضاءل أمامها جهود الإنسان وأعماله ، فلو أراد طريقةَ العدل وحدها في الحساب لتغلبت النعم على الأعمال مهما كانت ، وأُضيفت بعد ذلك السيئات ، فلا يستحق العبد النجاةَ بعمله ، فلا يبقى له إلا تفضل ربه .
وفي الحديث : « من نوقش الحسابَ هلك » .

وكذلك ينبغي أن نتذكر أن استحقاق الثواب على العمل متوقف على قبوله ، وقبوله موكولٌ إلى البارىء سبحانه ، ولذلك قال ابن عون : « لا تثق بكثرة العمل ، فإنك لا تدري أيُقبَل منك أم لا ، ولا تأمن ذنوبَك ، فإنك لا تدري هل كُفِّرَت عنك أو لا ، إن عملك مغيَّب عنك كله ، لا تدري ما الله صانع فيه » . وقال ضيغم العابد : « إن لم تأت الآخرةُ المؤمنَ بالسرور فقد اجتمع عليه همان : هم الدنيا وشقاء الآخرة » . فقيل له : كيف لا تأتيه الآخرة بالسرور ، وهو يتعب في دار الدنيا ويدأب ؟ ، فأجاب : « كيف بالقبول ؟ كيف بالسلامة » ؟

ولقد قال أحد العابدين :

ذنوبي إذا فكرتُ فيهـا كثيـرة ورحمةُ ربي من ذنوبي أوسـعُ
وما طمعي في صالح قد عملتُه ولكنني في رحمة الله أطمع

ولا يجوز أن يفهم فاهم أن قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لن يُنجي أحداً منكم عملُه » فيه تحريض على الكسل ، أو تسويغ لترك العمل ، فإن المراد منه هو إدراك الإنسان لفضل الله الدائم ، ونعمه الموصولة ، ومن فضل الله على الإنسان أنه شرع له العبادات والطاعات والقربات ووجوه المعاملات التي يرتضيها ، فيجب على المؤمن أن يسلكها ويستجيب لربه فيها ، حتى يكون حامداً لخالقه ، شاكراً نعمته ، ذاكراً فضله على الدوام .

* * *

ولما قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذا لأصحابه سألوه قائلين : ولا أنت يا رسول الله ؟ . فأجاب : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » : أي إلا أن يغمرني بفضله ، ويشملني بنعمته ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : « سدّدوا وقاربوا » : أي سيروا بالاعتدال والتوسط والقصد ، فلا يهمل الانسان واجباً ، ولا يحمل نفسه فوق ما تطيق ، ولذلك قال النضر بن شميل:

« السداد القصد في الدين والسبيل » ، وقيل : سددوا من السداد وهو الصواب وقاربوا من المقاربة ، وهي التوسط بين الإفراط والتفريط .

ويقول الإمام ابن رجب الحنبلي : « طريقة الاقتصاد والمقاربة أفضل من غيرها ، فمن سلكها فليُبْشر بالوصول ، فإن الاقتصاد في سنة خير من الاجتهاد في بدعة ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن سلك طريقه كان أقرب إلى الله من غيره ، وليست الفضائل بكثرة الأعمال البدنية ، ولكن بكونها خالصةً لله ، صواباً على متابعة السنة . وبكثرة معارف القلوب وأعمالها ، فمن كان بالله أعرف ، وبدينه وأحكامه وشرائعه أعلم ، وله أخوف وأحب وأرجى ، فهو أفضل ممن ليس كذلك ، وإن كان أكثر منه عملاً بالجوارح .

وإلى هذا المعنى الإشارة في حديث عائشة رضي الله عنها في قوله صلى الله عليه وسلم : « سددوا وقاربوا ، واعلموا أنه لا يُدْخل الجنةَ أحداً منكم عمله ، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل فأمر بالاقتصاد في العمل ، وأن يضم إلى ذلك العلمَ بأنه أحَب الأعمال إلى الله ، وبأن العمل وحده لا يُدخل الجنة .

وهذا قال بعض السلف : (ما سبقهم أبو بكر بكثرة الصوم ولا الصلاة، ولكن بشيء وقر في صدره) . وقال بعضهم : الذي في صدر أبي بكر رضي الله عنه المحبة لله ولرسوله ، والنصيحة لعباده . وقالت طائفة من العارفين : ما بلغ من بلغ بكثرة صيام ولا صلاة ، ولكن بسخاوة الأنفس ، وسلامة الصدور ، والنصيحة للأمة ، زاد بعضهم : وبذم نفوسهم . وقال آخر منهم : إنما تفاوتوا بالإرادات ، ولم يتفاوتوا بكثرة الصيام والصلاة » .

* * *

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « واغدوا وروحوا ، وشيء من الدلجة » . والغُدْوة : المرة من الغَدْو ، وهو سير أول النهار ، ووقت الغدوة من الفجر إلى طلوع الشمس . والرواح : العشي ، وسُمّيَ بذلك لأن الريح تهب في الأغلب بعد الزوال ، والرَّوْحة من الزوال إلى الليل . والدُّلجَة : سير الليل . ويقال : أدْلج (بسكون الدال مخففة) إ ا سار من أول الليل ، ويقال : ادّلَجَ (بتشديد الدال مفتوحة) إذا سار من آخر الليل ، والمقصود هنا هو آخر الليل .

والمراد هو الحث على الطاعة والتقرب إلى الله في هذه الأوقات ، وقد ذكر هنا ثلاثةَ أوقات يكون فيها السير إلى الله تعالى بالطاعة ، وهي أول النهار ، وآخره ، وآخر الليل ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأوقات الثلاثة في قوله : « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » ، فالبكرة تشير إلى الغدْوة ، والأصيل يشير إلى الرواح ، والليل يشير إلى الدلجة .

ولنلاحظ أن وقت الغدوة تقع فيه صلاة الصبح ، وأن وقت الرواح فيه صلاة العصر ، وقد قيل إنهما أفضل الصلوات الخمس ، وقيل عن كل منهما إنها الصلاة الوسطى ، وفي الحديث الصحيح عن جرير بن عبد الله البجلي عن النبي قال : « إنكم لترون ربكم يوم القيامة كما ترون ليلة البدر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تُغْلَبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » .

وقد قيل : « لما كان هذان الوقتان في الجنة وقتين للرؤية في حق خواص أهل الجنة ، حضّ صلى الله عليه وسلم على المحافظة على الصلاة في هذين الوقتين في الدنيا ، فمن حافظ على هاتين الصلاتين في الدنيا ، وصلاهما على أكمل وجوههما وخشوعهما وحضورهما وآدابهما ، فإنه يرجَى أن يكون ممن يرى الله في هذين الوقتين ، لاسيما إن حافظ بعدهما على الذكر وأنواع العبادة

حتى تطلع الشمس أو تغرب ، فإن وصل العبد ذلك بدلجة آخر الليل فقد اجتمع السير في الأوقات الثلاثة ، وهي : الدلجة والغدوة والروحة ، فيوشك أن يُعْقبه الصدقُ في هذا السير الوصولَ الأعظم إلى ما يطلبه في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

ويلاحظ أيضاً أن الليل هو وقت الاستغفار، والله تعالى يقول في شأن الأخيار من عباده : « وبالأسحار هم يستغفرون » ، ويتحدث عنهم فيقول : « والمستغفرين بالأسحار ». ولقد دخل الأشتر على الإمام علي كرم الله وجهه فقال له : يا أمير المؤمنين ، صوم بالنهار ، وسهر بالليل ، وتعب فيما بين ذلك ؟ . فأجابه الإمام : « سفر الآخرة طويل ، فيحتاج إلى قطعه بسير الليل » .

وأكاد أفهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يلفت أبصارنا وبصائرنا إلى أن النهار بطرفيه وما بينهما أكثر صلاحاً للعمل من الليل، لأن النهار فيه الحركة والسعي والقدرة على العمل . وأما الليل فهو في العادة محل الراحة والاستجمام، ولذلك نصح النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه بأن يعملوا في أول النهار وهو الغدوة ، وفي آخره وهو الروحة ، وبينهما فرص أخرى للعمل ، فقال : « واغدوا وروحوا » وأما الليل فقال عنه : « وشيء من الدلجة » أي يكفيكم فيه من التقرب إلى ربكم شيءٌ من العمل الطيب والطاعة المحمودة فيه ، وقد يتضح هذا الفرق إذا قارنا بين قوله عليه الصلاة والسلام : « واغدوا وروحوا» وقوله : « وشيء من الدلجة » .

* ** *

ثم قال الحديث : « والقصدَ القصدَ تبلغوا » . والقصد هو الاقتصاد في العبادة ، والتوسط فيها بين الافراط والتفريط، أو بين الغلو والتقصير . وقال ابن الأثير في النهاية : « القصد ، القصد تبلغوا : أي عليكم بالقصد من الأمور

في القول والفعل ، وهو الوسط بين الطرفين ، وهو منصوب على المصدر المؤكد، وتكراره للتأكيد » .

وفي الحديث : « عليكم هدياً قاصداً » أي طريقاً معتدلاً . وفيه : « ما عال من اقتصد ولا يعيل » أي ما افتقر من لا يسرف في الانفاق ولا يقتّر . وعن حذيفة جاء حديث يرفعه : « ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في العبادة » .

وكان لمطرف بن عبدالله ولد غالَى في عبادته ، فقال له أبوه : « خير الأمور أوسطها : الحسنة بين السيئتين ، وشر السير الحَقْحَقَة » أي أن الغلو في العبادة سيئة ، والتقصير فيها سيئة ، فهاتان سيئتان ، تكون الحسنة بينهما ، وهي الاقتصاد . والحَقْحَقَة : هي المتعب من السير ، وقيل هي أن تُحمْل الدابة على ما لا تطيق من السير ، وقيل هي أن يلج في شدة السير حتّى تعطب الدابة .

وهذا يذكرنا بالحديث القائل : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فلن يشاد الدّين أحد الا غلبه الدين . وإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » .

وقوله : « تبلغوا » : أي تصلوا ، فالعبد إذا استقام على الصراط المعتدل في عبادة ربه ، وصل إليه في الدنيا ، بأن يعرف جلاله وفضله ، ويحبه ، ومتى أحب الإنسان ربّه دعاه ورجاه ، فأجابه وحقق له ما تمناه ، وهو يصل إليه في الآخرة بدخوله الجنة موطنِ ثوابه ونعمته .

ولقد كرر الحديث كلمة : « القصدَ » للتأكيد ، وللاشارة إلى المداومة على الاعتدال ، لأن هذا هو الذي يطيقه الإنسان ، وأما المسرف على نفسه فإنه يعرضها للملل والسأم . فتنقطع عن العمل ؛ ولكن الاعتدال يعاون على الاستمرار ، وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل .

وقد قال بعض السلف : « الرجاء قائد ، والخوف سائق ، والنفس بينهما

كالدابة الحَرُون ، فإذا فتر قائدُها ، وقصر سائقها ، وقفت ، فتحتاج إلى الرفق بها ، والحَدْو لها ، حتى يطيب لها المسير » .

* * *

هذا وقد جاءت في هذا الحديث عدة روايات منها :

١) إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة .

٢) سددوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لا يدخل الجنة أحدٌ بعمله، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ . قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني بمغفرة ورحمة .

٣) سددوا وقاربوا ، واُعلموا أنه لا يدخل أحدَكم عملُه الجنة، وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل .

نسأل الله العلي الكبير أن يكتب لنا نعمة الدوام على طاعته ومرضاته ، إنه ولي التوفيق .

* * *

دين الله والناس

عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تُمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

(رواه الشيخان البخاري ومسلم).

* * *

هذا الحديث يعد آية من آيات البلاغة النبوية التي آتاها الله من التوفيق ما يضيء أمامها جوامعَ الكلم، فتأتي بالمعنى الغزير الكبير في اللفظ القليل القصير، وهي في توفيقها تُدني القصيّ، وتظهر الخفيّ، وتذلل العتيّ؛ وأول كلمة وردت هنا هي كلمة «مثل» والمثل يراد به تشبيه حالة عجيبة بغيرها مما يُظهرها ويجلوها، وقد جاء في القرآن الكريم طائفة من الأمثال كقوله تعالى: «مثل الذين حُملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين» (سورة الجمعة الآية ٥).

وقوله : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » سورة البقرة الآية (٢٦١) .

والحديث يقول : « مثل ما بعثني الله به .... » : وكان يستطيع أن يقول مثل الدين أو مثل الإسلام ، ولكن التعبير البليغ جاء بلفظة « ما » لإيجاد الإبهام المهيىء للتشويق إلى البيان والإيضاح ، فإذا جاء هذا البيان بعد ذلك تمكن المعنى من نفس السامع وتوطد . وفي هذا التعبير أيضاً تفخيم عن طريق هذا الإبهام .

« وبعثني » : أي أرسلني ، ويوصف رسول الله عليه الصلاة والسلام بأنه « بعيثُ الله » أي مبعوثه الذي بعثه إلى الخلق ، فالكلمة على وزن فعيل بمعنى مفعول .

« والهُدَى » — بضم ففتح — مصدر هداه ، يقال : هداه الله للدين هُدى وهديته الطريق ، وهديته إلى الطريق ، أي عرّفته الطريقَ ، فالهدى هو الرشاد والدلالة ، وفي الحديث : « قل اللهم اهدني » . والهَدْي — بفتح وسكون — السيرة والهيئة والطريقة ، وجاء في الحديث : « الهدى الصالح والسمت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة » . أي إن هاتين الصفتين من شمائل الأنبيـــاء ، لا أن النبوة أجزاء . والهدى والهداية في اللغة واحد ، ولكن القرآن الكريم خص لفظة «الهدى» بما تولاه الله وأعطاه ، واختص به دون الانسان.

وقد ذكر الأصفهاني أن أنواع الهداية من الله للانسان على أربعة أوجه ، الأولى الهداية التي عمّ بجنسها كلّ مكلف ، من العقل والفطنة والمعارف الضرورية ، ولذلك قال القرآن الكريم : « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه الآية (٥٠) .

والثاني الهداية التي جعلها للناس ، بدعائه إياهم على ألسنة الرسل وإنزال

القرآن وغير ذلك ، ومن هنا قال القرآن الكريم : « وجعلنا منهم أئمة يهـــدون بأمرنا لما صبروا » السجدة الآية(٢٤).والثالث هداية التوفيق الذي يختص به الله من اهتدى ، وهو المراد بقوله تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى » محمد . الآية (١٧) . وقوله : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم » سورة يونس الآية (٩) . والرابع الهداية في الآخرة إلى الجنة ، وهو المراد بقوله تعالى : « سيهديهم ويصلح بالهم » محمد الآية (٥) .

ولم يقتصر الحديث على ذكر الهدى فيما بعث الله به نبيه محمداً ، بـــل قال : « من الهـُدَى والعلم » والعلم هو إدراك الشيء بحقيقته ، فهناك إذن إرشاد حكيم يصاحبه إدراك سليم .

* * *

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الدين العظيم بالغيث الكثير الذي يصيب الأرض ، أي ينزل عليها ويختلط بترابها ، « والغيث » هو المطر ويقال : غاث الغيثُ الأرضَ إذا نزل عليها ، وغاث الله البلادَ يغيثها . ويقال الغيث في المطر ، ويقال الغوث في النصرة . وفي القرآن الكريم : « كمثل غيث أعجب الكفار نباته »، سورة الحديد (٢٠) .

ثم قال الحديث : « فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير » : وحرف الفاء في لفظة « فكان » يفيد عطفَ مفصَّل على مجمل ،لأنه سيبين تفاصيل ما كان من شأن الغيث مع هذه الأرض ، و « نقية » : أي طاهرة خصبة طيبة . و « قبلت الماء » أي تقبلته ورضيته ، فكأنها باستعدادها الخاص مالت إليه وأحبته ، لأنه سيصلحها ويُنبت فيها بإذن الله النباتَ الطيب ، ولذلك أنبتت الكلأ والعشب الكثير ، و « الكلأ » : هو النبات والعشب ، سواء أكان هذا النبات رطباً أم يابساً . و « العشب » : هو الرطب من النبات ،

ولذلك قالوا : العشب هو الكلأ ما دام رطباً . فيكون عطف العشب على الكلإ من عطف الخاص على العام .

ثم قال الحديث : « وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله به الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا » .

« والأجادب » : صِلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً ، ولا يتسرب في تجاويفها ، وقيل : هي الأرض التي لا نبات بها . والكلمة مأخوذة من « الجَدْب » وهو القحط . ويقال : أجدبت الأرض ، أي قحطت وغلت فيها الأسعار . وقيل إن « أجادب » جمع أجْدُب — بسكون الجيم وضم الدال— وأجدب هذه جمع جدب ، وذلك كما في كلب وأكْلُب وأكالب ، فكأن « أجادب » جمع الجمع . وقد أريد بالأجادب هنا الأرض التي لا تحفظ الماءَ ، ولا تنبت الزرع ، وذلك بدليل مقابلتها بالأرض النقية التي أنبتت الكــلأ والعشب .

ومعنى « أمسكت الماء »: تعلقت به وحفظته ، وإن كانت لم تنتفع به ، وإنما انتفع به الناس الذي استخدموه لشربهم وسقي دوابهم وإرواء أرضهم لتخرج زروعها .

ثم قال الحديث : « وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ » . والطائفة هي الجماعة من الناس . وفي القرآن الكريم : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة » (التوبة ١٢٢) . و « قيعان » جمع قاع ، وهو المكان المستوي الواسع في وطأة من الأرض ، وقيل القاع والقيع المستوي من الأرض ، والمراد أنها أرض لا تحفظ ماءً لعدم وجود حوافظ للماء فيها ، ولا تُخرج نباتاً لأنها غير خصبة .

* * *

ثم خلص النبي عليه الصلاة والسلام بعد هذا التشبيه البليغ إلى النتيجة التي يريدها ، فقال : « فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعَلِم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » . والفقه في الأصل هو الفهم والفطنة للحق ، يقال فَقِهَ الرجل — بكسر القاف — يفقه فقها ، إذا فهم وعلم . ويقال : فَقُهَ — بضم الكاف — إذا صار فقيهاً عالماً ، وقد غلب استعمال كلمة الفقه في علم الشريعة ، وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس فقال : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » . وفي الحديث المتفق عليه : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » أي يفهمه أمور دينه .

وقيل إن الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم.

وقوله : « لم يرفع بذلك رأساً » : أي لم يأبه للشريعة الغراء ، ولم يلتفت إليها ، ومن عادة الإنسان إذا بدت عنايته بالشيء أن يرفع إليه رأسَه متطلعاً ومتدبراً ومفكراً ، فيكون حرف الباء في لفظة « بذلك » فيه معنى « اللام » أي لم يرفع لذلك رأساً . وقد يكون المعنى : إن من رفض دين الله ، ولم يهتد بهداه يذل ويخزى ، فيظل رأسه مخفوضاً غير مرفوع ، بسبب أنه لم يقبل الشريعة ، ولو قبلها وعمل بها لارتفع رأسه ، وعزّ بين الناس وساد .

ونفهم من الحديث أن الناس أمام دعوة الحق ودين الله تبارك وتعالى أصناف ثلاثة : منهم من استيقظ قلبه ، وتفتح عقله ، واستنارت بصيرته، فأقبل على دين الله يستلهمه ويستهديه، فصار به عليماً، وفي أحكامه فقيها، وعمل بما علم، وعلم غيره ما تعلم هو، فنفع نفسه وغيره ، فكان ذلك خيرَ الأصناف ، وهذا يشبه الأرض النقية الطيبة الطاهرة الخصبة ، التي ينزل عليها الماء ، فيرويها ويحييها ، ويخرج منها مختلف النبات .

ومن الناس من يعي أمورَ هذا الدين وأحكامه ، ولكنه لا يعمل بها ، وإنما

ينقل هذه المعلومات إلى الناس فينتفعون بها ، فهو كالشمعة التي تحرق نفسها لتضيء الطريق لسواها ، كما قال الحديث : « مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه ، كمثل السراج ، يضيء للناس ويحرق نفسه » . وفي روايةأخرى: مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه ، مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها » .

وهذا الصنف الذي يقول ولا يعمل ، أو يعلّم غيره وينسى نفسه ، يشبه الأرضَ الجدبة غير الخصبة ، فهي لا تكاد تنبت ، حتى ولو غمرها الماء ، ولكنها تقبلت الماء فتجمع فيها ، فجاءها الناس وأخذوا هذا الماءَ منها ، فنفعوا به أنفسهم ، حيث شربوا منه وسقوا دوابهم ، وسقوا أرضهم ، فأخرجت لهم مختلف الزروع .

ومن الناس من ماتت قلوبهم ، وتعطلت عقولهم من حلية التفكير والتدبر ، وساءت نفوسهم ، حتى لم ينفعوا ذواتهم ، ولم ينفعوا سواهم ، ولا هم عملوا بالخير ، ولاهم تعلموه ، وهؤلاء يشبهون الأرضَ الخبيثة من كل وجه ، فلا هي تنبت زرعاً ، ولا هي تحفظ للناس ماء .

وفي هذا الحديث كما رأينا تشبيه حالة بحالة ، من قبيل تشبيه التمثيل ، وهو تشبيه مركب بمركب ، لأنه أراد تشبيه حالة الإسلام من جهة أن الناس اختلفوا في مواقفهم منه ، فبعضهم طابت نفسهم وطهرت فتقبلته وعملت به ، وبعضهم كان في نفوسهم نوع من الاستعداد لمعرفة أحكام الشريعة دون أن يعملوا بها ، وبعضهم خبثت نفوسهم فلم يقبلوا الشريعة ، لا قولاً ولا عملاً ، فلم يتعلموها ولم يعملوا بها .

أراد الحديث تشبيه هذه الحالة بحالة المطر الذي يرسله الله تعالى بفضله ورحمته ، فيصادف أرضاً قطعها مختلفة التربة ، فمنها قطع طاهرة خصبة ، تتقبل الماء تقبلاً مثمراً ، وتُخرج به أنواعاً من نبات شتى ، ومنها قطع كلءُ

ما تقدمه أنها تحفظ الماء لغيرها ولا تنبت شيئاً . ومنها قطع خبيثة . لا تنبت شيئاً ، وهي فوق ذلك لا تحفظ لغيرها ماء .

وفي كتاب « التاج الجامع للأصول » تصوير للتشبيه الوارد في هذا الحديث بالعبارة التالية : « الحديث شبه العلم بالمطر . بجامع أن كلا منهما فيه حياة ففي العلم حياة القلوب والأرواح ، وبالمـــاء حياة الأراضي والنفوس وشبه الناس بالأرض ، فبعضها طيب يصيبه المطر ، فيفيض على الناس أنواعَ النبات والزروع ومن كل الثمرات . وبعض الأرض يمسك الماء . فينتفع به العباد شرباً وسقياً . ومن الأرض بقاع لا خير فيها ، فلا تنبت شيئاً ، ولا تمسك ماء ، والناس كذلك ، منهم من تعلم العلم فعمل به ، ونفع العباد . ومنهم من ليس كذلك .

والمراد به حث العلماء على أن يكونوا كالأرض الطيبة ، فينفعوا الناس فيحبهم الله ، فأحب العباد إلى الله أنفعهم لعباده » .

* * *

ونحن نستفيد من هذا الحديث الشريف عدة أمور منها :

أولاً : أن حياة الإنسانية وسعادتها في تعلم هذا الدين والعمل به .

ثانياً : أن أفضل الناس من كان عالماً عاملاً نافعاً لنفسه ولغيره .

ثالثاً : أن شر الناس من لم ينفع نفسَه ولم ينفع غيره .

رابعاً : الدين حق ثابت لا يتغير ، وصراط الله مستقيم لا ينحرف ، وإنما الناس هم الذين يتغيرون .

خامساً : يلزم الناس أن يتواضعوا أمام جلال الدين ، فهو لهم كالسماء التي تفيض عليهم بالخير ، وهم دونه كالأرض التي لا تحيا إلا بفضل هذه السماء .

وهذا الحديث يذكرنا بحديث قريب منه في المغزى ، وهو ما رواه أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى إلى قومه فقال : إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان فالنجاء ، فأطاعته طائفة من قومه فأدلجوا ، فانطلقوا على مهلتهم ، وكذبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني ، وكذب ما جئت به من الحق » .

و « رأيت الجيش » : أي شاهدت الجيشَ المقبل للاعتداء عليكم . « والنذير العريانُ » : هو الذي ينذر قومَه بقدوم العدو ، حتى يستعدوا لمقاومته ، وكانت عادة النذير أن يخلع ثوبه ويشير به إلى قومه وهو عريان ، إشارةً إلى شدة الخطر .

و « النجاء » : أي اطلبوا النجاةَ واسلكوا سبيلها قبل أن يدهمكم عدوكم . « فأدلجوا » بادروا بالسير مبكرين . « على مهلتهم » : بلا فزع ، ولذلك نجوا من عدوهم في الوقت الملائم . « فصبحهم الجيش » : عدا عليهم مبكراً . « اجتاحهم » : استأصلهم وقضى عليهم .

نسأل الله أن نكون ممن استجابوا لله وعملوا بأمره لينالوا رضاه .

* * *

متابعة الرسول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ، ولا يزيغ عنه »

(رواه الطبراني) .

* * *

يقرر هذا الحديث الشريف أن الإيمان لا يتحقق للانسان على وجهه إلا إذا تابع رسول الله عليه الصلاة والسلام في هديه وسنته برضا واختيار ، والإيمان يُطلق غالباً على معنى التصديق ، وقد يُستعمل اسماً للشريعة التي جاء بها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويوصف به كل من دخل في هذه الشريعة مقراً بالله وبنبوة رسوله ، وقد يراد بالإيمان معنى إذعان النفس للحق على سبيل التصديق ، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء هي : تحقيق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بحسب ذلك بالجوارح ؛ ويفسّر الإيمان أيضاً بأنه التصديق الذي معه أمن .

وقد ذكر النبي الإيمان في حديثه فقال عنه : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » .

و « الهوى » يطلق بمعنى الميل إلى الشيء ، سواء أكان طيباً أم خبيثاً ، ومن ذلك ما جاء في حديث بيع الخيار وهو : « يأخذ كل واحد من البيع

ما هوى» أي ما أحب. وقد يطلق الهوى على جنوح النفس إلى ما تشتهيه ، والنفس أمارة بالسوء ، فيكون ميلها حينئذ إلى مـــا يـضـ ها أو يشينها ، ولذلك قال الأصفهاني : إن الهوى هو ميل النفس إلى الشهوة ، لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية ، وفي الآخرة إلى الهاوية ، والهاوية هي النار .

وقد يطلق الهوى على معنى الميل إلى خلاف الحق، ومن ذلك قول الله تعالى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، وقوله : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى». وقد يطلق الهوى على معنى الحب المحمود ، ومن ذلك ما جاء على سبيل الإشارات الصوفية الرامزة إلى معاني المحبة الإلهية في قول بعضهم :

إن هواك الذي بقلبـــــي صيّرني سامعـــاً مطيعـــــا
أخذتَ قلبي وغمضَ عيني سلبتني النومَ والهجوعـــــا
فذَرْ فؤادي ، وخذ رقـــادي فقال : لا ، بل هما جميعـــا

وقوله : « تبَعاً » : أي متابعاً وموافقاً ومطيعاً ، يقال تبع فلان فلاناً إذا قفا أثره ، وإذا فعل ذلك فقد سار وراءه وتتبع خطواته ... « وجئت به » أي ما بلغتُه عن ربي بعد أن جاءني من لدنه .

و « الزيغ » : هو الميل عن الاستقامة ، وفي ذلك معنى الانحراف والجور والعدول عن الحق إلى سواه ، وفي القرآن الكريم : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » ، وفي حديث الدعاء: « لا تزِغْ قلبي » أي لا تمله عن الإيمان، بل اجعله بتوفيقك ثابتاً عليه لا يحيد عنه .

ولقد روي أن أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها سألت النبي فقالت : يا رسول الله ، ما أكثر دعاءك : (يا مقلب القلوب، ثبّت قلبي على

دينك) ؟ . فأجابها صلوات الله وسلامه عليه : « يا أم سلمة ، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله ، فمن شاء أقام ، ومن شاء أزاغ » .

وجاء فيما رواه الترمذي عن هذا الحديث أن شهر بن حوشب سأل أم سلمة فقال : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا كان عندك ؟ . فأجابت : كان أكثر دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . ولما روى هذا الحديثَ أحدُ رجال سنده — واسمه معاذ — تلا عقبه قول الله عز من قائل : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » .

ولقد قرر القرآن الكريم أن متابعة الرسول فرض محتوم على كل مسلم ، لأن طاعة الرسول من طاعة الله ، ولأن محبة الرسول من محبة الله ، ولأن متابعة الرسول باب الإيمان بالله ، ولذلك قال مخاطباً النبي : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . وقال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » . ويروى عن الحسن في سبب نزول هذه الآية أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : « إنا نحب ربنا حباً شديداً » فأراد الله تعالى أن يجعل لحبه علامة وشاهداً ، فأنزل هذه الآية .

وكذلك جعل الله تبارك وتعالى طاعة الرسول مقرونة بطاعته ، فقال سبحانه : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً » .

ومتابعة هوى الإنسان لما جاء به الرسول عند ربه تستلزم محبته ، ومحبة الإنسان للرسول يجب أن تكون مقدَّمة على محبة غيره من الأحياء والأشياء ، لأنه الرسول المصطفى ، والحبيب المجتبى عند الله ، والداعي إلى الخير كله ؛ ولذلك أشار النبي إلى أن الإيمان لا يكمل لصاحبه إلا إذا أحب النبيّ أكثرَ من

أي شيء آخر ، فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وولده ووالديه والناس أجمعين » . ولا غرابة في هذا ، لأن محبة الرسول تأتي بعد محبة الله جل جلاله ، والقرآن نفسه يقرن محبة الرسول بمحبة الله ، فيقول : « قل إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكموأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » . وأكد الرسول هذا حين قال : « ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر ، بعد إذ نجاه الله منه كما يكره أن يُقْذَفَ في النار » .

وهذا الحب يستلزم المتابعةَ والطاعة والاقتداء ، ولو خالف الإنسان نبيه في عمل أو تصرف أو قول نقصت محبته للرسول بقدر ما خالف فيه ، وهذا يذكرنا بقول الشاعر :

تعصي الإلهَ وأنت تزعم حبَّه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعتَه ... إن المحب لمن يحب مطيع

* * *

وهذا الحديث الوجيز البليغ يشير إلى أنه إذا تحكم الهوى وسيطر على الإنسان ضاع الإيمان أو تضاءل ، لأن الهوى — كما يقول ابن الأثير — يغطي الإيمان ، فصاحب الهوى لا يرى إلا هواه ، ولا ينظر إلى إيمانه الذي ينهاه عن ارتكاب الفاحشة ، فكأن الإيمان في تلك الحالة قد انعدم ، ولعل هذا هو السر في إخبار الرسول بأن الإنسان لا يكون مؤمناً حين يفعل كبائر الآثام . وكأن الإيمان يرحل حينذاك عن الإنسان ، فإذا ارتدع ورجع وتاب وتطهر ، عاد الإيمان إليه .

وكأن عبدالله بن عباس قد أراد أن يقرر أن الإنسان إذا استجاب لهواه وأذنب تفلت منه الإيمان ، لأن الإيمان طهارة تتنزه عن الأقذار ، فقال رضي الله عنه : « الإيمان نَزِهٌ ، فإذا أذنب العبدُ فارقَه » .

ولقد حمل القرآن الكريم حملةً صارمة على الهوى المضل وأهله، فقال : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض » ، وقال : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه » . وقال عن الكافرين : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . وحذر القرآن الكريم من اتباع الأهواء ، فقال : « قل لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين » ، وقال : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » .

* * *

وفي قول الحديث : « تبعاً لما جئت به » إشارة دقيقة إلى أن النبي لم يبتدع شيئاً من عنده : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » ، وإنما هو مبلغ رسالة ربه : « يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك » ، « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » . فمتابعة الإنسان للرسول هي في الحقيقة متابعة لله ، لأن الرسول يدعو إلى الله ، ويأمر بما جاءه من عند الله . ولذلك جاءت في كتاب الله الآيات المشيرة إلى ذلك ، مثل قوله تعالى : « ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » ، وقوله : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق » . وقوله : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم » .

فليس في هذه المتابعة معنى التقديس لذات الرسول ، أو معنى ترك طاعة الله إلى طاعته ، بل إن طاعة الرسول مفتاحٌ لطاعة الله ، فالمعبود أولاً وأخيراً

هو الله وحده . ولذلك قال الله لرسوله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

وهذا يذكرنا بما قيل من أن موسى عليه السلام قال لربه : يارب أوصني . فقال له : « أوصيك بي ألا يعرض لك أمر إلا آثرت فيه محبتي على سواها ، فمن لم يفعل ذلك لم أزكّه ولم أرحمه » . .

نسألك اللهم أن ترزقنا دوام الخضوع بجلالك وعزّ العبادة لك ، وأن توفقنا حتى تكون أهواؤنا تبعاً لما جاء به رسولك الكريم من حكمك وهديك ، إنك خير مستعان .

بين العطاس والتثاؤب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ، فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له : رحمك الله ، وأما التثاؤب فإنه من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك الشيطان منه » .

(رواه البخـــاري)

لقد كان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام حريصاً على توجيه المسلم إلى مكارم الأخلاق ومحامد العادات التي تكمله حساً ونفساً ، وتزينه مخبراً ومظهراً . وها هوذا في الحديث الذي معنا يذكر للمسلم الفرق بين العطاس والتثاؤب ، ويبين له ما يفعله إذا تعرض لكل منهما .

والعطاس هو تلك الرعشة العنيفة التي تعرض لأنف الإنسان فتهز كيانه وترعش بنيانه ويحس الإنسان كأنه ينتفض . وقد قالوا إن العطاس يكون من خفة البدن وانفتاح المسام ، وعدم بلوغ الغاية في الشبع ، وهذا يجعل الإنسان خفيفاً نشيطاً مما يستدعي العبادة ، ولذلك قال الحديث : « إن الله يحب العطاس » .

وأما التثاؤب فقالوا إنه انفتاح الفم بريح يخرج من المعـــدة لغرض من الأغراض يحدث فيها فيوجب ذلك . ويقال : تثاءب الإنسان إذا أصابه كسل

وتوخيم،أو أصابته فترة كفترة النعاس بسبب غشيان يغشى عليه،من أكل شيء أو شرب شيء . وقيل : هو ما يصيب الإنسان عند الكسل والنعاس والهم من فتح الفم والتمطي . هكذا جاء في « تاج العروس » .

ويكون التثاؤب من علة امتلاء البطن وثقله مما يكون ناشئاً عن كثرة الأكل والتخليط فيه ، وهذا يستدعي الكسل عن العبادة ، ولذلك ذكر الحديث أن الله تعالى « يكره التثاؤب » .

ولقد جاء في حديثٍ رواه مسلم : « إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه وإن لم يحمد الله فلا تشمّتوه » . والتشميت مأخوذ في الأصل من الشماتة ، وهي الفرح ببلية العدو . والتشميت هو الدعاء للعاطس بأن لا يكون في حالة يشمت به فيها عدوه ، وكل دعاء بخير وبركة فهو تشميت، وكأن المشمت يقول للعاطس : أبعدك الله عن الشماتة من الأعداء . والتشميت في لغة الدين هو أن يقول الإنسان للعاطس : يرحمك الله .

وجاء في الحديث : « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله. وليقل له أخوه أو صاحبه : يرحمك الله ، فإذا قال له : يرحمك الله ، فليقل : يهديكم ويصلح بالكم » .

وقيل إنه يرد عليه قائلاً : يرحمنا الله وإياكم . أو يقول : عافانا الله وإياكم من النار . أو يقول : يرحمنا الله وإياكم ، ويغفر الله لنا ولكم . أو يقول : يغفر الله لنا ولكم . والحمد للعطاس واجب شرعاً . لثبوت الأمر الصريح به ولكن النووي نقل الاتفاق على استحبابه . ويكفي قول العاطس : الحمد لله ، وقيل : يقول الحمد لله على كل حال . أو : الحمد لله رب العالمين . أو : الحمد لله رب العالمين على كل حال . أو : الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً مباركاً فيه ، مباركاً عليه ، كما يحب ربنا ويرضى . وأي عبارة من هذه العبارات تجزىء .

الذي حمد الله تعالى عقب العطاس هو الذي يستحق التشميت ، كما نفهم ذلك من السنة المطهرة ، فقد عطس رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فشمّت النبي أحدهما ولم يشمّت الآخر ،فقيل له ، فقال : « هذا حمد الله ، وهذا لم يحمد الله » وفي رواية أخرى أنه عطس رجلان عند النبي فشمت النبي أحدهما ولم يشمت الآخر ،فقال الرجل : يا رسول الله ، شمّت هذا ولم تشمتني .قال : « إن هذا حمد الله ،ولم تحمد الله » . والرسول يقول عن العاطس : « إذا عطس فحمد الله فشمّته » فعلق التشميت على الحمد .

وللعاطس آداب ينبغي أن يراعيها . منها أن يخفض بالعطس صوته ، وأن يرفع صوته بقوله : الحمد لله ، وأن يغطي وجهه لئلا يبدو من فمه أو أنفه ما يؤذي جليسه ، ولا يلوي عنقه يميناً أو شمالاً ، لئلا يتضرر بذلك . وقد روي أن النبي صلوات الله وسلامه عليه كان إذا عطس وضع يده على فمه وخفض صوته .

وجاء في الحديث الذي معنا قوله : « وأما التثاؤب فإنه من الشيطان » أي أن الشيطان يحب أن يرى الإنسان متثائباً لأنها حالة تتغير فيها صورته فيضحك منه، وكل فعل مكروه ينسبه الشرع إلى الشيطان ، لأنه واسطته ، كما أن كل فعل حسن ينسبه الشرع إلى المَلَك لأنه واسطته. والتثاؤب يتأتى من الامتلاء، وينشأ عنه التكاسل ، وذلك بواسطة الشيطان ، والعطاس يأتي من تقليل الغذاء ، وينشأ عنه النشاط ، وذلك بواسطة المَلَك .

وقال النووي : أُضيف التثاؤب إلى الشيطان لأنه يدعو إلى الشهوات ، أو يكون عن ثقل البدن واسترخائه وامتلائه ، والمراد التحذير من السبب الذي يتولد منه ذلك ، وهو التوسع في المأكل .

وفي « تاج العروس » أنه قيل : إنما جعله من الشيطان كراهيةً له ، وإنما يكون من ثقل البدن وميله إلى الكسل والنوم ، فأضافه إلى الشيطان ، لأنه الذي

يدعو إلى إعطاء النفس شهواتها ، وأراد به التحذير من السبب الذي يتولد منه . وهو التوسع في المطعم والشبع فيثقل عن الطاعات ، ويكسل عن الخيرات .

ولأن الله تبارك وتعالى يكره التثاوب الناشيء عن كثرة الأكل والاستجابة للشهوات قال الحديث : « فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع » أي فليحاول عدم الاستجابة للتثاؤب ، بأن يكبح جماحه قدر استطاعته ، وذلك بأن يضع يده على فمه ، ولذلك جاء في رواية أخرى : « فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع » . وجاء في بعض الروايات تقبيح واضح لصورة المتثائب حتى ينفر الإنسان منها وينأى عنها . وهي : « إذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه ، ولا يعوي فإن الشيطان يضحك منه » .

وجاء في شرح ذلك : شبه التثاؤب الذي يسترسل معه صاحبه بعواء الكلب تنفيراً منه واستقباحاً له ، فإن الكلب يرفع رأسه ، ويفتح فاه ويعوي . والمتثائب إذا أفرط في التثاؤب شابه الكلب في هذه الصورة ، ومن هنا تظهر النكتة في كون الشيطان يضحك منه ، لأنه صيّره ملعبة له بتشويه خَلْقه في تلك الحالة .

وهناك عاطسون لا يشمّتون ، منهم العاطس الذي لم يحمد الله ، والكافر ، والمزكوم إذا تكرر منه العطاس أكثر من ثلاث مرات .

هذا ولقد أخرج ابن عبد البر بسند جيد عن أبي داود صاحب السنن أنه كان في سفينة ، فسمع عاطساً على الشط حمد الله، فاكترى قارباً بدرهم حتى جاء العاطس فشمته ثم رجع ، فسئل عن ذلك فقال : لعله يكون مجاب الدعوة . فلما رقدوا سمعوا قائلاً يقول : يا أهل السفينة ، إن أبا داود اشترى الجنة من الله بدرهم . والله أعلم بحقيقة الأمر .

زهرة الدنيا

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

إن النبي صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المنبر . وجلسنا حوله ، فقال : « إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . فقال رجل : يا رسول الله ، أو يأتي الخير بالشر ؟ . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : ما شأنك تكلم النبي صلى الله عليه وسلم ولا يكلمك ؟ .

فرأينا أنه ينزل عليه . قال : فمسح عنه الرحَضاء ، فقال : أين السائل ؟ — وكأنه حمده — فقال : إنه لا يأتي الخير بالشر ، وإن مما يُنبت الربيع يقتل أو يُلم ، إلا آكلة الخضراء ، أكلتْ حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلتْ عينَ الشمس ، فثلطت وبالت ورتعت . وإن هذا المال خضرة حلوة ، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكينَ واليتيم وابن السبيل ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ، ويكون شهيداً عليه يوم القيامة » .

(رواه البخاري)

يضرب علماء البلاغة هذا الحديث الشريف مثلاً من أمثلة البلاغة المفردة التي يقتدي بها المقتدون ، ولذلك نرى ابن دريد يعد قول النبي صلى الله عليه

وسلم هنا : « إن مما ينبت يقتل حَبَطاً أو يلم » من الكلام المفرد الوجيز ، الذي لم يسبق فيه أحدٌ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وكل من وقع شيء منه في كلامه فإنما أخذه منه.

وأول ما قاله الرسول هنا هو : « إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » وفي رواية أخرى للحديث: « إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض » ثم ذكر « زهرة الدنيا » فبدأ بإحداهما ، وثنى بالأخرى .

وزهرة الدنيا : بهجتها ونضارتها وحسنها ، والكلمة مأخوذة من زهرة الشجرة وهو نَوْرها – بفتح فسكون – والمراد هو ما فيها من أنواع المتاع والثياب والزروع وغيرها مما يفتخر الناس بحسنه مع قلة بقائه وسرعة فنائه، وقد يراد بزهرة الدنيا المال ، لأن المال وسيلة البهجة والجمال والاستمتاع .

وقد جاءت اللفظة في قوله تعالى في سورة طه : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » .

ومن اليسير أن نفهم أن النص النبوي يحذرنا زهرة الدنيا، فينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر سوء عاقبتها، وشر فتنتها، فلا يطمئن إلى زخرفها ، ولا ينافس غيره فيها . ولذلك جاء في حديث آخر رواه البخاري أيضاً : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم » .

قال الرسول عبارته فتوجه إليه بالسؤال أحد السامعين فقال : « يا رسول الله ، أو يأتي الخير بالشر » ؟ . وإنما قال ذلك لأن زهرة الدنيا نعمة من الله ، فهل تعود هذه النعمة نقمة ؟ . والاستفهام هنا للاسترشاد لا للإنكار . وتقدير السؤال هو : هل يستجلب الخير الشر ؟ .

وهنا سكت النبي صلوات الله وسلامه عليه . وظن الحاضرون أن سكوته قد يكون عدم رضى بالسؤال ، فاتجهوا إلى الرجل السائل يقولون له : ما شأنك تكلم النبي صلى الله عليه وسلم ولا يكلمك ، أي ولا يبادر بإجابتك والرد عليك . وكأنهم لاموه في أول الأمر ، لأنهم ظنوا أن السؤال قد أغضب النبي ، ولكن الرسول قد سكت في الحقيقة انتظاراً لوحي الله الذي يوجهه ويرشده ، ولذلك شاهد الصحابة النبي وهو تدركه حالة الوحي التي عرفوها من قبل .

وبعد قليل انتهت هذه الحالة حين رأوه يمسح عن وجهه « الرُّحَضَاء » — بضم ففتح — وهي العرق . أو العرق الكثير ، وأصل الرَّحْض — بفتح فسكون — هو الغَسْل ، والرحيض : الثوب المغسول . فالعرق الكثير يرحض الجلد ، أي يغسله لكثرته .

وتحدث الرسول فقال : « أين السائل » ؟ . وكأنه حمده ، أي أثنى عليه لسؤاله ، ولذلك حمد الصحابة سؤاله بعد ذلك ، لأنهم ازدادوا به فائدة ، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في الجواب :

« إنه لا يأتي الخير بالشر » . وفي رواية : « لا يأتي الخير إلا بالخير » . ونفهم من هذا — كما ذكر ابن حجر — أن الرزق ولو كثر فهو من جملة الخير ، وإنما يعرض له الشر بعارض البخل به عمن يستحقه ، أو الإسراف في إنفاقه فيما لم يشرعه الله تعالى ، وكل شيء قضى الله أن يكون خيراً لا يكون شراً ، وبالعكس ، ولكن يخشى على من رزقه الله الخير أن يعرض له في تصرفه فيه ما يجلب الشر .

« وإن مما ينبت الربيع يقتل أو يُلم » : المراد بالربيع هنا هو الماء الذي جعله الله سبب الإنبات . وفي رواية : « يقتل حَبَطاً » . والحبط — بفتحتين — انتفاخ البطن من كثرة الأكل . يقال : حبطت الدابة تحبط حبطاً ، إذا أصابت

مرعى طيباً ، فأمعنت في الأكل منه حتّى تنتفخ فتموت . ومادة الحبط تدل على الفساد .

وقد وردت المادة عدة مرات في القرآن الكريم ، ففي سورة البقرة : «ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وفي سورة المائدة : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين » .

وفي سورة الأعراف : « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » . وفي الحديث: « لا تحبطوا أعمالكم بالرياء».

و « يُلم » : — بضم فكسر فتشديد — أي يقرب من القتل والهلاك .

فهذا هو نبات الربيع ، وهو طيب جميل في حد ذاته . ولكن الإسراف فيه أو سوء الاستعمال له قد يؤدي إلى الهلاك ، أو إلى ما يقرب من الهلاك .

وإسناد الإنبات إلى « الربيع » اسناد مجازي عقلي ، من قبيل الإسناد إلى السبب ، والأصل في ذلك هو : ينبت الله بسبب الربيع .

« إلا آكلة الخضراء ، أكلت حتّى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت » : الخضراء : نوع من الكلإ يعجب الماشية ، ويكثر في الربيع . و « خاصرتاها » مثنى خاصرة ، وهي جانب البطن من الحيوان . و « ثلطت » : أي ألقت ما في بطنها رقيقاً . يقال : ثلط البعير يثلط— بوزن يضرب — إذا ألقى رجيعه سهلاً رقيقاً . أي أنها إذا شبعت، وثقل عليها ما أكلت تحيلت في دفعه ، بأن تجتره ، أي تستعيد ما في بطنها من العلف لتعيد مضغه ، ثم تستقبل عين الشمس ، فتحمى بها فيسهل خروجه ، فإذا خرج زال الانتفاخ فسلمت ، وهذا بخلاف من لم تفعل ذلك ، فإن الانتفاخ يقتلها سريعاً ، أو يدنو بها من الهلاك .

ولذلك يقول ابن حجر عن الحديث : « وفيه مثلان : أحدهما للمفرط في جمع الدنيا ، المانع من إخراجها في وجهها ، وهو مـا تقدم ، أي الذي يقتل حبطـاً ؛ والثاني المقتصد في جمعها وفي الانتفاع بها ؛ وهو آكلة الخضر ، فإن الخضر ليس من أحرار البقول التي ينبتها الربيع ، ولكنها الحبة ، والحبة ما فوق البقل ودون الشجر التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول ، فضرب آكلة الخضر من المواشي مثلاً لمن يقتصد في أخذ الدنيا وجمعها ، ولا يحمله الحرص على أخذها بغير حقها ، ولا منعها من مستحقها ، فهو ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ، وأكثر ما تحبط الماشية إذا انحبس رجيعها في بطنها .

وقال الزين بن المنير : آكلة الخضر هي بهيمة الأنعام التي ألف المخاطبون أحوالها في سومها ورعيها وما يعرض لها من البشم وغيره ، والخضر : النبات الأخضر ، وقيل حرار العشب الذي تستلذ الماشية أكله فتستكثر منه . وقيل هو ما ينبت بعد إدراك العشب وهياجه ؛ فإن الماشية تقطف منه شيئاً فشيئاً ، ولا يصيبها منه ألم » .

وجاء في النهاية لابن الاثير : « ضرب في هذا الحديث مثلين : أحدهما للمفرط في جمع الدنيا والمنع من حقها ، والآخر للمقتصد في أخذها والنفع بها . فقوله : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم » ، فإنه مثل للمفرط الذي يأخذ الدنيا بغير حقها ، وذلك أن الربيع ينبت أحرار البقول فتستكثر الماشية منه لاستطابتها إياه ، حتى تنتفخ بطونها عند مجاوزتها حد الاحتمال ، فتنشق أمعاؤها من ذلك فتهلك أو تقارب الهلاك .

وكذلك الذي يجمع الدنيا من غير حلها ، ويمنعها مستحقيها قد تعرض للهلاك في الآخرة بدخول النار ، وفي الدنيا بأذى الناس له وحسدهم إياه ، وغير ذلك من أنواع الأذى .

وأما قوله : « إلا آكلة الخضر » فإنه مثل للمقتصد ، وذلك أن الخضر

ليس من أحرار البقول وجيدها التي ينبتها الربيع بتوالي أمطاره فتحسن وتنعم، ولكنه من البقول التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول ويبسها حيث لا تجد سواهـــا ، وتسميها العرب « الجَنَبة » ، فلا ترى الماشية تكثر من أكلها ولا تستمرئها ، فضرب آكلة الخضر من المواشي مثلاً لمن يقتصد في أخذ الدنيا وجمعها ، ولا يحمله الحرص على أخذها بغير حقها ، فهو بنجوة من وبالها ، كما نجت آكلة الخضر ، ألا تراه قال : « أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت » أراد أنها إذا شبعت منها بركت مستقبلة عين الشمس ، تستمرىء بذلك ما أكلت ، وتجتر وتثلط ، فإذا ثَلَطت فقد زال عنها الحبط ، وإنما تحبط الماشية لأنها تمتلىء بطونها ولا تثلط ولا تبول ، فتنتفخ أجوافها ، فيعرض لها المرض فتهلك » .

* * *

ثم قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « وإن هذا المال خضرة حلوة » : أي إن صورة الدنيا حسنة موفقة ، والعرب تسمي كل شيء مشرق ناضر : أخضر ، وهذا التعبير فيه معنى التشبيه . كأنه قال : المال كالبقلة الخضراء الحلوة . ولا شك أن المال جذاب خلاب .

وقيل إن التاء في « خضرة حلوة » للمبالغة ، أو باعتبار ما يشتمل عليه المال من زهرة الدنيا ، أو على معنى فائدة المال ، أي أن الحياة به أو المعيشة . أو أن المراد بالمال هنا هو الدنيا ، لأنه من زينتها ، والقرآن الكريم يقول : «المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

ثم قال الحديث : « فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل » فالمال خير صاحب للمسلم إذا كان مصدره حلالاً طيباً ، وإذا كان صاحبه ينفق منه على مستحقيه كالمسكين واليتيم وابن السبيل . وهم ثلاثة مصارف من مصارف الصدقة المفروضة والمندوبة .

ثم قال : « وإن من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون شهيداً عليه يوم القيامة » : ومن الواضح أن النهم في جمع المال لا يقف عند حد فهو كالعطشان الذي يشرب ماء ملحاً ، كلما شرب منه اشتد به الظمأ ، واشتدت به الرغبة في الازدياد بلا قناعة ، والقرآن الكريم يقول عن المال : « وتحبون المال حباً جماً » ويقول عن الإنسان والمال : « وإنه لحب الخير شديد » . والخير هنا هو المال .

« ويكون شهيداً عليه » أي شاهداً عليه ، والشهادة هنا إما أن تكون مجازية أو يراد بها شهادة الملك الموكل به ، ويحتمل أن يشهد المال عليه حقيقة ، بأن ينطقه الله تعالى ، والله على كل شيء قدير .

وقال بعض العلماء : في هذا الحديث وجوه من التشبيهات بديعة :

أولها : تشبيه المال ونموه بالنبات وظهوره .

ثانيها : تشبيه المنهمك في الاكتساب والأسباب بالبهائم المنهمكة في أكل الأعشاب .

ثالثها : تشبيه الاستكثار منه والادخار له بالشره في الأكل والامتلاء منه .

رابعها : تشبيه الخارج من المال مع عظمته في النفوس ، حتى أدى إلى المبالغة في البخل به ، بما تطرحه البهيمة من السلح ، ففيه إشارة بديعة إلى استقذاره شرعاً .

خامسها : تشبيه المتقاعد عن جمعه وضمه بالشاة إذا تراحت وحطت جانبها مستقبلة عين الشمس ، فإنها من أحسن حالاتها سكوناً وسكينة ، وفيه إشارة إلى إدراكها لمصالحها .

سادسها : تشبيه موت الجامع المانع بموت البهيمة الغافلة عن دفع ما يضرها .

سابعها : تشبيه المال بالصاحب الذي لا يؤمن أن ينقلب عدوا ، فإن المال من شأنه أن يحرز ويشد وثاقه حباً له ، وذلك يقتضي منعه من مستحقه ، فيكون سبباً لعقاب مقتنيه .

ثامنها : تشبيه آخذه بغير حق بالذي يأكل ولا يشبع .

ولله در الغزالي حين قال : مثل المال مثل الحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع ، فإن أصابها العارف الذي يحترز عن شرها ، ويعرف استخراج ترياقها ، كان نعمة ، وإن أصابها الغبي فقد لقي البلاء المهلك .

وجاء في « فتح الباري » : يؤخذ من الحديث التمثيل لثلاثة أصناف : لأن الماشية إذا رعت الخضر للتغذية إما أن تقتصر منه على الكفاية ، وإما أن تستكثر : الأول الزهاد . والثاني إما أن يحتال على إخراج ما لو بقي لضرّ ، فإذا أخرجه زال الضر واستمر النفع ، وإما أن يهمل ذلك : الأول العاملون في جميع الدنيا بما يجب من إمساك وبذل ، والثاني العاملون في ذلك بخلاف ذلك .

* * *

وقال الطيبي : يؤخذ من الحديث أربعة أصناف : فمن أكل منه أكل مستلذ مفرط منهمك ، حتى تنتفخ أضلاعه ، ولا يقلع ، فإنه يسرع إليه الهلاك ، ومن أكل كذلك . لكنه أخذ في الاحتيال لدفع الداء بعد أن استحكم ، فغلبه فأهلكه ، ومن أكل كذلك لكنه بادر إلى إزالة ما يضره ، وتحيل في دفعه حتى انهضم فيسلم ، ومن أكل غير مفرط ولا منهمك ، وإنما اقتصر على ما يسد جوعته ويمسك رمقه .

فالأول مثال الكافر ، والثاني مثال العاصي الغافل عن الإقلاع والتوبة إلا بعد فوتها ، والثالث مثال المخلّط المبادر للتوبة حيث تكون مقبولة ، والرابع مثال الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة .

وبعضها لم يصرح به في الحديث ، ولكن أخذه منه محتمل . .

* * *

والحديث يفيدنا الأمور التالية :

١ — حرص الصحابة على المعرفة وطلب العلم .

٢ — فرح الصحابة بالجديد المستفاد من المعلومات .

٣ — التحذير من التنافس على متاع الحياة الزائل .

٤ — توقف الرسول عن الإجابة فيما لا يعلم حتّى ينزل عليه الوحي .

٥ — التوجيه إلى عدم العجلة في الإجابة قبل التثبت .

٦ — الحث على معاونة المسكين واليتيم وابن السبيل .

٧ — الإرشاد إلى أن من اكتسب المال من غير حله لا يبارك الله له فيه .

٨ — ذم الإسراف ، وذم كثرة الأكل .

٩ — الإشارة إلى أن اكتساب المال الحرام سبب للهلاك والمحق .

* * *

وهناك رواية أخرى للحديث رواها البخاري أيضاً في « كتاب الرقاق » من صحيحه ، وهي : « إن أكثر ما أخاف عليكم ، ما يخرج الله لكم من بركات الأرض . قيل : وما بركات الأرض ؟ . قال : زهرة الدنيا ، فقال له رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟ . فصمت النبي صلى الله عليه وسلم ، حتّى ظننت أنه يُنْزَل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه ، فقال : أين السائل ؟ . قال : أنا . قال : لا يأتي الخير إلا بالخير ، إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم ، إلا آكلة الخضرة ، أكلت حتّى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترّت . وثلطت وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال خضرة حلوة ، من أخذه بحقه ، ووضعه في حقه ، فنعم المعونة هو ، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع » .

صلاة وسلاماً على من أوتي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصاراً .

استغلال السلطة

عن أبي حميد الساعدي قال : استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني أسْد ، يقال له ابن الأتبية ، فلما قدم قال : هذا لكم ، وهذا أُهدي لي . فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول : هذا لكم وهذا لي ؟. فهلاّ جلس في بيت أبيه وأمه ، فينظر أيهدى له أم لا ؟ . والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن كان بعيراً له رُغاء ، أو بقرة لها خُوار ، أو شاة تيعر .

ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه، وقال: ألا هل بلّغت (ثلاثاً) .

(رواه البخاري ومسلم)

يريد الرسول عليه الصلاة والسلام من هذا الحديث ألاّ يسيء الإنسان استغلال سلطته أو نفوذه للاستفادة أو الانتفاع ، وألاّ يستبيح لنفسه الحصول على مال فيه شبهة ، أو هدية فيها ريبة ، أو منفعة يرائيه بها أحد من الناس .

ولذلك يروي لنا راوي الحديث وهو أبو حميد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم اختار لجمع الزكاة شخصاً اسمه عبدالله ، من قبيلة بني أسْد —

بفتح فسكون — يقال له ابن الأتبية — بفتح الهمزة فسكون فكسر — أو ابن اللتبية — بضم اللام فسكون فكسر — واللتبية اسم امه ، فذهب هذا الرجل ، وجمع من الزكاة ما جمع ، وسمحت له نفسه أن يتقبل من الناس هدايا غير الواجب عليهم شرعاً في الزكاة ، ثم عاد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، وقال عن جانب من المال : هذا لكم ، أي هذا ما جمعته باسم الزكاة ، ثم قال عن جانب آخر من المال الذي جاء به : وهـــذا جاءني هدية ، فهو لي وليس لكم .

وهنا قام الرسول مغضباً وصعد المنبر ، وبدأ حديثه بالحمد لله والثناء عليه ، ثم قال : « ما بال العامل نبعثه فيقول : هذا لكم وهذا لي ؟ فهلا جلس في بيت أبيه وأمه ، فينظرُ أيهدى له أم لا » ؟ .

والعامل هو الذي يتولى أمور الرجل في ماله وملكه وعمله ، ومنه قيل للذي يستخرج الزكاة عامل ، والمقابل الذي يأخذه العامل من الأجرة يقال له عُمَالَة — بضم ففتح — وقد جاء في القرآن الكريم في آية مصارف الزكاة : « والعاملين عليها » .

وكأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يتعجب من هذا الرجل العامل ، الذي يأخذ أجراً على عمله كيف يستبيح لنفسه أن يتقبل الهدايا من الناس ثم يزعم أنه تملكها ، وأنه أحق الناس بها ، مع أن الهدية هنا تكون مظنة لأن الناس قدموها إليه رياء أو مجاملة أو مراعاة لأنه القائم على أخذ الزكاة ، فتكون هناك شبهة في الموقف ، لأن العامل يبدو في هيئة من يحتال ليأخذ شيئاً من أموال الناس في صورة هدية ، وليس هناك مسوغ واضح للإهداء في هذا المقام .

ولذلك يذكر ابن حجر ان وجه الاحتيال يأتي « من جهة أن تملكه ما أهدي إليه إنما كان لعلة كونه عاملاً » ، فاعتقد أن الذي أهدي إليه يستبد به دون أصحاب الحقوق التي عمل فيها . فبيّن له النبي صلى الله عليه وسلم أن

الحقوق التي عمل لأجلها هي السبب في الإهداء له ؛ وأنه لو أقام في منزله لم يُهْدَ له شيء ، فلا ينبغي أن يستحلها بمجرد كونها وصلت إليه على طريق الهدية ، فإن ذاك إنما يكون حيث يتمحض الحق له » .

ثم قال عليه الصلاة والسلام منذراً ومهدداً : « والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن كان بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خُوار ، أوشاة تيعر » .

« والذي نفسي بيده » : هذا قسم من الرسول بربه الذي يملك أمره، وقد كان من عادة الرسول أن يقسم فيقول : « والذي نفسي بيده » أو يقول : « والذي نفس محمد بيده » . وقد تكرر هذا القسم كثيراً في الحديث . روى الطبراني : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حلف قال : والذي نفسي بيده » . وروى ابن أبي شيبة : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد في اليمين قال : لا والذي نفس أبي القاسم بيده » .

« لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة » أي لا ينال أحدكم منه شيئاً على هذه الصورة التي فعلها العامل ، إلا جاء به ليحاسب عليه عند ربه . وهذا كناية عن الحساب المؤدي إلى العقاب .

« إن كان بعيراً له رغاء » : الرغاء — بضم الراء — صوت الإبل . يقال : رغا يرغو رغاء . أي إذا كان الشيء الذي أخذه وخان فيه بعيراً له رغاء .

« أو بقرة لها خُوار » : الخُوار — بضم الخاء — صوت البقر ، وفي حديث مقتل أبي بن خلف : « فخرّ يخور كما يخور الثور » . والخوار لفظة قرآنية جاءت في قوله تعالى في سورة طه : « فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار » أي صوت كصوت البقر . وفي رواية جاءت كلمة : « جؤار » بالجيم والهمزة بدل كلمة : « خوار » ، وجؤار لفظة قرآنية أيضاً جاءت في قوله تعالى في

سورة النحل: « وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » أي تصيحون بالاستغاثة والتضرع . وفي قوله في سورة المؤمنون : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون».

« أوشاة تيعر » : — بفتح فسكون ففتح — فعل مضارع بمعنى : يكون لها صوت شديد . لأن اليُعار — بضم الياء — الصياح وصوت الشاة الشديد، وأكثر ما يقال لصوت المعز .

« ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرتي إبطيه ، وقال : ألا هل بلّغت؟ . ثلاثاً » . ورفع اليدين كناية عن العناية والاهتمام . واتجاهه إلى الله تعالى لإشهاده على أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة . والعُفْرة — بضم فسكون — بياض ليس بالناصع ، أي رأوا ما تحت إبطيه ولونه أبيض غير ناصع .

« ألا هل بلغت ؟ ثلاثاً » أي أعادها ثلاث مرات للتأكيد . وفي رواية قال : « اللهم هل بلغت » . أي بلغت حكم الله إليكم وهديه لكم ، وذلك امتثال لقوله تعالى: «يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك » . وإشارة إلى ما يقع يوم القيامة من سؤال الله الأمم : هل بلغهم رسلهم ما أرسلهم الله بـــه إليهم .

ولقد جاء في سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « هدايا العمال غلول » أي خيانة ، وأصل معنى الغلول الخيانة في الغنيمة ، ثم استعمل في كل خيانة. ويقول معاذ بن جبل رضي الله عنه : « بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تصيبن شيئاً بغير إذني فإنه غلول ». ولذلك ذكر العلماء أن حكم الهدية إلى الوالي أنها تؤخذ وتجعل في بيت المال، ولا يختص العامل منها إلا بما أذن له فيه الإمام . وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم أوجب أخذ الهدية من العامل وضمها إلى أموال المسلمين .

ولله درخامس الراشدين عمر بن عبد العزيز حين قال : « كانت الهدية في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية ، واليوم هي رشوة » . والرشوة هي كل مال يدفع ليبتاع به الإنسان من ذي جاه عوناً على ما لا يحل له . وقال العلماء أيضاً : يجوز قبول الهدية ممن كان يهاديه قبل ذلك إذا لم يزد على العادة .

* * *

هذا وهناك رواية ثانية للحديث عن الزهري قال : أخبرني عروة عن أبي حُميد الساعدي أنه أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل عاملاً ، فجاءه العامل حين فرغ من عمله فقال : يا رسول الله ، هذا لكم ، وهذا أهدي لي . فقال له : أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك، فنظرت أيهدى إليك أم لا ؟ .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيةً بعد الصلاة ، فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أمـــا بعد ، فما بال العامل نستعمله ، فيأتينا فيقول : هذا من عملكم ، وهذا أهدي لي ، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر هل يهدى أم لا ، فو الذي نفس محمد بيده ، لا يغل أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، إن كان بعيراً جاء به له رُغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خُوار ، وإن كانت شاة جاء بها تيعر ، فقد بلّغت . فقال أبو حميد : ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده حتى إنا لننظر إلى عفرة إبطيه .

وهناك رواية ثالثة تقول : عن هشام عن أبيه عن أبي حميد الساعدي قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً على صدقات بني سُليم يدعى ابن اللتبية ، فلما جاء وحاسبه قال : هذا مالكم ، وهذا هدية . فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً ؟ .

ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله ، فيأتي فيقول : هذا ما لكم وهذه هدية أهديت لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته ؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة ، فلأعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ؛ ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطه يقول : اللهم هل بلغت ؟ بصُرعيني وسمع أذني » .

وهكذا يعلم رسول الله ابناءَ الإسلام كيف يعيشون شرفاء نبلاء ، يترفعون عن الدنايا ، ويتنزهون عن الحرام ويتجنبون الشبهات ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم .

فضل قراءة القرآن

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة : ريحها طيب وطعمها طيب ؛ ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة :لا ريح لها وطعمها حلو ؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة : ريحها طيب وطعمها مر ؛ ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » .

(رواه البخاري)

يريد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يبين لنا في هذا الحديث فضل قراءة القرآن الكريم ، وتفاوت حظوظ الناس في هذه القراءة ، فمنهم من يقرأ عن يقين وتأثر وخشوع ، ويحرص على هذه القراءة المنبثقة من قلب عامر بالإيمان ، ولسان رطب بذكر الله ، وحس متأثر خائف من هيبة الله . ومنهم من يغفل عن القرآن ويهمل في قراءته ، مع أنه من أبناء الإسلام ، ففي داخله إيمان ، ولكن أصابه تفريط .

ومن الناس منافق فاجر مخادع ، ينطق بكلمات القرآن مرائياً بها أو مخادعاً ، ولكنه يطوي صدره على الجحود والإجرام ، ومنهم منافق سيئ المنظر

سيئ المخبر ، في صدره النفاق وهو في الوقت نفسه بعيد عن روضة القرآن المجيد ، إن الصنف الأول من الأصناف الأربعة التي ذكرها الحديث الشريف صنف شريف كريم فاضل ، يعبر عنه النبي بقوله : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة : ريحها طيب وطعمها طيب » . والأترجة — بضم فسكون فضم ، فجيم مشددة — نوع من الفاكهة . والريح هي الرائحة ، والريح الطيبة هي الحسنة التي ترتاح النفس إليها ، وطعمها : أي مذاقها ، أو هو ما يؤديه ذوق الشيء من حلاوة ومرارة وغيرهما .

والرسول عليه الصلاة والسلام لا يريد هنا مطلق التلاوة ، وإنما يريد تلاوة من يؤمن بالقرآن . ويستجيب له ، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهي . وإلا فكم من تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه ، لأنه يقرأ دون أن يتأثر به أو يستجيب له ، أو ينزل على حكمه وتوجيهه . ولذلك جاء في بعض الروايات : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به » . وهي زيادة مفسرة للمراد .

وقد يقال : لماذا اختار الأترجة مثلاً لهذا الصنف ؟ . ولماذا قال : « طعمها طيب وريحها طيب » ؟ .

ويتكفل كتاب « فتح الباري » بالإجابة حيث ترد فيه هذه العبارة : خص صفة الإيمان بالطعم وصفة التلاوة بالريح ، لأن الإيمان ألزم للمؤمن من قراءة القرآن ، إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة ، وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح ، فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه .

ثم قيل : الحكمة في تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة لأنه يتداوى بقشرها ، وهو مفرح بالخاصية ، ويستخرج من حبها دهن له منافع ، وقيل إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج ، فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين ، وغلاف حبه أبيض ، فيناسب قلب المؤمن ، وفيها أيضاً من المزايا :

كبر جرمها ، وحسن منظرها ، وتفريح لونها ، ولين ملمسها . وفي أكلها — مع الالتذاذ — طيب نكهة ، ودباغ معدة ، وجودة هضم ، ولها منافع أخرى ».

ثم قال الحديث عن الصنف الثاني : « ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة : لا ريح لها وطعمها حلو » . والحلو هو الشيء الذي يستحسنه طاعمه أو شاربه ، وهذا الصنف أقل قدراً ومكانة من سابقه ، لأن المؤمن الذي لا يقرأ القرآن ، تحققت له فضيلة من جهة ، هي فضيلة الإيمان المتعلقة بالقلب والداخل ، ونقص فضيلة من جهة ، وهي فضيلة قراءة القرآن التي تظهر على اللسان ، ولذلك خلا داخله ، وعدم ظاهره تلك الرائحة الطيبة التي تحققت للمؤمن قارىء القرآن .

ثم قال الحديث عن الصنف الثالث : « ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة : ريحها طيب وطعمها مر » . وفي رواية : « مثل الفاجر ... » والنفاق والفجور وصفان يتقاربان . والريحانة نبات طيب الرائحة مر المذاق ، فلما انطلقت كلمات القرآن من فم المنافق كان لهذه الكلمات — في حد ذاتها — رائحة طيبة لأنها كلمات القرآن خير الكلام وأزكاه ، ، ولكن الناطق بهذه الكلمات في معدنه وجوهره خبيث مر ، لنفاقه وفجوره . والمر ما لا تقبله النفس من مطعوم أو مشروب ، والمر أيضاً دواء كالصبر — بكسر الباء — سمي به لمرارته .

وقد قال العلماء : قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله ، ولا تزكو عنده ، وإنما يزكو عنده ما أريد به وجهه ، وكان عن نية التقرب إليه ؛ وشبهه بالريحانة حيث لم ينتفع ببركة القرآن ، ولم يفز بحلاوة أجره ، فلم يجاوز الطيب موضع الصوت وهو الحلق ، ولا اتصل بالقلب .

ثم قال الحديث عن الصنف الرابع : « ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن

كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » . والحنظلة واحدة الحنظل ، وهو نبات معروف شديد المرارة ، ويقال : حنظلت الشجرة ، إذا صار ثمرها مراً . وهذا الصنف الرابع هو أسوأ الأصناف وشرها ، لأنه أصيب بسوء المخبر وسوء المظهر معاً ، فلا طيب في الجوهر ولا حسن في الشكل .

والحديث — كما نرى — من جوامع كلم الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأنه صور لنا طوائف الناس بالنسبة إلى القرآن تصويراً رائعاً كأنهم أمامنا نراهم ، ونحس بهم ، ونلمس خصائصهم ، وسبب ذلك هو أن الحديث جاء على طريقة التشبيه والتمثيل الذي يراد منه تقريب المعنى للأفهام وإبراز ذلك في صورة حسية ملموسة .

وها هوذا شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه « أسرار البلاغة » يقول :

« مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وأكسبها منقبة ، ورفع من قدرها ، وشبَّ من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً ، فإن كانت مدحاً كانت أبهى وأفخم ، وأقبل في النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغرر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر ، وإن كان ذماً كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحدّه أحدّ ، وإن كان حجاجاً كان برهانه أظهر ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر . وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد وشرفه أجدّ ، ولسانه ألد .. » إلـخ .
والحديث يدلنا على ما يلي :

١ ــ الفضل العظيم لقراءة القرآن الكريم .

٢ ــ الدلالة على مكانة قارئي القرآن المؤمنين به .

٣ ــ فضل القرآن على غيره من الكلام .

٤ ــ في الحديث إشارة إلى إباحة أكل الطعام الطيب فإن تشبيه المؤمن بما طعمه طيب ، وتشبيه الكافر بما طعمه مر ، فيه ترغيب في أكل الطعام الطيب الحلو .

* * *

وبعد ، فما قصتنا في ديارنا مع القرآن المجيد ؟ .

من الحقائق التي يجب أن تستقر في أذهاننا ، وتسيطر على إدراكنا ، أن أعظم مفخرة لبلادنا هي أنها دار القرآن ، وأنها بعزة القرآن تساوي كل شيء ، وأنها دون القرآن لا تساوي شيئاً . ومنذ سنوات أقيم احتفال ضخم في ساحة الجامع الأزهر الشريف ، بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم حضره رئيس الدولة وكبار رجالها ، وأذيع في حينه بالإذاعة والتلفزيون معاً ، وقد شاركتُ في هذا الاحتفال ، ومن فوق منبر الأزهر هتفتُ بأعلى صوتي ثلاث مرات قائلاً : يا قوم ، إنها مصر القرآن ، إنها مصر القرآن ، إنها مصر القرآن .

وشهرة مصر القرآن بين العالمين هي أن أبناءها يحفظون القرآن العظيم ، ويتلونه عن « ظهر قلب » ويتطلع إليهم أبناء البلاد الإسلامية الأخرى ، فيعجبون لهم كيف يستطيع هولاء الأذكياء الموفقون من أهل مصر العظيمة أن يرتلوا القرآن حفظاً بهذا الأسلوب الكريم ؟ .

ولكن القرآن المجيد قد صار ــ مع شديد الأسى والأسف ــ غريباً في داره وبين أهله ، منذ عشرات من السنين ، فقد كانت « كتاتيب » تحفيظ

القرآن تملأ جنبات الوادي المبارك في ريفه وحضره ، في قراه ومدنه ، وكان الطفل المسلم أول ما يخرج من داره يتجه إلى « الكتاب » ليحفظ على يد « العريف » سور القرآن ، فيبدأ بسورة « الفاتحة » منتقلاً إلى قصار السور في « جزء عم يتساءلون » . وكلما حفظ الصبي جانباً من القرآن ازداد فرح أبويه وأسرته به ، فقضى أعداء القرآن على هذه الكتاتيب ، وحالوا بين صبية المسلمين وهذه الصلة المبكرة المباركة بينهم وبين كتاب الله عز وجل .

- وكان الشرط الأساسي لقبول الطالب في المعاهد الدينية الأزهرية أن يكون حافظاً للقرآن كله ، وأن يُمتحن فيه بلا تساهل ولا تسيب ، ثم دارت الدوائر السود على الأزهر ، فضاع هذا الشرط الأساسي ، فأسهم ذلك في إضعاف الأزهر وإبعاده عن جوهر رسالته .

وكانت قراءة القرآن عند الصباح وقبل النوم ظاهرة طيبة شائعة بين المسلمين رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً — : يفتتحون نهارهم بكتاب الله ، ويختمون يومهم بكتاب الله ، فيكون ذلك مذكّراً لهم بما أحل الله سبحانه وما حرم ، ويجعلهم على قرب من كلمات الله البالغة ، تتحرك بها ألسنتهم ، وتدوي بها آذانهم ، وتخشع أمامها قلوبهم : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

وكان من العادات الشائعة بين المسلمين في شهر رمضان أن يحضر كل قادر في بيته قارئاً يرتل القرآن الكريم طوال ليالي رمضان من بعد صلاة التراويح حتى موعد السحور ، ويجتمع الناس للاستماع إلى القرآن ، وكانت هذه الاجتماعات تسمى « المساهر » ، ولكن الزمان حاف بهذه العادة الكريمة ، فطواها النسيان إلا في القليل النادر .

وكانت العادة جارية بين شباب الإسلام بأن يحملوا في جيوبهم مصاحف

القرآن ، لا لمجرد التبرك بحملها ، بل للقراءة فيها كلما تهيأت أمامهم فرصة للقراءة أو الحفظ ، فضاعت هذه الظاهرة مع الأسف ، واختفت هذه العادة ، فأصبح الفتى المسلم ربما يتخرج في الجامعة وهو لم يمس مصحفاً فضلاً عن أن يطالع فيه أو يحفظ سوراً منه ، وأصبح المصحف غريباً في بيوت المسلمين ، فإذا عرف الطريق إليها اتخذه أهلها مجرد تميمة، توضع تحت الوسائد أو تحت الثياب لدفع مرض أو جلب زواج أو ما شابه ذلك .

وا أسفاً على غربة القرآن في دار القرآن...واحزنا على ضياع صوت القرآن بين أهل القرآن ...

إن هذا القرآن هو الذي يقول فيه الحق عز شأنه : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » .

إنه القرآن العظيم ، واسطة العقد ، ومركز الدائرة ، وأساس الدعوة . إنه القرآن الذي يقول فيه سيدنا ورائدنا وقائدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . ويقول : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

إنه القرآن المجيد الذي يقول عنه رب العزة في حديثه القدسي : « من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ». إنه القرآن الجليل الذي يهدد الرسول على تجاهله وتضييعه ، فيقول : « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » . ويأتي ذلك الوعيد الرهيب مع ذلك التحبيب العجيب في الإقبال على القرآن والعناية به ، حيث يقول صلوات الله وسلامه عليه : « القرآن مأدبة الله ، فخذوا من مأدبته ما استطعتم » .

ولا عجب في ذلك ولا غرابة ، فالقرآن صوت الله ، وكتاب الأبد ، ومعلمة الدهر ، فهو مثابة الملة والدين ، وهو مصدر التشريع والتقنين ، وهو حافظ اللغة ومحيي البيان ، وهو المذكر بالعقائد والعبادات والمعاملات ، والعبر والعظات ، ورائد السلوك ومكارم الأخلاق ، فمن حق القرآن أن يكون له الصدر ، والقدر ، وحسن الذكر عند الذين يعقلون ويؤمنون .

لقد طالت غربة القرآن بين أهله ، وقد آن أن يعود ذلك الغريب الكريم العظيم الجليل إلى داره وأنصاره ، فمتى ينفخ الله في صدورنا همما وعزائم تدفعنا إلى الإقبال على كتابه حفظاً وتحفيظاً ، وفهما وتفهيماً ، ونشراً وتبليغاً ، ودراسة وتطبيقاً ؟ « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين » .

الإيمان فوق الألوان

قال صلى الله عليه وسلم : « خير السودان ثلاثة : لقمان ، وبلال ، ومهجع » .

(رواه الحاكم في المستدرك) .

* * *

اهتدى بهدى هذا الحديث النبوي الشريف سعيد بن المسيب رضي الله عنه ، حين دخل عليه رجلٌ أسود ، فقال له سعيد : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم وكان أسود نوبياً ذا مشافر .

وهذا الحديث الحكيم نفهم منه بادىء ذي بدء أن الإسلام لا يزن الناسَ بألوانهم أو أوطانهم ، أو أنسابهم ، أو أحسابهم، أو أجناسهمأو أموالهم ، وإنما يزنهم بقلوبهم وأعمالهم وتقواهم ، ولذلك أخبرنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا ،وإنما ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا ، وقد أشار القرآن المجيد إلى ذلك حينما قال في سورة الحجرات : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ، وكذلك أشار الرسول إلى ذلك

حين قال: « كلكم لآدم وآدم من تراب،الناس سواسية ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى والعمل الصالح ». وحين قال: « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح » :

وكلمة « السودان » الموجودة في الحديث هي جمع « أسود » ، والسواد هو خلاف البياض في اللون ، ويقال : اسودَّ الشيءُ ، أي صار لونه أسود . وكلمة « خير » فيها معنى أفعل التفضيل ، أي أفضل وأحسن .

وقد أخبرنا الحديث بأن أفضل أصحاب اللون الأسود ثلاثة أشخاص ، زانهم إيمانهم وعملهم ، وهم لقمان ، وبلال ، ومهجع . فمن هولاء ؟ .

إن أولهم ذكرا في الحديث هو لقمان بن عنقاء بن سدون ، وكان رجلاً معَمَّراً امتدت حياته طويلاً ، وكان عبداً أسود مملوكاً ، وقيل إنه كان من سودان مصر ، وكان سيده يستهين به ، ثم ظهر له من عقله وحكمته ما لفت نظرَه وفكره إليه ، وقد علا قدر لقمان بين الناس بفضل حكمته حتى صار يقال له « لقمان الحكيم » . ويروى أن الناس اجتمعوا عليه ذات يوم ، فقال له أحدهم : ألستَ الذي كنت تراعينا بموضع كذا ؟ . أجاب لقمان : بلى . قال الرجل : فما بلغ بك ما أرى ؟ . قال صدقُ الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنيني .

وقد سميت إحدى سور القرآن الكريم باسم « لقمان » ، وجاء فيها ذكر حميد له ، فذلك حيث يقول الله عز وجل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غني حميد ، وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني ، لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم » . ثم عاد لقمان يقول لابنه : « يا بني إنها إن تكن مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير ،

يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك إن اذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك إن نكر الأصوات لصوت الحمير » .

ولقد اختلفوا في شأن لقمان : أنبي أم حكيم وعبد صالح ؟ . والأصح أنه حكيم وعبد صالح ، وعلى هذا جمهور السلف ، ثم اختلفوا في صناعته : أخياط أم راع أم نجار . والمشهور أنه كان نجاراً .

وذاعت بين الناس كلمات حكيمة كثيرة منسوبة إلى لقمان ، وأغلبها قد وجهها إلى ابنه ، ولو جمعت هذه الكلمات لتألف منها قدر كبير . ومنها :

١ — ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع .

٢ — إياك وسوءَ الخلق والضجر وقلة الصبر .

٣ — إن أردتَ غنى الدنيا فاقطع طمعك مما في أيدي الناس .

٤ — من يقارن قرينَ السوء لا يسلم .

٥ — من لا يملك لسانه ندم .

٦ — كن عبداً للأخيار .

٧ — كن أميناً تكن غنياً .

٨ — ما تأذيتَ به صغيراً ، انتفعت به كبيراً .

٩ — كن لأصحابك موافقاً في غير معصية .

١٠ — القناع بالليل ريبة ، وبالنهار مذلة .

١١ — جالس العلماء ، وزاحمهم بركبتيك ، ولا تجادلهم ، وخذ منهم إذا ناولوك ، والطف بهم في السؤال ، ولا تضجرهم .

١٢ — ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل الإيمان : من إذا رضي لم يخرجه

رضاه إلى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق : وإذا قدر لم يتناول ما ليس له .

١٣ — اغدُ عالماً ، أو متعلماً ، أو مستمعاً ، أو محباً ، ولا تكن الخامس ، فتهلك .

١٤ — إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار ، وإن العالم الأخرق يطرد الناسَ عن علمه بالهذر والإكثار .

١٥ — إن أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه ، فإن أنصفك في غضبه ، وإلا فدعه .

١٦ — لا تحقرن من الأمور صغارَها ، فإن الصغار غداً تصير كباراً .

١٧ — قد ندمتُ على الكلام ، ولم أندم على السكوت .

ولقد جاء في سيرة لقمان أن سيده قال له : اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها ، ثم قال له سيده : أخرج منها أطيبَ مضغتين فيها ، فأخرج لقمان منها لسانَها وقلبها . ثم مكث سيده حيناً من الزمان ، ثم قال للقمان : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها ، ثم قال له : أخرج منها أخبث مضغتين فيها ، فأخرج لقمان منها لسانَها وقلبها ، فتعجب سيده من ذلك ، وقال له : أمرتك أن تخرج أطيَب مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما .

فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، وليس من شيء أخبث منهما إذا خبثا .

هذا ما يناسب مقامَنا هنا عن لقمان ، وأخبارُه كثيرة ، ومنها ما يحتاج إلى مراجعة وتثبت ، ولقد توقفتُ طويلاً أمام ما أورده ابن قتيبة الدينوري في الجزء الأول من كتابه المشهور « عيون الأخبار » راوياً له عن عبد الرحمن ابن الحسين عن عبد المنعم عن أبيه عن وهب بن منبه قال: قال لقمان لابنه :

« يا بني ، إذا سافرت فلا تنم على دابتك ، فإن كثرة النوم سريع في دَبَرها[1] ، فإذا نزلت أرضاً مكلئة فأعطها حظها من الكلأ ، وابدأ بعلفها وسقيها قبل نفسك ، وإذا بعدت عليك المنازل فعليك بالدَّلَج ، فإن الأرض تطوَى بالليل ، وإذا أردت النزولَ فلا تنزل على قارعة الطريق ، فإنها مأوى الحيات والسباع ، ولكن عليك من بقاع الأرض بأحسنها لوناً وأليثها تربة، وأكثرها كلأ فانزلها ، وإذا نزلت فصلِّ ركعتين قبل أن تنزل ، وقلْ : « رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » [2] .

وإذا أردت قضاء حاجة فأبعد المذهب في الأرض ، وعليك بالسترة ، وإذا ارتحلتَ من منزل فصل ركعتين ، وودّع الأرض التي ارتحلت عنها ، وسلم عليها وعلى أهلها ، فإن لكل بقعة من الأرض أهلاً من الملائكة ، وإذا مررت ببقعة من الأرض ، أو واد أوجبل فأكثر من ذكر الله ، فإن الجبال والبقاع ينادي بعضُها بعضاً : هل مرَّ بكن اليوم ذاكر لله ؟ . وإن استطعت ألا تطعم طعاماً حتى تتصدق منه فافعل .

وعليك بذكر الله جل وعز ما دمت راكباً ، وبالتسبيح ما دمت صائماً ، وبالدعاء ما دمت خالياً . وإياك والسيرَ في أول الليل ، وعليك بالتعريس والدلجة من نصف الليل إلى آخره ، وإياك ورفعَ الصوت في سيرك إلا بذكر الله ، وسافر بسيفك وقوسك وجميع سلاحك وخفك وعمامتك وإبرتك وخيوطك ، وتزود معك الأدوية فتنتفع بها ، وتنفع مَنْ صَحِبَك من المرضى والزمنى ، وكن لأصحابك موافقاً في كل شيء يقربك إلى الله ، ويباعدك من معصيته .

---

(١) الدبر ــ بفتحتين ــ : الجرح الذي يكون في ظهر البعير .
(٢) المعروف أن لقمان كان قبل الاسلام .

وأكثر التبسم في وجوههم ، وكن كريماً على زادك بينهم ، وإذا دعوك فأجبهم ، وإذا استعانوك فأعنهم ، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم ، واجهد رأيك ، وإذا رأيتهم يمشون فامش معهم ، أو يعملون فاعمل معهم ، وان تصدقوا أو أعطوا فأعط ، واسمع لمن هو أكبر منك .

وان تحيرتم في طريق فانزلوا ، وإن شككتم في القصد فتثبتوا وتآمروا ، وإن رأيتم خيالاً واحداً فلا تسألوه عن طريقكم ، فإن الشخص الواحد في الفلاة هو الذي حيركم ، واحذروا الشخصين أيضاً ، إلا أن تروا ما لا أرى ، فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وإن العاقل إذا أبصر شيئاً بعينيه عرف الحق بقلبه » .

* * *

ثم يأتي ثاني الثلاثة الذين أخبر عنهم الحديث بأنهم خير السودان ، وهو مِهْجَع ، والأخبار عنه قليلة ، ولكنها تنبيء وتشير إلى أنه كان عبداً صالحاً مؤمناً تقياً ، ومِهْجَع — بكسر فسكون ففتح — هو أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان أسود اللون ، وأصله من أهل اليمن ، وكان أول شهيد في الإسلام ، لأنه أصيب بسهم في أول غزوة بدر فأصاب منه مقتلاً ، وقيل إن الذي رماه بهذا السهم هو عامر بن الحضرمي ، وقد أورد صاحب « السيرة الحلبية » أن أول من يدعى من شهداء هذه الأمة مهجع .

ورُوي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : نزل في مهجع وبلال وصهيب وخباب وعمار وعتبة بن غزوان وأوس بن خولي وعامر بن أبي فهيرة قولُ الله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي

يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين » .

* * *

ثم يأتي ثالث الثلاثة الأخيار ، وهو بلال رضي الله تعالى عنه .

لقد وصف أبو نعيم في كتابه « حلية الأولياء » بلالاً بأنه السيد المتعبد المتجرد ، علم المـمْـتَحَنين في الدين والمعذَّبين ، خازن الرسول الأمين : محمد سيد المرسلين ، السابق الوامق ، المتوكل الواثق .

وهو بلال بن رباح الحبشي ، وكان له أكثر من كنية ، فهو أبو عبـدالله ، وأبو عبد الكريم ، وأبو عبد الرحمن ، وأبو عمر ، والكنية إشارةُ تكريم ، فكلما تعددت عند القوم دلت على مزيد من التوقير ؛ وبلال هو مولى أبي بكر الصديق ، وأمه تسمى « حَمَامة » ، وهي مولاة لبني جمح ، وكان بلال عبداً مملوكاً لأمية بن خلف المشرك الطاغية ، الـذي كان يعذب بلالاً ويتابع عليه العذاب ، وكل ذلك لأن بلالاً قد أسلم .

وكان أمية يأخـذ بلالاً إلى الصحراء في وقت الظهيرة ، والشمس كأنها نار تلهب فيطرحه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فلا يزيد بلالا على أن يردد قوله : أحَد ، أحد ، أحـد . ويمر عليه — كما يروون — ورقة بن نوفـل ، فيسمعه فيقول : أحد ، أحد ، الله يا بلال . ثم يقول : : « أحلف بالله عز وجل لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنَاناً » . والحنان هنـا : الرحمة والعطف ، والحنان : الرزق والبركة . أراد : لأجعلن قبره موضع حنان ،

أي مظنةً من رحمة الله ، فأتمسح به متبركاً ، كما يتَمسح بقبور الصالحين الذين قتلوا في سبيل الله من الأمم الماضية ، فيرجع ذلك عاراً عليكم ، وسبة عند الناس .

ولكن هذه الرواية فيها نظر ، لأن ورقة مات قبيل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعذيب بلال إنما كان بعد أن أسلم .

ولما اشتد التعذيب على بلال أقبل أبو بكر الصديق واشتراه من أمية وأعتقه لوجه الله تعالى ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يقول : « أبو بكر سيدنا ، وأعتقَ سيدَنا » وهذا تنويه بشأن بلال في تقدير عمر .

ولم ينس بلال فضلَ أبي بكر عليه، ولذلك نراه حينما بلغه أن بعض الناس يفضلونه على أبي بكر يغضب ويقول : « وكيف وأنا حسنة من حسناته »..

ولقد قال عمار بن ياسر أبياتاً فيما نال بلالاً من تعذيب ، وفي شكر أبي بكر على عتقه ، وفيها يقول :

جزى الله خيراً عن بـلال وصحبه	عتيقاً (١) ،وأخزَى فاكهاً وأباجهلِ
عشيةَ هَمّا في بـلال بسوءة	ولم يحذرا ما يحذر المرءُ ذو العقل
بتوحيده ربَّ الأنام ، وقـوله :	شهدتُ بأن الله ربي على مهْـل
فإن يقتلوني يقتلوني ، فلم أكـن	لأشركَ بالرحمن من خيفةِ القتل
فيا ربَّ إبراهيم والعبدِ يـونـس	وموسى وعيسى ، نجّني ثم لا تبل
لمن ظل يهوى الغيَّ من آل غالـب	على غير برٍّ كانَ منه ولا عدل

---

(١) عتيق : اسم ابي ابكر .

ولقد كان بلال من السابقين إلى الإسلام ، ومن أول من أظهر إسلامه : وهاجر من مكة إلى المدينة ، وفي المدينة تحرك به الشوق إلى وطنه الأول . وأصيب بالحمى ، فكان يردد قوله :

ألا ليت شعري ، هل أبيتنّ ليلةً بفخ ، وحولي إذخر وجليل
وهل أردنْ يوماً مياهَ مجنة وهل يبدَونْ لي شامةٌ وطفيل

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين بلال وأبي عبيدة بن الجراح ، وكان بلال أول مؤذن في الإسلام ، حيث كان مؤذنَ الرسول في السفر والحضر وشهد غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، وشهد المشاهدَ كلّها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن عجيب صنع الله أن بلالاً قتَلَ بيده أميةَ بن خلف في غزوة بدر ، فكان هذا انتقاماً إلهياً انتصف به بلال من الطاغية الذي أذاقه العذابَ ألواناً .

* * *

ولما توفي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رحل بلال إلى الشام مجاهداً في سبيل الله ، ويروى أن أبا بكر جلس يوماً على المنبر يوم جمعة ليخطب وهو خليفة ، فوقف بلال وقال له : : أعتقتني لله أم لنفسك : قال : بل لله ، قال بلال : فائذن لي حتى أغزو في سبيل الله ؛ فأذن له ، فذهب بلال إلى الشام مجاهداً .

وفي رواية أخرى أنه لما تجهز ليخرج إلى الشام قال له أبو بكر : ما كنت أراك يا بلال تدعنا على هذا الحال ، لو أقمت معنا فأعنتنا ؟ . فقال له بلال مثل ما سبق ، فأذن له ؛ وسافر بلال إلى الشام وفي صدره من الهم ما الله به

عليم لفراق رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهناك ترك الأذان ، إذ لم تطاوعه نفسه عليه كما كان يفعل في حياة الرسول ، ولكن عمر جاء الشام زائراً ، وطلب من بلال أن يؤذن .

واستجاب بلال ، وانطلق صوته بالأذان ، فاستعاد الناس ذكرى أذانه بين يدي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فخفقت القلوب ، واهتزت المشاعر ، وثارت الذكريات ، وماجت العواطف ، ومارت الشجون ، وتعالت أصوات الناس بالبكاء شوقاً وحنيناً ، وتأثراً وانفعالاً .

وعاد بلال إلى الصمت ، ولكنه رحل بعد ذلك إلى المدينة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل في سبب هذه الزيارة أنه رأى النبي في النوم ، وهو يقول له : يا بلال ، ما هذه الجفوة ؟ أما آن لك أن تزورني ؟ . فانتبه بلال ، وركب راحلتَه حتى أتى المدينة ، وهناك أذَّن للصلاة بصوته النديّ الحسن الفصيح المؤثر ، فما رؤي يوم أكثر باكياً بالمدينة من ذلك اليوم .

ويروى أن الحسن والحسين قالا لبلال حين قدم المدينة : نشتهي أن تؤذن في السَّحَر . فعلا سطحَ المسجد — كما فعل يوم فتح مكة حين علا ظهر الكعبة وأذن من فوقها — فلما قال : الله أكبر الله أكبر ، ارتجت المدينة . فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، زادت رجتها ، فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، خرج النساء من خدورهن ، فما رؤي يومئذ أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم .

ولقد روى الحديثَ عن بلال جماعاتٌ من الصحابة ، منهم أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وأسامة بن زيد والبراء بن عازب وأبو سعيد الخدري وكعب بن عجرة وجابر ، رضوان الله على الجميع ، كما روى عنه جماعاتٌ من كبار التابعين .

وكان بلال أسود اللون شديد السواد ، نحيفاً طويلا ، خفيف العارضين. وتزوج امرأة اسمها « هند الخولانية » ، ولكنه لم يعقب أولاداً ، وكان له أخ اسمه خالد ، وأخت اسمها « عفرة » .

وكان بلال خازنا لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكان الرسول يمازحه أحياناً ، وكان يقول له إذا أهمه أمر ، مشيراً إلى الصلاة :

« أرحنا بها يا بلال » أي أذّن للصلاة لنستريح بأدائها . وجاء في بعض الأحاديث :

« الدعوة في الحبشة » أراد بالدعوة الأذان ، وجعله فيهم تفضيلا لبلال .

ومما يدل على مكانة بلال في التقوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له عقبَ صلاة الصبح ذات يوم: حدثني يا بلال بأرجى عمل عملتَه عندك في الإسلام منفعة ، فإني سمعت الليلة خشفَ نعليك بين يديَّ في الجنة ، فقال بلال : ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعةً من أني لا أتطهر طهوراً (وضوءاً) تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي . وخشفُ النعل هو خفقه ، وصوت المشي .

وإخبار الرسول عليه الصلاة والسلام عن مشي بلال في الجنة قد ورد بعدة روايات ، ولعل الرسول كرر الإخبار بهذا بألفاظ متقاربة المعنى ، ولعل هذا التكرار مما يدل على مكانة بلال ، ففي رواية أن الرسول قال لبلال رضي الله عنه : ما دخلتُ الجنة إلا سمعتُ خشخشة ، فقلت : من هذا ؟ . فقالوا : بلال ، والخشخشة حركة لها صوت كصوت السلاح .

وفي رواية ثانية قال الرسول لبلال : ما عملك ؟ فإني لا أراني أدخل الجنة

فأسمع الخشفة فأنظر إلا رأيتك . والخشفة : الحس والحركة ، وقيل هي الصوت . وفي رواية ثالثة قال الرسول لبلال : إني سمعت ذَقَّ نعليك في الجنة. أي صوتها عند الوطء عليهما . ويروى « دَفَّ نعليك » بالدال المهملة .

وفي رواية رابعة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة فسمعت في جانبها وَجْساً ، فقيل : هذا بلال » . والوجس : الصوت الخفي . وفي رواية خامسة أن الرسول قال : « دخلت الجنة فسمعت وَقْشاً خلفي ، فإذا بلال » . والوقش : الحركة .

ولقد قال الرسول عن بلال : « نعم العبد بلال وهو سيد المؤذنين » . وقال فيه : « بلال سابق الحبشة » . ومن نصائح الرسول له قوله : « أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً » . وقوله : « ما رُزقت فلا تخبأ ، وما سئلت فلا تمنع » ، وقوله : « يا بلال ، مت فقيراً ، ولا تمت غنياً » .

وظل بلال بالشام حتى لحق بربه سنة عشرين للهجرة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ودفن في دمشق ، وهنالك خلاف واسع في تحديد المكان الذي دفن فيه ، ولكن الأظهر هو ما ذكرت . ومضى بلال إلى ربه ليلقى في رحابه جزيل ثوابه ، بما يوائم قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « خير السودان ثلاثة : لقمان ومهجع وبلال » رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

بين الأخيار والأشرار

« روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن من الناس مفاتيح للخير ، مغاليق للشر ، وإن من الناس مفاتيح للشر ، مغاليق للخير ؛ فطوبى لمن جعل الله مفاتيحَ الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيحَ الشر على يديه » .

(رواه ابن ماجه في سننه ، وأبو حاتم البستّي في صحيحه [1])

يخبرنا هذا الحديث الشريف أن الناس صنفان : أولهما صنف كريم نبيل، يكون معواناً على الخير مقاوماً للشر ، فيجعله الله تعالى سبباً في الطاعات والقربات والخيرات ، والصنف الآخر صنف لئيم خبيث ، يكــون خادماً للشيطان في إيجاد الشر ونشر الفساد :

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون . » والمشاهد أن من الناس من يكونون كالعافية للنــاس ، إن حضروا أفادوا وأحسنوا ، وإن تكلموا نفعوا وأرشدوا ، وإن وجهوا صدقوا وأخلصوا ، وقليل ما هم ، ومن الناس

---

(1) ذكر السيوطي في الجامع الصغير هذا الحديث ووضع علامة الضعيف.

من يكونون كالعلة أو الداء ، إن حضروا كانوا بلاء أو عناء . وإن تكلموا أفسدوا وخلطوا ، وإن تعاملوا أساءوا وانحرفوا : « وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوي الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من في القبور » .

ولله در القائل :

الناس شتّى ، إذا ما أنت ذقتَهمُ   لا يستوون ، كما لا يستوي الشجرُ
هذا له ثمر حلو مذاقته   وذاك ليس له طعم ولا ثمر

« مفاتيح للخير » : المفاتيح جمع مفتاح ، والمفتاح في الأصل هو كل ما يتوصل به إلى استخراج المغلقات التي يتعذر الوصول إليها ، ومن كان بيده مفتاح شيء مخزون سهل عليه الوصول إليه . والمفاتح والمفاتيح بمعنى ، وقد وردت مادة « مفاتح » في القرآن أكثر من مرة ، ففي سورة الأنعام : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . » ، وفي سورة النور : « أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه . » ، وفي سورة القصص : « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة » .

« والخير » هو ما يرغب فيه الكل كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع . والخير نوعان : خير مطلق ، وهو الشيء المرغوب فيه دائماً وعند كل واحد ، كطاعة الله مثلاً ، وخير مقيد ، وهو ما يكون خيراً لواحد ، وشراً لآخر ، كالمال الذي ربما يكون خيراً لهذا وشراً لذلك ، وقد تطلق كلمة « الخير » على المال الكثير الناشيء عن مصدر طيب ، ومنه قوله تعالى : « إن ترك خيراً » أي مالا مجموعاً من وجه محمود ، وقوله تعالى : « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين » .

وقد ورد ذكر الخير في كثير من آيات القرآن . ففي سورة البقرة : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله . » ، وفي سورة آل عمران : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضَراً . » ، وفي سورة الحج : « وافعلوا الخير . » ، وفي سورة الزلزلة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . الخ .

« مغاليق للشر » : المغاليق جمع مغلاق ، والمغلاق هو ما يغلق به الباب ، والمراد بالمغلاق هنا هو ما يقف في وجه الشر ، ويحبسه ويمنعه ، و « الشر » ضد الخير ، وهو ما يرغب عنه الكل .

« فطوبى » : طوبى اسم للجنة ، وقيل اسم شجرة في الجنة ، وقيل إنه إشارة إلى كل مستطاب في الجنة ، من بقاء بلا فناء ، وعزّ بلا زوال ، وغنى بلا فقر ، وفي سورة الرعد جاء قوله تعالى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب . » ، وجاء في الحديث الشريف : « فطوبى للغرباء . » ، وجاء فيه أيضاً : « طوبى للشام » .

« ويل » : الويل الحزن والهلاك والمشقة من العذاب ، وقيل إن الويل هو القبح ، وقيل هو واد في جهنم ، ويقول الراغب : « من قال : ويل واد في جهنم ، فإنه لم يرد أن ويلا في اللغة هو موضوع لهذا ، وإنما أراد : « من قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحق مقراً من النار ، وثبت ذلك له » .

وقد وردت مادة « الويل » عشرات المرات في القرآن الكريم ، فجاء في سورة ابراهيم : « وويل للكافرين من عذاب شديد . » ، وفي سورة المرسلات ورد قوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين . » عشر مرات ، وجاء في سورة الزخرف : « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم . » ، وجاء في صدر سورة المطففين : « ويل للمطففين » .

* * *

والله تعالى وتبارك قد وعد الذين يعاونون على الخير ، ويفتحون أبوابه . ويغلقون أبواب الشر ويقاومونه ، أحسن الوعد، فأخبر بأنه قد أعد لهم « طوبى » أي أعد لهم الخير العظيم ، سواء أكانت « طوبى » هي الجنة ، أم كانت ألوانا من النعيم داخل الجنة ، وهذا الوعد الكريم الجميل فيه إشارة قوية إلى حث الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يكون الإنسان معواناً على الخير معادياً للشر.

كما أن الله جل جلاله قد أوعد أشد الوعيد أولئك الفاسدين المفسدين الذين يفتحون أبواب الشر ، ويجتهدون في الفساد والإفساد ، ويقاومون اتجاهات الخير وعوامله ، فيهددهم — كما جاء في الحديث — بالويل والثبور ، وفي هذا إشارة إلى التنفير من السعي في الشر ، وفي التقصير في مجال الخير .

والذي يفتح أبواب الشر يكون سبباً في الأذى لغيره ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به . » ، ويقول أيضاً : « من ضار ضار الله به ، ومن شاق شق الله عليه . »

والدين يدعو إلى صيانة أعراض المؤمنين والدفاع عنهم ، ومتى فعل المؤمن ذلك فقد عاون على الخير ووقف في وجه الشر ، ولقد روى أبو الدرداء رضي الله عنه أن رجلاً نال من رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد عنه رجل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ردّ عن عرْض أخيه كان له حجاباً من النار ». كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نارَ جهنم يوم القيامة . » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من امرىء مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتهك فيه عرضُه ، وتُستحل حرمته ، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصره ، وما من امرىء خذل مسلماً في موطن تنتهك فيه حرمته إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته » .

* * *

وأبواب الخير كثيرة عديدة، منها الكبير الواسع الذي يحتاج إلى جهد ومشقة ، ومنها اليسير الخفيف ، وكل ميسر لما خُلق له ، ، فقد يكون الخير كلمة طيبة هادية ، أو نصيحة زاجرة رادعة ، وقد يكون الخير إرشاداً إلى سبيل ، أو دلالة على الطريق ، وقد يكون الخير علماً نافعاً يساق للهداية في الدين والدنيا ، وقد يكون الخير مواساة في شدة ، أو مشاطرة في حزن ، أو مشاركة وجدانية عند انفعال ، وقد يكون الخير معونة مادية ، أو مالية يقدمها صاحبها بنية طيبة خالصة لمن يستحقها أو يحتاج إليها ، وقد يكون الخير أمراً بالمعروف أو نهياً عن المنكر : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

وكذلك تتعدد ألوان الشر وأنواعه ، فقد يتمثل الشر في غيبة أو نميمة أو سعي بالإفساد بين الناس ، وقد يكون الشر تضليلاً أو تعمية على الأغرار والجهلاء ، وقد يكون الشر ظلماً للغير في شيء مادي أو معنوي ، وقد يكون الشر في كتمان نصيحة أو منع مشورة مستحقة ، وقد يكون في التطاول على الأخيار بالغمز أو اللمز ، أو الهضم لحقوقهم أو الافتراء على سيرتهم ومسيرتهم ، إلى غير ذلك من الألوان السود للشر والافساد .

إن الرجل الفتاح للخير المغلاق للشر هو من يعتبر أصدقَ الاعتبار بقول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » .

وإن الرجل الفتاح للشر المغلاق للخير ، هو ككلب السوء ، أينما توجهه لا يأتي بخير ، فهو معول هدمٍ في شعوره وفي تعبيره ، وفي عمله وتفكيره ، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً .

أيها الإنسان ، حاول أن تحسن قدر طاقتك . فإن لم تستطع الإحسان فلا تسيء ، وحاول أن تقول الكلمة الطيبة قدر طاقتك ، فإن لم تستطعها فلا تقل الكلمة الخبيثة ، وحاول أن تكون نافعاً لغيرك ، فإن لم تستطع النفع فلا تضر سواك ، وحاول أن تعمل قدر طاقتك : فإن لم تستطع فلا تطعن الذين يعملون .

وعلى الله قصد السبيل . ومنها جائر . ولو شاء لهداكم أجمعين .

سماحة الإسلام

رُوي أن رسول الله صلى عليه وسلم ، قال :
« السماح رباح . والعسر شؤم . »

(رواه القضاعي عن ابن عمر . والديلمي في الفردوس) [1]

* *

هذا الحديث الشريف دليل من أدلة على سماحة الإسلام ورفقه ، ودعوة أهله إلى اليسر والكرم وحسن المعاملة بالكلمة الطيبة والفعلة الجميلة والاحتمال النبيل والتصرف المشكور . وهذا الحديث الشريف يحث المسلم على أن يعطي أكثر مما يأخذ ، وأن يمنح الناس فضلاً يشد به ما بينه وبينهم من رحم البشرية ورابطة الإنسانية .

« السماح » : يقال سمح وأسمح ، إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء ، وقيل : إنما يقال في السخاء سمح ، وأما أسمح فإنما يقال في المتابعة والانقياد ، يقال : أسمحت نفسه ، أي انقادت ، والصحيح الأول ، والمساحة المساهلة . وقد جاء في الحديث : « اسمح يسمح لك . » أي كن سهلاً ليسهل غيرك

(١) ذكر السيوطي هذا الحديث في كتابه « الجامع الصغير » ووضع عليه علامة الحسن .

عليك ، وفي حديث عطاء « اسمح يسمح بك». وفي الحديث أيضاً جاء :

« فيقول الله تعالى : اسمحوا لعبدي كإسماحه إلى عبادي . » : ولأن السماح يراد به في هذا المجال المساهلة ، رأينا ابن الأثير يقول وهو يتحدث عن لفظ السماح :

ومنه الحديث المشهور : « السماح رباح » أي المساهلة .

« الرباح » : بوزن السحاب هو الربح ، والربح هو الزيادة الحاصلة في المبايعة ، ثم يستعمل مجازاً في كل ما يعود من ثمرة عمل ، وينسب الربح تارة إلى صاحب السلعة ، وتارة إلى السلعة نفسها ، فيقال : ذلك مال رابح ، أي ذو ربح ، وفي سورة البقرة يقول الله تعالى عن المنافقين : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

والمراد من هذه الجملة النبوية الكريمة أن سهولة الإنسان في معاملته الناس ، وتلطفه بهم ولينه معهم في قوله وعمله وتصرفه ، مما يفتح أبواب النجاح والفوز ، ويستدعي رحمة الله وفضله ، ولذلك روى البخاري ومسلم قولَ رسول الله عليه الصلاة والسلام : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى » والسمح : السهل . واقتضى : أي طلب حقه .

« العسر » : هو الضيق والشدة والصعوبة ، وهو ضد اليسر : والعسرة تعسر وجود المال ، ولذلك جاء في سورة التوبة : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة » وتعاسر القوم : طلبوا تعسير الأمر ، واليوم العسير : الذي يتصعب فيه الأمر . وعسّرني — بتشديد السين المفتوحة — : طالبني بشيء حين العسرة .

* * *

وحديث القرآن عن « العسر » يشعرنا بأنه شيء بغيض ثقيل ، يكون حيث يكون العذاب والإرهاق ، فهو يصف يوم القيامة — بالنسبة إلى الكافرين والفاسقين — بأنه عسير ، فيقول في سورة القمر : « مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون هذا يوم عسر . » ويقول في سورة الفرقان : « الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً . » ويقول في سورة المدثر : « فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير . » والقرآن يجعل العسر أمراً كريهاً يرجو الناس الفرارَ منه والبعد عنه ، ففي سورة الكهف : « قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً » .

وحين تحدث القرآن عن اليسر — وهو ضد العسر كما عرفنا — أشعرنا بأنه نعمة منه ، وفضيلة للأخيار من عباده ، فقال في سورة القمر : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . » وفي سورة الدخان : « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » . وفي سورة عبس : « ثم السبيل يسره . » وفي سورة الأعلى: « ونيسرك لليسرى » . وفي سورة طه : « رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ». وفي سورة الطلاق : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » .

ونجد القرآن يجمع في الذكر بين اليسر والعسر فيطمعنا في اليسر بعد العسر، ويجعلنا نتطلع إلى هذا اليسر كأنه أمل نرتجيه من القوي القادر ، فيمن علينا به وهو الرؤوف الرحيم ، فيقول في سورة البقرة : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . وفي سورة الطلاق : « سيجعل الله بعد العسر يسراً » . ويقول في سورة الشرح : « فإن مع العسر يسراً ، ان مع العسر يسراً » .

ولقد جاء في حديث ابن مسعود أنه لما قرأ : « فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » . ، قال : لن يغلب عسر يسرين ، ومعناه — كما في النهاية — ان العسر بين يسرين ، إما فرج عاجل في الدنيا وإما ثواب آجل في الآخرة . وقيل: أراد أن العسر الثاني هو الأول ، لأنه جاء معرّفاً باللام ،وذكر العسرين نكرتين ،

فكانا اثنين ، تقول : كسبت درهماً ثم أنفقت الدرهم ، فالدرهم الثاني هو الأول المكتسب . ولكن لو قلت : كسبت درهماً ، وأنفقت درهماً ، لكان الدرهم الثاني غير الأول .

ولقد كتب عمر إلى أبي عبيدة حينما كان محاصَراً ، يقول : « مهما تنزل بامرىء شديدة يجعل الله بعدها فرجاً ، فإنه لن يغلب عسر يسرين » .

« شؤم » : الشؤم ضد اليمن وهو البركة ، والشؤم في حديث القرآن تدل مادته على الخسران والبوار ، ففي سورة الواقعة جاء قوله تعالى : « وأصحاب المشأمة ، ما أصحاب المشأمة » . وقال المفسرون عنهم — كما في تفسير الطبري— إنهم أصحاب الشمال الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار . وجاء في سورة البلد :

« والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة . » ، وكأن الذي يألف العسر والتعسير والتعاسر يجر نفسه نحو هولاء الخاسرين .

ولقد تحدث ابن زيد عن قوله تعالى : « وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون أولئك المقربون » . فقال ابن زيد هذه العبارة : « وجدت الهوى ثلاثة أثلاث ، فالمرء يجعل هواه علمه ، فيُديل (أي ينصر) هواه على علمه ، ويقهر هواه علمه ، حتى إن العلم مع الهوى قبيح ذليل ، والعلم ذليل ، والهوى غالب قاهر . فالذي قد جعل الهوى والعلم في قلبه ، فهذا من أزواج النار .

وإذا كان ممن يريد الله به خيراً ، استفاق واستنبه ، فإذا هو عون للعلم على الهوى ، حتى يُديل الله العلمَ على الهوى ، فإذا حسنت حال المؤمن ، واستقامت ٰريقته ، كان الهوى ذليلاً ، وكان العلم غالباً قاهراً ، فإذا كان

ممن يريد الله به خيراً ختم عملَه بإدالة العلم ، فتوفاه حين توفاه ، وعلمه هو القاهر ، وهو العامل به ، وهواه الذليل القبيح ، ليس له في ذلك نصيب ولا فعل .

والثالث : الذي قبح الله هواه بعلمه ، فلا يطمع هواه أن يغلب العلم ، وأن يكون معه نَصَف ولا نصيب ، فهذا الثالث ، وهو خيرهم كلهم . فزوجان في الجنة ، وزوج في النار (أصحاب المشأمة) . والسابق : الذي يكون العلم غالباً للهوى ، والآخر : الذي ختّم الله بإدالة العلم على الهوى ، فهذان زوجان في الجنة ، والآخر هواه قاهر لعلمه ، فهذا زوج النار . »

ولقد جاء في الحديث النبوي الشريف : « إن كان الشؤم ففي ثلاث : المرأة والدار والفرس . » ، أي إن كان هناك شيء يستحق الكراهة وخوف العاقبة ، فهو هذه الثلاثة — كما يقول ابن الأثير — وتخصيصه لها لأنه لما أبطل مزاعم الجاهلية في التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء ونحوهما ، قال: فإن كانت لأحدكم دار يكره سكناها لعيوب فيها لا تحتمل ، أو امرأة يكره صحبتها لرذائل فيها لا يسكت عليها ، أو فرس يكره ارتباطها لعيوب فيها ، فليتركها وليفارقها ، وذلك بأن ينتقل من الدار ، ويطلق المرأة ، ويبيع الفرس.

هذا ولقد حبب القرآن الكريم في تجنب التعسير عند اقتضاء الدَّيْن من المدين ، فقال في سورة البقرة : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . » ، والعسرة هنا هي ضيق الحال من جهة عدم المال المطلوب أداؤه من المدين . والنظِرة : التأخير ، يقال : أنظرت المدينَ ، أي أخرته . والميسرة : اليسر .

والمعنى أنه مما يحسن بالدائن ويجمل منه أن يؤجل موعدَ استيفائه لدينه ، إذا كان الذي عليه الدين معسراً ، لا يسهل عليه أداءُ ما في ذمته عند موعد الأداء .

ولقد حثت السنة حثاً قوياً على المساهلة والتيسير في اقتضاء الدين ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « من أنظر معسراً كان له بكل يوم صدقة . » ، وقال :

« من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفّس عن معسر أو يضع عنه . » ، أي : فليؤجل موعدَ الاقتضاء ، أو ليترك له جزءاً من الدين على سبيل التصدق والتبرع .

وروى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أنظر معسراً ، أو وضع لـــه ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله . » قال العلماء : أنظره أي أخّره إلى يسار ، ووضع له: أي حط عنه بعض الدين ، أي تنازل عنه .

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « تلقت الملائكة روحَ رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : أعملتَ من الخير شيئاً ؟ . فقال : لا ، قالوا : تذكرْ ، قال : كنت أداين الناسَ فآمر فتياني (أي الغلمان الذين يعملون له) أن يُنْظروا المعسر ، ويتجوزوا عن الموسر . قال الله تعالى : تجوزوا عنه .

وفي رواية أنه قال : « إلا أني كنت رجلاً ذا مال ، وكنت أداين الناس ، فكنت أقبل الميسور ، وأتجاوز عن المعسور . فقال الله : تجاوزوا عن عبدي ». والتجاوز معناه التساهل والعفو عن بعض الدين .

* * *

والصوفية في تعاليمهم وآدابهم يعنون عناية كبيرة بفضيلة المساحة والمساهلة

واحتمال الخلق . فهم يدعون إلى معاونة الناس دون انتظار أو تطلع إلى معاونة منهم أو شكران ، وهذا هو الخواص يقول : « اثنتا عشرة خصلة من خصال الفقراء — يعني الصوفية — في حضرهم وسفرهم ، أولاها أن يكونوا بما وعدهم الله تعالى مطمئنين ، والثانية أن يكونوا من الخلق آيسين ، والثالثة أن ينصبوا العداوة مع الشياطين ، والرابعة أن يكونوا لأمر الله مستمعين ، والخامسة أن يكونوا على جميع الخلق مشفقين ، والسادسة أ ن يكونوا لأذى الخلق محتملين ، والسابعة ألا يدعـوا النصيحة لجميع المسلمين ، والثامنة أن يكونوا في مواطن الحق متواضعين ، والتاسعة أن يكونوا بمعرفة الله مشتغلين ، والعاشرة أن يكونوا الدهر على الطهارة ، والحادية عشرة أن يكون الفقر رأس مالهم ، والثانية عشرة أن يكونوا راضين فيما قل أو كثر ، وفيما أحبوا أو كرهوا — عن الله تعالى ».

ولقد قيل لأبي عبد الله أحمد القلانسي الصوفي : على أي شيء بنيت مذهبك ؟ ، فقال : على ثلاث خصال : لا نطالب أحداً من الناس بواجب حقنا ، ونطالب أنفسنا بحقوق الناس ، ونُلزم أنفسنا التقصير في جميع ما نأتي به.

اللهم إنا نسألك أن توفقنا كي نكون من أهل السماحة والفوز ، وباعد بيننا وبين العسر والشؤم ، واجعلنا ممن رضيت عنهم ورضوا عنك ، إنك الرؤوف الرحيم .

خاتمة شهيد

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: « اهتز عرشُ الرحمن لموت سعد بن معاذ » .

(رواه البخاري ومسلم) .

* * *

يوضح لنا هذا الحديث الشريف كيف يرتفع قدر الإنسان بإيمانه ويقينه ، وجهاده وإخلاصه ، حتى يستحق أن يتفضل عليه ربه تبارك وتعالى بواسع التكريم وسابغ الرضوان . وسعد بن معاذ هو سيد الأوس ، ومن السابقين إلى الاسلام من الأنصار ، ولقد كان بطلاً مقداماً ، ومجاهداً شجاعاً ، لا يخاف في الله لومة لائم .

ولقد روت الصديقة بنت الصديق عائشةُ بنت أبي بكر رضوان الله عليهما ، أنها خرجت يوم غزوة الخندق تتابع الجنود ، فرأت في الطريق سعدَ ابن معاذ ، وعليه درع من حديد قد خرجت منها أطرافه ؛ فجلست عائشة ومر سعد يرتجز بقول القائل :

لبّث قليلاً يدرك الهيجا حَمَلْ ما أحسن الموتَ إذا جاء الأجلْ

وهذا البيت من شعر حمل بن سعدانة الصحابي ، وقيل ان المراد من « حمل » في البيت هو « حَمَل بن بدر » . وقد جاء حديث عن البيت في « لسان العرب » وفي « تاج العروس » وغيرهما من كتب اللغة ، وله رواية أخرى هي :

لبث قليلاً يـدرك الهيجـا حمل   لا بأس بالموت إذا حـان الأجل

ثم تروي عائشة أنها مرت بقوم فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال لها : ما جاء بك ؟ والله إنك لجريئة ، وما يؤمنك أن يكون بـلاء أو تحوُّز ؟ . وتأثرت عائشة بعتاب عمر ، فقال له طلحة بن عبيد الله : يا عمر ، ويحك ، إنك أكثرت منذ اليـوم ، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله عـز وجل ؟ .

ومضى سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى موطن الجهاد ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يصاب بسهم في عِرْق يسمى « الأكحل » ، والذي رماه بالسهم هو حِبّان بن العَرِقَة لعنه الله — وقيل الضارب هو أبو أسامة الجشمي ، وقيل خفاجة بن عاصم بن حبان، والأول أظهر — ولما ضرب حِبّانُ سعداً بسهمه قال : « خذها مني وأنا ابن العرقة » ، فقال سعد له : « عَرَّق الله وجهَك في النار » . ثم دعا ربه فقال : « اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، فإنه لا قوم أحبّ إليَّ أن أجاهد من قوم آذوا رسولَك وكذبوه وأخرجوه ؛ اللهم وإن كنتَ وضعتَ الحرب بيننا فاجعلها لي شهادة ، ولا تُمتني حتى تقر عيني من بني قريظة » .

وبنو قريظة قوم من اليهود كانوا يجاورون الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وقد أخذوا على أنفسهم عهداً بتجنب خيانة الرسول والمسلمين ولكن بني قريظة خانوا العهد وتآمروا ضد المسلمين ، وانحازوا إلى المشركين ،

فتمنى سعد بن معاذ أن يبقيه الله تعالى حتى يشهد الانتقامَ العادل من بني قريظة . وقد كانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية ، ولكن الإسلام رفع الله به قوماً وخفض به آخرين ، وأبى هولاء اليهود اللئام إلا اتباع خطة الخيانة والغدر .

وبعد إصابة سعد بالسهم عالجه الرسول صلى الله عليه وسلم بأن حسمه له ، أي كواه بالنار، ثم انتفخت يد سعد ونزف منه الدم ، فأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام بأن يكون سعد في خيمة « رُفَيْدة » في مسجد الرسول ، حتى يسهل عليه زيارة سعد ، ورفيدة هذه امرأة من قبيلة أسلم ، وكانت تداوي الجرحى ممن ليس لهم من يقوم بعلاجهم ، وعاد سعد يدعو ربه قائلاً : « اللهم لا تخرج نفسي حتى تَقَرَّ عيني من بني قريظة » ، فَرَقَأَ كَلْمُهُ (أي انقطع النزيف ، فلم يسل الدم منه بعد ذلك) حتى حاصر النبي صلوات الله وسلامه عليه اللئامَ من بني قريظة ، ولم يسلموا في أول الأمر ، إذ كانت عندهم مؤنة ومتاع ، فهتف علي بن أبي طالب على زملائه من المجاهدين قائلاً : يا كتيبةَ الإيمان ؛ ثم تقدم في الطليعة وإلى جواره الزبير ابن العوام ، وعلي يقول : « والله لأذوقن ما ذاق حمزة ، أو أقتحم حصنهم ».

ولم يستطع اللئام المقاومة فاستسلموا ، وأخذوا يرجون ويتشفعون ، فطلب منهم النبي بعدَ أسرهم وتكتيفهم أن يختاروا لهم من صحابته واحداً ليحكم عليهم بما يراه ، فظنوا أن سعد بن معاذ هو أصلح الناس للتخفيف عليهم ، بحكم ما توهموه من تأثير المحالفة التي كانت بينهم وبينه في الجاهلية ، ناسين أن الإسلام يجبّ ما قبله ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ، إخترنا سعد بن معاذ حكماً ، فقبل النبي ذلك .

وكان سعد يرقد في خيمة « رُفَيْدة » بالمسجد فحملوه على دابة وجاءوا به إلى موقف التحكيم ، ولما رآه اللئام أخذوا يتزلفون إليه ويرجونه التخفيف ، ولما أكثروا عليه قال : « قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم » .

واستوثق سعد من أن الفريقين سيتزلان على حكمه دون معارضة ، فسأل بني قريظة أولاً مؤكداً عليهم ، فأكدوا أنهم سيقبلون حكمه ، ثم سأل جهةَ المسلمين وعلى رأسهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأكدوا قبول حكمه . وهنا قال سعد : « إني أحكم فيهم بأن يُقتل الرجال ، وتُقسم الأموال ، وتُسبى الذرية والنساء ، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار » . وهنا قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « لقد حكمتَ فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع سموات » .

ولما تساءل بعض الأنصار عن الحكمة في جعل سعد ديارَ بني قريظة للمهاجرين دون الأنصار ، أجابهم بهذا الجواب الحكيم العميق الدلالة ، قال : « إني أحببتُ أن يستغنوا عنكم » . ويروى أن الرسول قال لسعد :

« لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع سموات ، قد طرقني بذلك المَلَكُ سَحَراً » . والمراد هنا أن هذا الحكم من صفاته العلو والرفعة. ويروى « من فوق سبع أرْقعة » ، والأرقعة جمع رقيع ، والمراد سبع سموات ، وسميت السموات بالأرقعة لأنها رُقّعت بالنجوم ، أي زيّنت بها .

وبعد أن انتهى سعد من حكمه العادل الحازم عاد يدعو ربه ويرجوه فيقول : « اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ من أن أجاهدهم فيك — أي لأجلك — من قوم كذّبوا رسولك وأخرجوه ، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحربَ بيننا وبينهم ، فإن كان قد بقي من حرب قريش شيء فأبقني حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فأفجرها — يقصد جراحته — واجعل موتي فيها » . ولعل سعدا قال هذا فهماً من قول الرسول حين انصرافه من غزوة الخندق : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم ، ولكنكم تغزونهم » والذي كان أن قريشاً لم ترجع بعدها إلى حرب المسلمين ، ونزل قوله تعالى :

« وكفى الله المؤمنين القتال » إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبينهم .

واستجاب الله دعاءَ سعد سريعاً، فانفجر الدم من جراحته ــ وهو داخل الخيمة ــ وسال الدم من فراشه حتى رآه من رآه ، فنظروا فوجدوا سعد بن معاذ قد لحق بربه ، واختار الله له ما عنده ، فمات شهيداً رضي الله عنه .

ويروى أن جبريل جاء إلى النبي عقب ذلك يقول له : « مَنْ هذا العبد الصالح الذي فُتحت أبواب السماء لصعود روحه ، واهتز العرش لقدومها » . وفي رواية أنه قال : « يا محمد ، مَن هذا الميت الذي فُتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش».وفي رواية ثالثة: « من هذا العبد الذي مات، فتحت له أبواب السماء ، وتحرك له العرش » . ومن هنا قال رسول الله : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » . واستعان أحدُ الأنصار بهذه العبارة المحمدية الجليلة فقال :

وما اهتز عرش الله من مـــوت هالك ... سمعنا به إلا لسعد أبي عمــــرو

* * *

وهناك أكثر من قول في بيان المراد باهتزاز العرش في هذا المقام ، فهناك من يقول : اهتزاز العرش هنا هو تحركه فرحاً بقدوم روح سعد ، ولذلك جاء في بعض روايات الحديث : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ فرحاً بروحه » . وقيل جعل الله تعالى حركةَ العرش علامةً للملائكة على موت سعد . وقيل : هذا عبارة عن التعظيم لشأن وفاة سعد ، فإن العرب تنسب الشيءَ المعظم إلى أعظم الأشياء ، فتقول : أظلمت الأرض لموت فلان ، وقامت القيامة لموت فلان ، فهذه منقبة عظيمة لسعد رضي الله عنه تفيد كرامته على ربه ؛ حيث تحرك العرش أسفاً عليه ، لمحافظته على الحق .

وقيل – وهذا ما تميل إليه النفس – : إن المراد باهتزاز العرش هو الاستبشار والقبول ، فإنه يقال لكل من فرح بقدوم قادم عزيز عليه : اهتز له. ومنه اهتزت الأرض بالنبات ، إذا اخضرت وحسنت . ومنه قولهم : فلان يهتز للمكارم ، أي يرتاح للمكارم ، فهم لا يريدون تحركَ جسمه أو اضطرابه، وإنما يريدون ارتياحَه لها وإقباله عليها .

وكان سعد بن معاذ رجلاً بديناً جسيماً ضخم الجثة ، ولكنهم حينما حملوه وجدوه خفيفاً ، وقيل إن بعض المنافقين أرادوا التعريض به فقالوا : ما أخفّه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن له حَمَلَةً من غيركم ، من الملائكة .

وسارت جنازة سعد يشيعها الناس والملائكة ، ثم دفنوه . وجلس النبي إلى قبره فقال : سبحان الله ، مرتين ؛ فسبح المسلمون معه ، ثم كبّر مرتين ؛ فكبر معه القوم ، ثم أخبر النبي القومَ أن القبر ضم سعداً ضمة ، ثم فُرج عنه، وقال : « إن للقبر ضمةً لو كان أحد منها ناجياً لكان سعد بن معاذ » .

* * *

وحينما شهدت أم سعد – وهي كبشة بنت رافع ، أولُ من بايعت النبي من الأنصار – دفنَ ابنها قالت : « احتسبتُك عند الله عز وجل » ، ثم ندبته فوصفته ببعض صفات التمجيد ، فقال النبي حين سمعها : « كل نائحة تكذب إلا نائحةَ سعد بن معاذ » ، ثم قال لها : « لا تزيدي على هذا ، ليرقأ دمعُك ، ويذهبْ حزنك ، فإن ابنك يضحك الله له » ، وهذا كناية عن إقبال الله تعالى عليه بالثواب والنعيم .

ولا تحسبن أن أم سعد كانت تهاب اشتراكَ ابنها في الجهاد بل كانت تحب ذلك ، بدليل أنها حينما رأته لابساً درعَه وهو خارج إلى غزوة الخندق قالت له مستعجلة : « الحقْ بنيَّ فقد والله أخّرت » .

ولقد قال شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام حسان بن ثابت في رثاء سعد بن معاذ :

لقد سجمت من دمع عينيَّ عبرةٌ ... وحق لعيني أن تفيضَ على سعدِ
قتيل ثوى في معرك فُجعتُ بـــه ... عيونٌ ذَواري الدمع دائمةُ الوجدِ
على ملـــة الرحـــمن وارثُ جنـــة ... مع الشهداء ، وفدُها أكرم الوفد
فإن تك قد واعدتَنا وتـــركتنـــا ... وأمسيتَ في غبراء مظلمة اللحد
فأنت الذي يا سعد أُبْتَ بمشهـــد ... كريم وأثواب المكارم والمجد
بحكمك في حيي قريظـــة بالـــذي ... قضى الله فيهم ما قضيتَ على عمد
فوافق حكم الله حكمـــك فيهـــم ... ولم تعف إذ ذُكِّرْتَ ما كان من عهد
فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى ... شروا هذه الدنيا بجناتهـــا الخلد
فنعم مصير الصادقين إذا دُعـــوا ... إلى الله يوماً للوجاهة والقصـــد

وكذلك قال فيه شاعر الإسلام وشاعر الرسول عليه الصلاة والسلام ، يرثيه ويذكر معه جماعة من الشهداء يوم بني قريظة :

ألا يا لقومي ، هل لما حُمَّ دافعُ ؟ ... وهل ما مضى من صالح العيش راجعُ
تذكرتُ عصراً قد مضى فتهافتـــت ... بناتُ الحشا ، وانهلَّ مني المدامع
صبابة وجد ذكّرتنيَ إخـــوةً ... وقتلى مضى فيهم « طفيل » و « رافع »
و « سعد » ، فأضحوا في الجنان وأوحشت ... منازلُهم فالأرض منهـــم بلاقـــع
وَفَوْا يوم بدر للرسول ، وفوقهـــم ... ظلالُ المنايا والسيوفُ اللوامـــع
دعا فأجـــابوه بحـــق ، وكلهـــم ... مطيع له في كل أمر وسامـــع
فما نَكَلوا حتى توالـــوا جماعـــةً ... ولا يقطع الآجالَ إلا المصـــارع
لأنهمُ يرجون منـــه شفاعـــــةً ... إذا لم يكن إلا النبيون شافـــع
فذلك يا خـــيرَ العبـــاد بلاؤنا ... إجابتنـــا للـــه والموت ناقـــع
لنا القدم الأولى إليـــك ؛ وخلفنـــا ... لأولنـــا في ملة الله تابـــع

ونعلم أن الملك لـــــه وحـــده   وأن قضـــاء الله لا بـــد واقـــع

* * *

ويروى أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أهديت إليه حلة من حرير ناعم ، فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها ونعومتها ، فقال لهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين » .

يقول بعض العلماء تعليقاً على هذا الحديث : « وهذا الحديث فيه إشارة إلى عظم منزلة سعد عند الله تعالى في الجنة ، وأن أدنى ثيابه خير من هذه الحلة ، لأن المنديل أدنى الثياب ، لأنه معد للوسخ والامتهان ، فغيره أفضل منـــه بالأولى » .

رضوان الله تبارك وتعالى على سعد بن معاذ المجاهد الشهيد، الذي اهتز لموته عرش الرحمن فرحاً بقدوم روحه ، وسلام عليه في المجاهدين الخالدين .

الخمر أم الخبائث

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن ، فسأله عن الأشربة تُصنَع بها ، فقال : وما هي ؟ . قال : البِتْع والمِزْر . فقال : كل مسكر حرام .

(رواه البخاري) .

* * *

هذا أحد الأحاديث النبوية التي وردت في تحريم الخمر والتحذير منها ، وإنما حرمها الإسلام لما فيها من أخطار وأضرار ، وقد أراد من وراء تحريمها حفظَ الأموال لأنها تتبدد فيها بسفَه وجنون ، وحفظَ الأجسام لأن الخمر تهدمها وتقوّضها وتصيبها بوبيل الأمراض والعلل ، وحفظَ العقول لأنها تذهب بها وتسبب لمدمنها الضلالَ والخبال ، وحفظَ الأعراض لأن مَنْ سكر انفلت منه القياد ، فكان حيواناً أو كالحيوان .

ولقد رووا أن عجوزاً من الأعراب جلست إلى فتيان يشربون نبيذاً لهم ، فسقوها قدحاً ، فطابت نفسها وتبسمت ، ثم سقوها قدحاً ثانياً فاحمرّ وجهها

وضحكت ، فسقوها قدحاً ثالثاً فقالت : خبروني عن نسائكم ، أيشربن من هذا الشراب ؟ . قالوا : نعم . فقالت لهم : زَنَينَ وربِّ الكعبة .

وقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قاعدة لتعريف الخمر المحرمة . فقال : « كل مسكر حرام » . وفي حديث ثان : « كل شراب مسكر حرام » . وفي حديث ثالث : « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » . وإذا كان الحديث هنا قد جاء فيه ذكرٌ لصنفين من أصناف الخمر ، وهما البِتْع والمِزْر ، فليس معنى هذا أن غيرهما من أصناف الخمر حلال ؛ وهناك من يزعم أن الخمر في صدر الإسلام لم تكن إلا من العنب فقط ، والحديث الذي معنا يفند هذا الزعم ، ولو رجعنا إلى غيره من الأحاديث لوجدناها تذكر أصنافاً أخرى من الخمور حرمها الإسلام ، ونهى عنها النبي عليه الصلاة والسلام وقد ورد في الأحاديث هذه الأنواع :

« البِتْع » : — بكسر الباء وسكون التاء ، وقد تحرك بالكسر — وهو نبيذ العسل ، وقالوا إنه خمر أهل اليمن .

« المِزْر » : — بكسر الميم وسكون الزاي — وهو نبيذ يتخذ من الذرة ، وقيل من الشعير أو الحنطة .

« الفَضِيخ » : — بفتح الفاء وكسر الضاد — وهو الخمر المأخوذة من التمر والبسر .

« المُزَّة » : — بضم الميم وتشديد الزاي المفتوحة — وهي من خلط البسر والتمر ، وقيل هي الخمر التي فيها حموضة ، ويقال لها المزاء بالمد ، وفي حديث أنس : « ألا ان المُزَّات حرام » أي الخمور . وورد في الحديث أسماء للخمر بحسب أوعيتها ، وهي :

« المُزَفَّت » : وعاء من الأوعية التي تطلى بالزفت ، ثم ينتبذ فيه ، أي يصنع فيه النبيذ .

« الدُّبَاء » : — بوزن كلمة الرمان — وهو إناء القرع .

« النَّقير » : وهو إناء من الخشب ، وكان غالبه من النخل .

« الحَنْتَم » : — بفتح الحاء وسكون النون وفتح التاء — وهو الجرة المموهة بمادة ملساء . وقد يقال لها أيضاً : « الباذَق » : — بفتح الذال — تعريب كلمة (باذة) وهو اسم الخمر بالفارسية . وقد سئل ابن عباس عن الباذَق فقال : « سبق محمد صلى الله عليه وسلم الباذَق ، فما أسكر فهو حرام » : أي سبق قوله فيه وفي غيره من جنسه ، فإن كان الباذَق مسكراً فقد دخل في القاعدة العامة التي وضعها الرسول ، وهي : ما أسكر فهو حرام .

ويروى أنه حينما حُرِّمت الخمر التحريمَ القاطع الصريح كان في المدينة خمسة أشربة ، ليس فيها شراب العنب ، وقد ذكر عمر رضي الله عنه بعد نزول تحريم الخمر أنها من خمسة أشياء ، هي العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، ثم قال : « والخمر ما خامر العقل » أي خالطه وستّره وغطاه ، فجعله مختلا ، وإنما نذكر ذلك ونؤكده لنبطل شبهةَ من قال إن الخمر المحرمة هي خمر العنب فقط ، وأما غيرها فلا تكون حراماً إلا إذا أسكرت ، وقد قال ابن رجب الحنبلي : عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كل مسكر حرام . وإلى هذا القول ذهب جمهور من علماء المسلمين ، من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من علماء الأمصار ، وهو مذهب مالك والشافعي والليث والأوزاعي وأحمد وإسحاق ومحمد بن الحسن وغيرهم ، وهو مما أجمع على القول به أهلُ المدينة كلهم ، وخالف فيه طوائف من علماء أهل الكوفة ، وقالوا : إن الخمر إنما هي خمر العنب خاصة ، وما عداها فإنما يحرم منه القدرُ الذي يسكر ، ولا يحرم ما دونه .

وما زال علماء الأمصار ينكرون عليهم ذلك ، وإن كانوا في ذلك مجتهدين مغفوراً لهم ، وفيهم خلْق من أئمة العلم والدين . قال ابن المبارك : ما وجدت

في النبيذ رخصة عن أحد صحيحة ، إلا عن إبراهيم ، يعني النخعي . ولذلك أنكر الإمام أحمد أن يكون فيه شيء يصح ، وقد صنف كتابَ الأشربة ولم يذكر فيه شيئاً من الرخصة ، وصنف كتاباً في المسح على الخفين ، وذكر فيه عن بعض السلف إنكاره ، فقيل له : كيف لم تجعل في كتاب الأشربة الرخصة كما جعلت في المسح ؟ . فقال : ليس في الرخصة في السكر حديث صحيح » .

وقد سوّى الرسول عليه الصلاة والسلام بين كثير الخمر وقليله في التحريم فقال : « وما أسكر كثيرُه فقليله حرام » .

وقال أيضاً : « كل مسكر حرام ، وما أسكر الفَرَق فملء الكف منه حرام » . والفَرَق (بفتح الفاء والراء) مكيال يسع تسعة عشر رطلاً ، وهي اثنا عشر مُدّاً ، أو ثلاثة آصُع عند أهل الحجاز ، وقيل الفَرَق خمسة أقساط ، والقسط نصف صاع ، وأما الفَرْق (بفتح الفاء وسكون الراء) فهو مئة وعشرون رطلا .

وفي رواية أخرى : « ما أسكر الفرق منه فالحُسْوة منه حرام » . والحُسْوة (بضم الحاء) الجرعة من الشراب ، بقدر ما يحسى مرة واحدة .

* * *

وقد تكرر ذكر الخمر في القرآن الكريم مع الاشارة إلى خبثه وسوئه ، فنزل أولاً قول الله تبارك وتعالى في سورة النحل : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً ، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » . وفي هذه الآية إشارة إلى سوء استخدام الثمرات والأعناب ، حين يستخرج منها السكَر ، وهو ما يُسْكِر ، وإن مقابلة السكر بالرزق الحسن لدليل على أن السكر ليس بحسن ، ولعل هذا هو السر في اختتام الآية بقوله تعالى : « إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » .

ثم نزل قوله تعالى في سورة البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » . وهنا نص القرآن بوضوح على أن الخمر فيها إثم كبير ، وما أشار إليه من منافعها إنما هو بحسب تقدير القوم المتجرين فيها المنتفعين بها انتفاعاً مادياً يلزم أن يضحوا به في سبيل تجنبهم الإثمَ الكبير .

ثم نزل قول الله تعالى في سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . وكان هذا على إثر ما حدث من دخول بعضهم في الصلاة وتخليطه فيها بسبب سكره ، فكان من الطبيعي أن يشوه القرآن الكريم صورةَ هذا العمل الأثيم .

ثم نزل قول الله تعالى في سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوةَ والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . فهل أنتم منتهون » .

والخمر توقع العداوة والبغضاء . لأن من شربها سكر . ومن سكر اختل عقله . ومن اختل عقله لم يحترم ديناً ولا قانوناً ولا نظاماً ، فقد يعتدي على الناس في حرماتهم وأموالهم وأنفسهم . فتتوالد العداوة والبغضاء من وراء ذلك . والخمر تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، لأن من سكر وفقد عقله لا يُنتظَر منه أن يذكر الله . بل هو ينساه ، ولا ينتظر منه أن يقيم الصلاة ، لأنه سيكون سادراً في غيه وهواه .

ولقد جاء في الحديث أن مدمن الخمر كعابد وثن . وكأن معنى هذا النص أن مدمن الخمر يتعلق بها قلبه ، وتذوب فيها شخصيته . وتضعف أمامها

مقاومتُه . كالضال الذي توهم أن الوثن يستحق العبادة فعكف عليه وهام به .

* * *

ومن لؤم الذين يشربون الخمور جهاراً أو من وراء ستار أنهم يخادعون الله تعالى وهو خادعهم ، فيوهمون الناس أن الأصناف التي يشربونها اليوم ليست من الأصناف التي حرمها الإسلام ، لأن الإسلام لم يذكر تحريم « الويسكي والكونياك ، والشمبانيا » وغيرها ، إذ لم تكن هذه الأسماء موجودةً في عهد التشريع ، مع أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يحدثنا عن هذا الاحتيال الذي وقع بعد عهده بأجيال فيقول : « ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها . » .

ثم وضع الرسول لنا قاعدة التحريم في هذا الباب فقال في الحديث المتفق عليه كما أشرنا من قبل : « كل شراب أسكر فهو حرام » .

ومن لؤمهم كذلك أن يقولوا إن « النبيذ » المعروف لهم اليوم حلال . وقد أباحه بعض الفقهاء ، ولكن النبيذ المذكور في كتب السيرة الإسلامية هو نقيع التمر أو الزبيب الذي لا إسكار فيه ، فهو مثل « الخُشَاف » المعروف اليوم . وعن أنس قال : سقيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بقدحي هذا الشراب كله : العسل والنبيذ والماء واللبن . فهل يُعقَل أن يشرب نبي الطاهرين المطهرين شراباً يسكره ؟ .

ومن لؤمهم أيضاً أنهم يتعللون في شربها بأنها دواء لمرض أو علاج لعلة ، وهذا مكر يمكرونه بين الناس ، فإنهم يشربونها للسكر والإدمان ، وللذة والطرب ، وقد سئل الرسول عن التداوي بالخمر فقال : إنها داء وليست بدواء .

ولما كانت الخمر بهذه الدرجة الخطيرة الخسيسة حذر الرسول منها تحذيراً

شديداً حيث قال : « اجتنبوا الخمر ، فإنه والله لا يجتمع والإيمان أبداً إلا يوشك أحدُهما أن يخرج صاحبَه » . ولا عجب فالخمر أم الخبائث ومفتاح الشرور وباب البلايا، ولقد روى بعض كتب السنة أن رجلاً استدرجته امرأة فاجرة وغلقت الأبواب ، وكأنها أرهبته حين خيرته بين أمور ثلاثة : أن يشرب كأساً من خمر كان عندها ، أو يقتل غلاماً كان معها ، أو يفعل معها الفاحشة ، وكأنما أراد الرجل أن يختار في ظنه أخفَّ الأمور ، فشرب الخمر ، فلما دارت رأسه زين له الشيطان أن يواقع المرأة فأقدم على ذلك ، وكأنما خاف من الغلام أو ضاق به فقتله ، فكانت الخمر سبباً في الشر العظيم والبلاء المستطير. ولذلك لا يدمن الخمر إلا من ضل ضلاله وساء حاله، وكأن هذا سبب في أن السنة النبوية تخبرنا بأن شارب الخمر يجلد أربعين ، ويكون الجلد بالنعال .... نعم بالنعال ، لأن المرء الذي أهدر آدميته وأذهب عقله لا يستحق إلا الحذاء ، وشتان بين إنسان يحافظ على عقله وكرامته ، وبين حشرة تأبى إلا إهلاك نفسها وسواها .

* * *

وهناك من يرى أن مقاومة الخمر ومهاجمتها لون من الجمود والتأخر . لأن الخمر قد شاعت وانتشرت . وأصبح من العبث الوقوف في وجهها ، وهذا منطق غريب فاسد مقتضاه أن النار إذا زادت في الاشتعال تركناها حتى تأتي على الأخضر واليابس . وما هكذا يكون المصلحون ، ولا الذين يغارون على الفضائل والأخلاق . فهذا عمر بن الخطاب نراه حينما شاهد أن عدد الذين ينحرفون فيشربون الخمر قد زاد عما كان عليه في عهد النبوة يضاعف حد الشارب فيزيده من أربعين جلدة إلى ثمانين ، لأن التوسع في الذنب يستتبع التوسع في العقاب .

إن الله جل جلاله قد خلق لنا الحلوَ اللذيذَ الطيب الطاهر الحلال من

ألوان الشراب . فخلق اللبن الذي يخرجه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . وخلق العسل الذي يخرجه من بطون النحل شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس ، وخلق الماءَ العذب الفرات الذي يروي ويمتع ، وخلق عصير الفواكه وما أكثرها وما أكثر منافعها .

ولقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه يدخل بستان « بيرحاء » لأبي طلحة بجوار المسجد النبوي ، ويشرب من ماء فيه طيب ، كأنه يحبه ويتلذذ به ، وكان الماء العذب يُستعذَب للنبي من عين تسمى « بيوت السقيا » على يومين من المدينة . وقيل إنها قرية بين مكة والمدينة ، فأين هذا الهدى الكريم من ولوع الإنسان بإفساد الصالح وتعويج المستقيم وتعقيد السهل ؟ .... كان الطعام لسد الجوعة ، فجعله للتخمة والبطنة ، فتعددت ألوان الأكل ، فتكاثرت الأمراض، وتضاعفت العلل. وكان الشراب للري ودفع الظمأ ، فاصطنع الإنسان ألواناً منه لقتل العقل وإثارة الشهوة ، وكانت الثياب لستر العورة ، فجعلها الرجل للزينة الكاذبة والفخر الزائد ، وجعلتها المرأة للاغراء والإثارة ، فأي شقاء جره الإنسان على نفسه بهذا الانحراف وهذا الإسراف ؟ ..

نسأل الله جل جلاله أن يغنينا بحلاله عن حرامه ، إنه الهادي إلى سواء السبيل .

رذائل تعيب الأخوة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تَحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عبادَ الله إخواناً . المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى ها هنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كلُّ المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

(رواه مسلم) .

* * *

هذا الحديث الجليل يحذر المسلمين طائفةً من الرذائل التي تعيب الأخوة بينهم ، ومن مجموعة من الآفات التي تفسد الروابطَ التي تجمعهم وتلم شملهم ، وقد قال الحديث أول ما قال : « لا تحاسدوا » : أي لا يحسد بعضُكم بعضاً ، والحسد هو تمني زوالِ النعمة عن الغير ، وكراهية جريان الخير إلى الناس ، والحاسدون أنواع ، فمنهم من يبغي على أخيه فيحاول بالقول أو بالفعل أو بهما معاً أن يزيل النعمةَ عنه ، ومنهم من يسعى لنزع النعمة من أخيه وضمّها إلى نفسه ، ومنهم من يسعى لنزعها عن المحسود ولو انتقلت إلى غير الحاسد .

والحسد كان أولَ جريمة ارتكبت عقب خلق آدم عليه السلام . حيث حسد إبليس آدم على ما ساق الله إليه من فضل وتكريم ، ولقد أشار القرآن الكريم في أكثر مـــن موطن إلى أن الحسد من صفات اليهود ، وقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إياكم والحسدَ فإن الحسد يأكـــل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقد روي أن الله تعالى لا يؤاخذ الإنسان إذا تحرك في صدره شعورُ الحسد ، ولكنه لم يستجب له بقول آثم أو فعل حرام.

وهناك فرق بين الحسد والغبطة ، فالحسد هو ما قد علمناه ، والغبطة هي أن يتمنى الإنسان أن يكون له ما يعجبه مما عند غيره، دون أن يتمنى زوالَ النعمة عن صاحبها .

« ولا تناجشوا » : والنَّجَش في الأصل الخداع ، وحقيقته أن يخدع الصائدُ الطيرَ ليتمكن من اصطياده بالمكر والحيلة . والنجش في المعـــاملات هو ما يحدث فيما يشبه « المزايدات الصورية » حيث يزيد الإنسان من ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها ، ولكنه يرفع ثمنها تظاهراً بالرغبة فيها ، حتّى يوقع في شرائها غيرَه بثمن مرتفع لأنه محتاج إليها ، وبذلك ينفع الناجش البائعَ لصلة له به ، أو فائدة له عنده ، ويضر المشتّري .

وقال ابن أبي أوفى : « الناجش آكل ربا خائن » . وقال بعض الفقهاء إن البيع في هذه الحالة يكون فاسداً ، وبعضهم أثبت للمشتّري حقَّ الخيار في هذه الحالة إذا كان لم يعلم بما وقع وغُبن فيه غبناً فاحشاً غير معتاد ، فإما أن يرد البيع ، وإما أن يأخذ السلعةَ بثمنها دون الزيادة، والباقون قالوا بصحة البيع وإن كان منهياً عنه.

وقيل إن معنى « لا تناجشوا » : لا يخدع بعضكم بعضاً بالمكر والاحتيال .

والرسول يقول : « من غشنا فليس منا ، والمكر والخداع في النار » . ومن التناجش هنا التدليس ، وكتمان العيوب في السلعة ، وغش الناس .

* * *

« ولا تباغضوا » : أي لا يبغض بعضكم بعضاً ، وكيف يجوز أن تتباغضوا وأنتم إخوة ، والإخوة يتحابون ولا يتباغضون ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنون حتى تحابوا » . والتآلف نعمة كبيرة امتن الله بها على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

« هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم » ، وامتن الله بها على المؤمنين فقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » .

ومن الأسباب الداعية للتباغض النميمة والغيبة والافتراء . على أنه يجوز للمسلم أن يبغض غيره إذا كان البغض لله ، كأن يراه يرتكب إثماً أو يُصر على معصية .

* * *

« ولا تدابروا » : والمراد بالتدابر التخلص الذي يؤدي في العادة إلى أن يُعْرِض كلٌ عن الآخر بوجهه ، فيوليه دبره ، ولذلك جاء في بعض الروايات بدل كلمة : « ولا تدابروا » كلمة « ولا تقاطعوا » من القطيعة بمعنى الهجران . وجاء في الحديث : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا . وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » . ولكن يجوز للمسلم أن

يهجر فوق ثلاث إذا ارتكب أخوه جرماً أو إثماً ولم يقلع عنه ، وكذلك يجوز الهجران للتربية والتأديب ، ويجوز هجر أهل المعصية بل قد يجب إذا كان القرب يؤدي إلى المعصية .

* * *

« ولا يبع بعضكم على بيع بعض » : ومعناه أنه يحرم على المسلم إذا رأى أخاه يبيع شيئاً أن يسارع فيعرض على المشتري مثل السلعة بسعر أقل أو مماثل ، مع محاولة تفضيل سلعته على سلعة أخيه ، وقد جاء في الحديث : « لا يبع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه ، إلا أن يأذن له » . وجاء فيه :

« المؤمن أخو المؤمن ، فلا يحل لمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يَذَر » .

وقد قيل إن هذا النهي خاص بالمسلم مع المسلم ، بمعنى أنه يجوز للمسلم أن يبيع على بيع غير المسلم ، ولكن كثيراً من الفقهاء قرروا أن هذا عام يشمل المسلم والكافر . وقال بعض الأئمة إن البيع والزواج في هذه الحالة يكونان باطلين .

* * * *

« وكونوا عباد الله إخواناً » : كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقصد أن الرذائل السابقة هي التي تقضي على الأخوة الإسلامية التي يجب أن تقوم وتقوى، كما يأمر المسلمين بأن يتخذوا من الوسائل ما يجعلهم على الدوام إخوة ، كالتحاب ، والتعاون ، والسلام ، والتهادي ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس ، وعيادة المريض .

* * *

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره » . يؤكد هنا الأخوة الإسلامية ، ويأمر المسلم بأن يتجنب ظلم أخيه في مال أو عمل أو قول ، وعليه أن ينصره إذا استحق النصر ، ويدافع عنه ، ويصون حرمته ، والحديث يقول : « من نصر أخاه بالغيب وهو يستطيع نصره ، نصره الله في الدنيا والآخرة » .

ويجب على المسلم ألا يكذب على أخيه المسلم ، بل يقول له دائماً الحق والصدق ، والرسول يقول : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب » . ويجب عليه ألا يحتقر أخاه أو يستهين به .

* * *

« التقوى ها هنا » : ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، حيث كرر القول والإشارة ثلاث مرات ، ومعنى هذا أن العبرة ليست بالمناظر والمظاهر ، فربما بدا الإنسان في شكله متواضعاً أو حقيراً . ولكنه كبير في عقله ووجدانه ؛ وربما بدا الشخص أنيقاً جميل الصورة ، ولكن قلبه هواء أو خلاء ، فلا تكون له قيمة تذكر .

* * *

« بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » : أي يكفيه من الشر احتقاره ، أي إن احتقار المسلم شر كبير ، كأنه لا يحتمل الإنسان معه غيره ، لأنه ثقيل وبيل ، وينشأ الاحتقار في هذا الموطن عادة من الكبر والخيلاء ، مع أن الكبرياء رداء الله تعالى ، ومن أراد أن يقاسم الله هذا الرداء قصمه ولا يبالي .

* * *

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » : أي أنه لا يجوز

لمسلم أبداً أن يعتدي على نفس أخيه المسلم ، أو على ماله ، أو على عرضه وحرماته . ومن كلام يحيى بن معاذ الرازي : « ليكن حظ المؤمن منك : إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تمدحه فلا تذمه » .

* * *

والخلاصة أن المسلم مطالَب بصيانة أخيه في الإسلام والحرص عليه والدفاع عنه ، كما أنه منهي عن الإساءة إليه بأي وجه من الوجوه ، وبهذه المعاملة الكريمة يصبح المسلمون جسداً واحداً قوياً متيناً ، مصداقاً لقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

* * *

وقد جاء في الحديث روايات متقاربة نذكرها فيما يلي :

١ ـ المسلم أخو المسلم ، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه ، التقوى ها هنا (ويشير إلى قلبه) ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم .

٢ ـ المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، وحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم .

٣ ـ لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً .

٤ ـ كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، والتقوى ها هنا (وأومأ بيده إلى القلب) وحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم .

نسأل الله عزت قدرته أن يوفقنا لمكارم الأخلاق ، إنه هو السميع المجيب.

فريضة الحج

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس ، إن الله قد فرض عليكم الحجّ فحجوا ، فقال رجل : أكلَّ عام يا رسول الله ؟ . فسكت حتّى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلتُ نعم لوجبت ، ولما استطعتم . ثم قال : ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » .

(رواه البخاري ومسلم) .

* * *

لقد أقام الله عز وجل دينَه على قواعد ودعائم ، هي شهادة التوحيد : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام من استطاع إليه سبيلاً ، وفي هذا الحديث خصّ النبي صلى الله عليه وسلم الحجَّ بالحديث ، لبيان مكانته ، وللفت الأبصار والبصائر إليه ، ولحث الناس عليه ، وكان الحديث سبباً في بيان برهان من

البراهين الكثيرة الدالة على سماحة الإسلام ويسره ، حيث لم يكلف الناس بما يشق عليهم ، أو بما يخرج عن طاقتهم وقدرتهم : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

وقد وجه الرسول الخطابَ إلى أتباعه والمؤمنين بالإسلام فقال لهم : « أيها الناس ، إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا » ، وفي هذا بيان لحكم الحج من جهة ، ومطالبة بأدائه من جهة أخرى ، فقال لهم النبي إن الله قد جعل الحج فرضاً عليكم ، وواجباً مطلوباً منكم ، فأدُّوا ذلك الواجب إذا قدرتم عليه . والحج في اللغة هو مطلق القصد . وقيل إنه تكرار القصد إلى شيء معظّم ، ولكن تعريفه في الشرع هو : قصد الكعبة الحرام للقيام بأعمال مخصوصة حددها الدين في زمن معين .

وقد ثبتت فرضية الحج بالقرآن الكريم، فذلك حيث يقول : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » ، وحيث يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » . كما ثبتت هذه الفرضية أيضاً بالحديث النبوي ، فذلك حيث يقول الرسول : « بُنِيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ».وحيث يقول: «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا » . وكذلك أجمع المسلمون على فرضية الحج . واختلفوا في تعيين ابتداء فرضيته ، فقيل إنه فرض سنة خمس ، وقيل سنة ست ، وصحح ابن القيم والعيني أنه فرض سنة تسع .

وخلاصة أعمال الحج — باختصار — هي أن يحرم الإنسان عند المكان المحدد له وهو الميقــات ، فيخلع من الثياب والملابس المخيط والمحيط ،

ويكتفي برداء وإزار ، ثم يلبي ناوياً الحج ، فيقول ثم يكرر : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، فإذا وصل الكعبة طاف حولها طوافَ القدوم سبعة أشواط ، مبتدئاً من أمام الحجر الأسود ، جاعلاً له على يمينه عند ابتدائه الطواف ، فإذا انتهى من الطواف صلى ركعتين عند مقام إبراهيم ، ثم اتجه نحو زمزم فشرب من مائها ما أراد ، ثم واصل مسيرَه حتى يبلغ المسعى بين الصفا والمروة ، فيسعى سبعةَ أشواط بينهما ، داعياً بما تيسر له ، فإذا كان اليوم الثامن من ذي الحجة ، وهو المسمّى « يوم التروية » اتجه إلى « منى » ، وبات فيها ،وفي اليوم التالي يتجه إلى عرفات فيقف فيها ، فإذا غربت الشمس نزل من عرفات واتجه إلـى « المزدلفة » وبات فيها ، وفي الصباح يتجه إلى « المشعر الحرام » ويدعو ربه ، ثم يذهب إلى « منى » ، وهناك يرمي « الجمرات » وينحر ذبيحته ، ثم يذهب فيطوف بالكعبة « طوافَ الإفاضة » ، وبذلك تنتهي أعمال الحج فإذا هم بالعودة طاف بالكعبة « طواف الوداع » ، ولهذه الأعمال التي أجملتها تفاصيلُ في كتب الفقه ، تبين كيفيةَ أدائها وما يتعلق بها . فلما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا » . قال رجل : « أكلَّ عام يا رسول الله » ؟ . وهذا السائل هو الأقرع بن حابس فيما يروى، واسمه فراس،وكان من المؤلفة قلوبهم،ثم حسن إسلامه، ومعنى سؤاله هو: أيجب أداءُ الحج في كل سنة ؟ . فسكت النبي صلوات الله وسلامه عليه ، عن إجابة هذا السائل ، حتى كرر سؤالَه ثلاث مرات ، والحكمة في سكوت النبي هذا الوقت هي الإشارة إلى أن السؤال وقع غير موقعه ، لأن النبي لم يصرح بتكرار الحج ، ولم يتعرض له ، ولم يشر إليه،فلم تكن هناك ضرورة ليسأل السائل عن عدد هـذا الحج : أهو في كل عام ، أم في أكثر ، أم في أقل ؟ » والرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بتبليغ الأحكام عن ربه إلى الناس في وضوح وجلاء.بلا نقصان أو كتمان،لأن «الأمانة» صفة أساسية في الرسول ، فلو كان تكرار الحج واجباً لما أغفل الرسولُ النصَّ عليه .

وقد سكت الرسول حتى قال الأقرع سؤالَه ثلاث مرات ، وهنا وجد النبي أن السائل مُصِرٌّ على سؤاله ، ولم يفهم من سكوت النبي معنى التوجيه إلى عدم الخوض في هذا الأمر الذي لم يتعرض له الرسول ، وأدرك النبي أن السائل لن يقنع إلا بجواب صريح محدد ، فأجابه بقوله : « لو قلتُ نعم لوجبت ولما استطعتم » . أي لو أجبتك بكلمة « نعم » لأصبحت الحجة فرضاً واجباً عليكم في كل سنة ، لأنني لو نطقت بهذا لكنت مبلغاً عن الله تعالى فيه ، إذ لا يمكن أن أقول شيئاً من عند نفسي : « وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى » .

ولو أن حكم الله جاءني بأن الحج مفروض في كلّ عام ، وبلغتكم ذلك لعجزتم عن فعله ، لما فيه من جهد ومشقة ، لأن الناس لا يتيسر لهم أداءُ هذا بسهولة ، وفيهم النائي البعيد المكان ، وفيهم الضعيف ، وفيهم الفقير ، وفيهم الكثير الأشغال ... إلخ . ومن هذا نفهم أن الحج لا يجب إلا مرة واحدة في العمر ، ولو حج الإنسان بعد ذلك كان حجه تطوعاً ، كما نستخلص من هنا عبرة بالغة هي أن العاقل لا ينبغي له أن يسأل عما قد يرهقه أو يسوؤه ، والله تعالى يقول :

« لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » .

ثم قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » : أي اتركوني واعفوني من التساؤل عما لم يفرضه الله عليكم ولم يوجبه . اتركوني ما دمت تاركاً تكليفكم بشيء جديد، فما دمت لم أكلفكم بشيء فلا تبحثوا عنه لتشقوا على أنفسكم ، وإني أبلغكم كلّ ما فرضه الله عليكم أو طلبه منكم ، ولن أكتم عنكم شيئاً ، وتذكروا أن الأمم من قبلكم قد هلكوا بسبب تعنتهم وتشديدهم على أنفسهم ، بكثرة سؤالهم دون حاجة ، بل هم يسألون تشدداً أو تنطعاً ، وكذلك أهلكهم اختلافُهم على أنبيائهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -

حيث يفتري هؤلاء الناس على أولئك الأنبياء « ما ليس بحق ، أو يحرفون ما قالوه ، أو يراجعونهم مراجعةَ التعنتِ والتنطع ، وبذلك يفتحون على أنفسهم أبواب الضلال المؤدية إلى استحقاقهم الهلاك .

* * *

وهنا نتذكر ما كان من شأن بني اسرائيل ، حين تعنتوا وتنطعوا فشدد الله عليهم ، إذ أمرهم الله في إحدى المناسبات أن يذبحوا بقرة ، ولو استجابوا بلا جدال ولا مراء ، وذبحوا أي بقرة لكفتهم ، ولكنهم سألوا : ما هي ؟ . فكان الجواب : « إنها بقرة لا فارض ، ولا بكر عوانٌ بين ذلك » . والفارض المسنة ، والبكر الفتية ، والعوان المتوسطة العمر .

ولكنهم عادوا يسألوان : ما لونها ؟ . فكان الجواب : « إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » . فاقع لونها : أي شديدة الصفرة . ولم يقلعوا عن تشددهم وتنطعهم ، بل عادوا يقولون : « ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا » . فكان الجواب : « إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث، مسلّمة لا شية فيها » . والذلول : السهلة الانقياد . وتثير الأرض : تقلبها للزراعة . والحرث : الزرع . ومسلّمة : مبرأة من العيوب ، ولا شية فيها : أي لا لون فيها غير الصفرة .

وتعب المتعنتون حتى وجدوها ، « فذبحوها وما كادوا يفعلون » .

* * *

ثم قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : «فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » : أي إذا بلغتكم عن ربكم أمراً أوجبه عليكم ازمكم أن تستجيبوا وتؤدوا هذا الأمر على قدر طاقتكم

واستطاعتكم ، ومن عجز لمرض أو لضرورة أو لحائل فإنه معذور لا حرج عليه ، وإذا حذرتكم شيئاً نهاكم عنه ربكم تبارك وتعالى وجب عليكم أن تحرصوا على اجتنابه والابتعاد عنه .

ونفهم من هذا أن الواجبات محدودة بحدود الطاقة والاستطاعة . لأن الله الرحمن الرحيم لا يكلف عبادَه بما لا يطيقون ، وأما النواهي فيلزم اجتنابها باستمرار ، لأن الواجبات من باب جلب المصالح ، وأما النواهي فهي من باب درء المفاسد ، والأصل الشرعي هو أن درء المفاسد أو دفع المضار مقدَّم على جلب المصالح أو تحقيق المنافع .

* * *

ونستخلص من هذا الحديث الأمور التالية :

١ ــ فريضة الحج واجبة على الرجال والنساء على السواء ، بشروطها المعروفة في الفقه .

٢ ــ الحج واجب مرةً واحدة في العمر بالنسبة للرجال والنساء على السواء .

٣ ــ الإنسان لا ينبغي له أن يسأل سؤال المتشدد أو المتعنت .

٤ ــ كثرة السؤال بلا داع ، مع كثرة الاختلاف ، مما يؤدي إلى الفساد والهلاك .

٥ ــ طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واجبة ، لأنها تبع لطاعة الله عز وجل .

٦ ــ الطاعة في مجال الواجبات مطلوبة بقدر الطاقة .

٧ ــ الابتعاد عن المحرمات واجب لازم .

* * *

هذا وقد وردت في الحديث روايات أخرى منها :

١ — عن ابن عباس أن الأقرع بن حابس سأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله ، الحج في كل سنة ، أو مرة واحدة ؟ . قال : بل مرة واحدة ، فمن زاد فهو تطوع .

٢ — عن ابن عباس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج . فقال الأقرع بن حابس : أفي كل عام يا رسول الله ؟ . فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، الحج مرة ، فمن زاد فتطوع .

وما دام صدر الحديث متعلقاً بالحج فيحسن أن نعرف جانباً من الأحاديث التي وردت في فضل الحج :

١ — سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ .

فقال : إيمان بالله ورسوله . قيل: ثم ماذا؟ قال :الجهاد في سبيل الله . قيل : ثم ماذا ؟ . قال : حج مبرور . (والمبرور هو المزدان بالطاعة ، فلا يرتكب صاحبُه فيه معصيةً ولو صغيرة) .

٢ — « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

٣ — « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّه » .

نسأل الله تبارك وتعالى حجَّ بيته الحرام ، وزيارة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ونعمةَ الاستقامة على هدى الإسلام .

قانون المعدة

عن المقدام بن معد يكرب قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيماتٌ يقمن صلبَه ، فإن كان لا محالةَ فثُلث لطعامه ، وثُلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه » .

(رواه أحمد والترمذي والنسائي)

* * *

قبل أن نعرض لشرح هذا الحديث النبوي الشريف نتعرف إلى معاني ما فيه من مفردات ، فالوعاء : هو ما يوعَى فيه الشيء ، أي يوضع فيه ليصان ويحفظ ، والمراد بالبطن هنا معدة الإنسان ، وما يتصل بها من أمعاء ، وقد سُمّيَ بطناً لأنه مستتر ، والباطن خلاف الظاهر ، والمِبطان هو الكثير الأكل العظيم البطن ، وكذلك يقال للعظيم البطن : البَطين . وقوله : « بحسب ابن آدم » أي يكفيه ، والباء في كلمة « بحسب » زائدة ، ويقال : حسبُه كذا ، أي كافيه ، واللَّقْم في الأصل يدل على تناول الطعام باليد للفم ، واللُّقَيْمات جمع لُقَيْمة ، واللقيمة تصغير لُقْمة ، وهي الجزء من الطعام يتناوله المرء بيده ليضعه في فمه .

والصلب هو الظهر : « ويقمن صلبه » أي يشددنه ويحفظنه ، ويجعلن صاحبه قادراً على الحركة والسعي . و « لا محالة » أي لا حيلة ، أو لا بد ، ومنه قول قس بن ساعدة :

أيقنتُ أنـــي لا محـــالةَ حيثُ صـــار القومُ صائــرْ

و « النَّفَس » : بفتح الفاء ، هو الهواء الذي يردده التنفس بين الجوف وخارجه .

ولقد ذكرتْ بعض المصادر الحديثية السبَب في قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث ، فروت عن عبد الرحمن بن المرقع أنه قال : « فتح رسول الله عليه وسلم خيبر ، وهي مخضرة من الفواكه ، فوقع الناس في الفاكهة (أي أكلوا منها فأكثروا) فغشيتهم الحمى ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إنما الحمى رائد الموت ، وسجن الله في الأرض ، وهي قطعة من النار ، فإذا أخذتكم فبرّدوا الماء في الشّنان (جمع شَنّ وهو قربة الماء) فصُبُّوها عليكم بين الصلاتين » ، يعني المغرب والعشاء . ففعلوا ذلك فذهبت عنهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم يخلق الله وعاءً إذا مُلِىء شراً من بطن، فإذا كان لا بد فاجعلوا ثلثاً للطعام ، وثلثاً للشراب ، وثلثاً للريح » أي الهواء .

* * *

وهذا الحديث في الحقيقة والواقع قانون محمدي إسلامي طبي رائع ، لو اهتدى المسلم بنوره لسلم من كثير من الأمراض والأسقام . وكأنما قد شرحه الحسن بأقصر عبارة حين قال : « يا ابن آدم ، كُلْ في ثلث بطنك ، واشرب في ثلثه ، ودع ثلثَ بطنك يتنفس ويتفكر ». ونلمح من عبارة الحسن هذه أنه

ليس بلازم أن يكون المراد من التقسيم في الحديث تقسيماً حسابياً متحجراً ، بحيث يوزن الطعام فعلاً بنسبة الثلث تماماً ، وكذلك الشراب والهواء ، ولكن المراد فيما نفهم — والله أعلم — أن يحسب الإنسان وهو يأكل حساباً لمقدار الطعام ، ومقدار الشراب ، ومقدار الفراغ اللازم لدخول الهواء إلى الرئتين ، وحدوث عملية التنفس بسهولة ، فالمعدة وعاء يدخله الطعام والشراب ، فلو ملأه الإنسان بالطعام وحده ، لم يجد الإنسان فيه الفراغ الذي يشغله الشرابُ ، والطعامُ محتاج إلى ماء ، كما أن الجسم نفسه محتاج إلى ماء .

وإذا ملأ الإنسان معدتَه وأمعاءه بالطعام والشراب ، فإن الأمعاء والمعدة تضغط على الصدر فيضيق ، فلا تتم عملية التنفس بسهولة ، ولعلنا نذكر أن المتخم يقول في العادة بعد امتلاء جوفه بالطعام والشراب : إنني لا أستطيع التنفس ..

* * *

ولقد كان المسلمون الأوائل يعتدلون في طعامهم وشرابهم ، ويبتعدون عن الإسراف في هذا المجال قدر استطاعتهم ، وروي عن عبدالله بن عمر في أكثر من رواية أنه كان في طعامه لا يبلغ حدّ الشبع ، وكأنه كان يهتدي بالقول المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » . وإنما كانوا يفعلون ذلك لأنهم لا يريدون أن يُذْهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، وهم يحرصون على سلامة حواسهم كما يحرصون على طهارة نفوسهم ، والاعتدال في الطعام والشراب هو الطريق القويم لصيانة الصحة وتحقيق السلامة .

وللتخفف من الطعام فوائد كثيرة تصورها الكلمات المأثورة التالية ، فقد قال قثم العابد : « كان يقال : ما قل طعام امرىء قط إلا رقّ قلبه ، ونديت

عيناه » . وقال عبد العزيز بن أبي داود : « كان يقال: ثلث الطعام عون على المسارعة إلى الخيرات » . وقال أبو عمران الجوني : « كان يقال : من أحب أن يُنَوَّر قلبُه فليقلَّ طعامَه » . وقال سفيان الثوري : « إن أردت أن يصح جسمك ، ويقل نومك ، فأقلل من الأكل » . وقال إبراهيم بن أدهم :

« من ضبط بطنَه ضبط دينه ، ومن ملك جوعَه ملك الأخلاقَ الصالحة ، وإن معصية الله بعيدة من الجائع ، قريبة من الشبعان ، والشّبَع يميت القلب » .

وقد وردت كلمات في ذم الشبع . قيل لأحمد بن حنبل : هل يجد الرجل من قلبه رقةً وهو شبع ؟ . فأجاب : ما أرى ... وقال أبو عبيدة الخواص :

« حتفُك في شبعك ، وحظك في جوعك ؛ إذا أنت شبعت ثقلت فنمت فاستمكن منك العدو ، فجثم عليك ؛ وإذا أنت تجوعت كنت للعدو بمرصد ». وقال عمرو بن قيس : « إياكم والبطنةَ فإنها تقسّي القلب » . وقال محمد ابن واسع :

« من قل طعامُه فهم وأفهم ، وصفا ورق ، وإن كثرة الطعام لَتُثْقِلُ صاحبها عن كثير مما يريد » . كما أن الإسراف في الطعام يؤدي إلى التخمة ، والتخمة تؤدي إلى كثرة التجشؤ ، وهو عمل منفر ، وقد تجشأ رجل عند الرسول فقال له : « كفَّ عنا جشاءك . فإن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة » .

ولنلاحظ أن الإنسان إذا تعود الامتلاء من الحلال أغرته نفسه بتناول الحرام ، وبذلك يقع في الإثم والمحظور ، ومن عوَّد نفسَه كثرةَ الطعام وتناول ألوانه المختلفة لا يسهل عليه بعد ذلك أن يقتصر على القليل أو المعقول من مقادير الطعام، وربما عرضت له ضائقة فلم يسهل عليه أن يحقق لنفسه ما اعتادت عن طريق مشروع ، فيسلك إليه طريقاً غير مشروع ؛ ولكنه لو اعتدل منذ بداية الطريق لألفت نفسه الاعتدالَ والاستقامة ، والشاعر يقول :

والنفس راغبةٌ إذا رغّبتها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنع

والبوصيري يقول :

والنفس كالطفل، إن تهمله شبَّ على حب الرضاع ، وإن تفطمه ينفطِمِ
فاصرف هواها ، وحاذر أن توليــه إن الهوى ما تولى يُصْمِ أو يَصِمِ

* * *

ومن المؤكد أن التخمة تؤدي إلى أمراض كثيرة ، ومنذ زمن بعيد قال الطبيب العربي المشهور الحارث بن كلدة : « الحِمْيَة رأس الدواء ، والبطنة رأس الداء » . وقال بعض الحكماء : لو قيل لأهل القبور : ما كان سبب آجالكم ؟ . لقالوا : التخمة . وقال بعض العلماء : إذا كنت بطيناً فأعدد نفسك زَمِناً حتى تَخْمَص » أي اعدد نفسك مريضاً بمرض مزمن حتى تتعود التخفف من الطعام .

ولا ننس أن الإنسان إذا أكثر من الطعام أكثر من الشراب ، فتأتيه المتاعب من جهتين : جهة الأكل الكثير ، وجهة الشراب الكثير ، ولو أنه اعتدل واستقام لما حدثت له العلل والأسقام ، كما أن كثرة الأكل تؤدي إلى الكسل والتراخي ، ولذلك قيل : لا تأكلوا كثيراً ، فتشربوا كثيراً ، فتناموا كثيراً ، فتخسروا كثيراً .

ومن أسباب العلة في هذا المجال إدخال الطعام على الطعام ، قبل أن تهضم المعدة الطعامَ الأول ، والحارث بن كلدة يقول : « الذي قتل البرية ، وأهلك السباع في البرية ، إدخالُ الطعام على الطعام قبل الانهضام » .

وقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » ، أي أن المؤمن يأكل باعتدال واقتصاد . فكأنه يأكل في معي واحد ، ولكن الكافر المتمرد على آداب الدين يأكل بنهم وشراهة فكأنه يأكل في سبعة أمعاء .

وليس معنى الدعوة إلى تقليل الطعام هنا هو أن يحرم الإنسان جسمَه ما يحتاج إليه من عناصر غذائية لازمة ، ومقادير من الطعام مناسبة ، إذ من الواجب على الإنسان أن يحفظ نفسه من الهلاك والمرض والضعف والهزال .

« ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، وينبغي له أن يستوفي نصيبه الملائم من الطعام حتى يصح جسمه ويعتدل . ولكن المراد هو ألا يجعل الإنسان أكبرَ همه في الحياة ملءَ بطنه بالطعام ، وأن يتذكر قول مالك بن دينار :

« ما ينبغي للمؤمن أن يكون بطنُه أكبرَ همّه ، وأن تكون شهوته هي الغالبة » .

* * *

ولا شك أن هناك كثيرين من المرضى والضعفاء والمهزولين ينبغي لنا أن نحثهم على الطعام ، حتى يستردوا صحتهم وقوتهم ، وأن هناك كثيرين من أهل الشره والإسراف من واجبنا أن نقول لهم : حسبكم ، أربعوا على أنفسكم.

ومن البديهي أن هناك أناساً قد يضطرون إلى التوسع في الطعام لوجود ضعف يلزمه علاج بذلك ، أو وجود علة تقتضي التوسع ، أو القيام بمجهود عضلي يستنفد طاقات غذائية ينبغي أن تتوافر وتعوض ، وهكذا ....

وقد يناسب هنا أن نورد جانباً مما قاله حجة الإسلام الإمام الغزالي عن « شهوة البطن » ، وحسبنا من كلامه العبارة التالية :

« أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أُخرجَ آدمُ عليه السلام وحواء من دار القرار ، إلى دار الذل والافتقار ، إذ نُهِيَا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها ، فبدت لهما سوآتهما ، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ، ومنبت الأدواء والآفات إذ يتبعها شهوة الفرج،وشدة الشبق إلى

المنكوحات ، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات ، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ، ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد ، والعداوة والبغضاء . ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء ، وكل ذلك ثمرة أعمال المعدة ، وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء . ولو ذلّل العبد نفسه بالجوع ، وضيّق به مجاري الشيطان ، لأذعنت لطاعة الله عز وجل » إلخ .

* * *

وإذا كنا نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد ذم أقواماً يأتون بعده، وذكر أنهم يظهر فيهم السِّمَن ، ونعلم أن النبي رأى رجلاً سميناً متخماً فجعل يومىء إلى بطنه ويقول: لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً... إذا كنا نعلم هذا فمن حقنا أن نعلم إلى جواره أن فريقاً من الناس يصابون بالسمنة ، لا لإسرافهم في الطعام ، بل لأسباب أخرى صحية، وأمثال هولاء لا يعابون على سمنتهم ما داموا لم يسرفوا ولم ينحرفوا . والله يهدي إلى صراط مستقيم .

من فضل الله على عباده

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

(رواه البيهقي وابن ماجه)

* * *

من مظاهر رحمة الله تبارك وتعالى أنه أراد بعباده اليسر ، ولم يرد بهم العسر ، وأنه لم يكلف نفساً إلا وُسعها ، وأنه لم يجعل على عباده في الدين من حرج ، إذ لم يطالبهم بما لا يطيقون ، ولم يؤاخذهم بما يخرج عن إرادتهم وقدرتهم ، وهذا الحديث الشريف يؤكد ذلك ، لأنه يذكر لنا ثلاثة أحوال لايؤاخذ الله فيها الناس، وهي حالة الخطأ ، وحالة النسيان ،وحالة الإكراه.

ومعنى « تجاوز » : عفا عنهم ، من قولهم : جازه يجوزه إذا تعداه، وفي مادة هذه الكلمة معنى التساهل والتخفيف ، وقد جاء في الحديث : « كنت أبايع الناس ، ومن خُلُقي الجوَاز » أي التساهل والتسامح في البيع والاقتضاء ، ومنه الحديث : « أسمع بكاء الصبي فأتجوَّزُ في صلاتي » أي أخففها وأقللها ، وكذلك الحديث : « تجوزوا في الصلاة » أي خففوها .

وهذا العفو من الله عز وجل تفضلٌ على أمة نبيه المؤمنة ، وتكريم لرسوله عليه الصلاة والسلام في أشخاص أتباعه .

و «الخطأ» : هو أن ينوي الإنسان أن يفعل شيئاً جائزاً له ، ثم يقدم على الفعل ، فيصادف فعلُه غيرَ ما نواه وقصده ، وعرّفه بعضهم بأنه العدول عن الجهة ، ويقصد به هنا أن يريد الإنسان ما يحسن فعلُه ، ولكن يقع منه خلاف ما يريد ، فهو قد أصاب في الإرادة ، وأخطأ في الفعل ، وعرفه آخرون بأنه فعلُ عمل يجب تركُه من غير قصد . وقد يستعمل الخطأ بمعنى الذنب ، لأن المعاصي توصف بالخطأ ، كما قد يطلق على التعرض لأسباب الخطأ من باب إطلاق اسم المسبب على السبب .

و « النسيان » : هو أن يكون الإنسان ذاكراً لشيء فينساه عند الفعل ، وهو المراد هنا . وقد يراد بالنسيان الترك كما في قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » . أي تركوا طاعتَه فتركهم من ثوابه ، وقد يطلق على التعرض لأسباب النسيان من باب إطلاق اسم المسبب على السبب ، وقد يراد بالنسيان ترك الإنسان لما كان يعرفه ، إما لضعف أو غفلة .

ومثال الخطأ أن يضرب بقذيفته صيداً حلالاً فيخطىء ويصيب إنساناً ، ومثال النسيان أن يأكل الإنسان أو يشرب ناسياً وهو صائم ، ولذلك جاء في الحديث : « من أكل أو شرب ناسياً فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » .

فإذا كانت نية الإنسان الخير ، وإرادته للخير ، ثم أخطأ أو نسي ، فإن الله تعالى يعفو عن ذلك ولا يعده ذنباً أو إثماً ، ولذلك جاء في الصحيحين : « إذا حكم الحاكم ثم اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد وحكم وأخطأ فله أجر » .

وقد ورد ذكر الخطأ والنسيان في قول القرآن المجيد : « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا » . وفي صحيح مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قال الله تعالى : قد فعلت . أي استجاب الله لعباده بعد أن دعوه بذلك .

وبعض المفسرين يرى أن النسيان والخطأ يؤاخذ الله عليهما ، ويستدل هذا البعض بالآية السابقة . ومنهم الإمام الشيخ محمد عبده الذي نقل عنه « تفسيرُ المنار » أنه عاب على من قال إن الخطأ والنسيان لا مؤاخذة عليهما ؛ لأن الناسيَ والمخطىء لا إرادة لهما فيما فعلاه نسياناً أو خطأ ؛ وأنه ذكر أن هذا الكلام يوجد في كتب الأصول والكلام . ويتبعه من المناقشات ما يبعد به عن حدود الإفهام . وأن الإمام رد على ذلك بأن الإنسان إذا رجع إلى نفسه . وتأمل الأمر في ذاته . علم أن الناسي يصح أن يؤاخَذ . فيقال له : لم نسيت ؟ . فإن النسيان قد يكون من عدم العناية بالشيء . وترك إجالة الفكر فيه ؛ وترك ترديده في النفس ليستقر في الذاكرة فتبرز عند الحاجة إليه ، ولذلك ينسى الإنسان ما لا يهمه . ويحفظ ما يهمه .

فإذا كان النسيان غير اختياري فإن سببه المشار إليه اختياري ، ولذلك يؤاخذ الناسُ بعضُهم بعضاً على النسيان، ولا سيما نسيان الأدنى لما يأمر به الأعلى ، فإذا كلفت من تلزمه طاعتُك بأن يأتيك في موعد محدد ونسيه ، فإنك تؤاخذه وتصفه بالإهمال وعدم العناية .

وكذلك ذكر الإمام أن الخطأ ينشأ من التساهل وعدم الاحتياط والتروي ، ولذلك أوجبت الشريعة الضمانَ في إتلاف الخطأ ، والدية في جنايته . فإذا رمى الإنسانُ صيداً وأصاب إنساناً فقتله كان مؤاخَذاً في الشريعة والقانون ، فثبت أن المؤاخذة على الخطأ والنسيان مما جاءت به الشريعة ، وجرى عليه عرف الناس في معاملاتهم وقوانينهم ، ولو لم يكن كل من الناسي والمخطىء مقصراً لما كان هذا .

وكما جاز ذلك وحسن في الدنيا يجوز أن يؤاخذ الله الناس في الآخرة بما يأتونه من المنكر ناسين تحريمه ، أو واقعين فيه خطأ ، ولذلك علّمنا سبحانه أن ندعوه بأن لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، وذلك من فضله علينا وإحسانه

في هدايتنا ، فإن هذا الدعاء يذكّرنا بما ينبغي لنا من العناية والاحتياط والتفكر والتذكر ، لعلنا نسلم من الخطإ أو النسيان ، أو يقل وقوعهما منا ، فيكون ذنباً جديراً بالعفو والمغفرة .

هذه خلاصة رأيه ، ولعله يكون من الخير أن نعقب عليه بما ذكره شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في تفسير الآية التي معنا ، حيث قال ما نصه : « إن قال لنا قائل : وهل يجوز أن يؤاخذ الله عز وجل عباده بما نسوا أو أخطأو فيسألوه ألا يؤاخذهم بذلك ؟ . قيل : إن النسيان على وجهين : أحدهما على وجه التضييع من العبد والتفريط ، والآخر على وجه عجز الناسي عن حفظ ما استُحْفِظَ ، ووُكِّلَ به ، وضعف عقله عن احتماله .

فأما الذي يكون من العبد على وجه التضييع منه والتفريط ، فهو ترك منا لما أمر بفعله ، فذلك الذي يرغب إلى الله عز وجل في تركه مؤاخذتَه به ، وهو النسيان الذي عاقب الله عز وجل به آدمَ صلوات الله عليه فأخرجه من الجنة ، فقال في ذلك « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » ، وهو النسيان الذي قال فيه جل ثناؤه « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ».

فرغبة العبد إلى الله عز وجل بقوله : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » فيما كان من نسيان منه لما أُمِرَ بفعله على الوجه الذي وصفنا وضرب ابن جرير أمثلة للنسيان الذي يؤاخَذ به الإنسان ، ومنها أن ينسى القرآن بعد حفظه بتشاغله عنه وعن قراءته ، أو ينسى صلاة وصياماً باشتغاله عنهما بغيرهما حتى يضيعا ، ثم ضرب أمثلة للنسيان الذي لا يؤاخذ به الإنسان ، ومنها أن يحرص الرجل على حفظ القرآن باجتهاد منه ، ثم ينساه بغير تشاغل عنه .

وكذلك ذكر الطبري أن الخطأ نوعان : أحدهما منهي عنه ، وذلك ما يأتيه الإنسان بقصد منه وإرادة ، وهذا يؤاخَذ عليه ، والآخر ما كان على وجه

الجهل به ، كالذي يأكل في شهر رمضان ليلا ، وهو يحسب أن الفجر لم يطلع ، مع أن الفجر يكون قد طلع .

هذا وقد ذكر الأصفهاني أن النسيان منه نوع مذموم ، وهو ما كان عن تعمد ، « وكل نسيان من الإنسان ذمه الله تعالى فهو ما كان أصله عن تعمد » ، وهو بخلاف النسيان المعفو عنه في قول النبي : « رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان» لأن هذا النسيان لم يكن سببه منه ، ومن أمثلة النسيان المتعمد ما أشار إليه القرآن في قوله :

« فذوقوا بما نسيتم لقاءَ يومكم هذا إنا نسيناكم » ، وقوله : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

ونخلص من هذا بأن الإنسان إذا تعمد النسيان أو الخطأ ، أو تسبب فيهما بإهمال أو عدم اتخاذ الوسائل المذكّرة بالمنسي أو المبعدة عن الخطأ كان مؤاخَذاً ، ولكن إذا نسي الإنسان أو أخطأ بلا قصد ولا إهمال لم يكن مؤاخَذاً .

* * *

وقد يقال إن التجاوز عن الخطأ والنسيان إنما يكون بعفو الله تعالى عند الاستغفار منهما ، والدعاء لله تعالى بعدم مؤاخذته فيهما ، ولهذا قال القرطبي في تفسيره نقول القرآن الكريم : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ما نصه : « المعنى اعف عن إثم ما يقع منا على هذين الوجهين ، كقوله عليه السلام : (رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) أي إثم ذلك ، وهذا لم يختلف فيه أن الإثم مرفوع ، وإنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام : هل ذلك مرفوع لا يلزم منه شيء ، أو يلزم أحكام ذلك كله ؟ . اختُلِفَ فيه ، والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع ، فقسم لا يسقط

باتفاق كالغرامات والديات والصلوات المفروضات ، وقسم يسقط باتفاق كالقصاص والنطق بكلمة الكفر ، وقسم يختلف فيه ، كمن أكل ناسياً في رمضان ، أو حنث ساهياً ، وما كان مثله مما يقع خطأ ونسياناً ، ويُعْرَفُ ذلك في الفروع » .

* * *

وهناك في الموضوع رأي لم يسترح إليه الطبري ، ولذلك أورده بصيغة الزعم ، فقال : « وقد زعم قوم أن مساءلة العبد ربّه ألاّ يؤاخذه بما نسي أو أخطأ إنما هو فعل منه لما أمره به ربه تبارك وتعالى ، أو لما ندبه إليه من التذلل له والخضوع بالمساءلة ، فأما على وجه مساءلته الصفح فما لا وجه له عندهم » .

ومع أن الخطأ والنسيان يشملهما الله بعفوه وتجاوزه ، فإن على الإنسان أن يصلح ما ترتب عليهما من آثار ضارة قدر طاقته ، فإذا أخطأ فأساء في خطئه إلى إنسان اعتذر إليه ، وأصلح له ما أفسد فيه . ومن قَتَلَ خطأ فعليه الدية والكفارة ، وإذا نسي صلاةً ، ثم تذكرها سارع إلى قضائها ، وإذا نسي شيئاً في الصلاة ثم تذكره جبر ذلك بسجود السهو في آخرها ، وإذا قال : سأفعل كذا ، دون أن يقول : « إن شاء الله » ، ثم تذكر فإنه يذكر المشيئةَ حينما يتذكر . قال ابن عباس : إذا قلتَ شيئاً ولم تقل إن شاء الله فقله إذا تذكرته ، وقد فُهِم ذلك من قول الله تبارك وتعالى :

« ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً » .

* * *

وأما الإكراه فهو حمل الإنسان على ما يكرهه ، والكره هو المشقة التي

تنال الإنسان فيما يحمل عليه بإكراه ، وقد ذكر العلماء أن من أكره على قول محرَّم فنطق به فلا إثم عليه ، وقد استدلوا على ذلك — إلى جوار الحديث — بقول القرآن :

« من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم » . وقد نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر حين أخذه المشركون مع والديه وعذبوهم ، فأما والداه فقد احتملا حتّى الموت ، وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرَهاً ، ثم شكا ذلك إلى النبي ، فقال له : كيف تجد قلبك ؟ . أجاب عمار بقوله : مطمئن بالإيمان ، قال له النبي : فإن عادوا فعد . فكانت تلك رخصة .

وقد أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر حتّى خشي على نفسه القتلَ فنطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمـــان فإنه لا إثم عليه . وروي عن ابن مسعود أنه قال : « ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلماً به » . وقالت طائفة من العلماء : الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسرَّ الإيمان ، اللهم إلا من أكره على قتل غيره فلا يجوز الإقدام على قتله .

وإذا كان المكره على الشيء لا اختيار له بالكلية ، ولا قدرة له على الامتناع فلا إثم عليه فيما فعل ، وإنما يكون الإثم على من أكرهه ، واستدلوا على ذلك بآيات منها قول القرآن : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من بعد اكراههن غفور رحيم » .

* * *

وللحديث الذي معنا روايات بمعناه منها ما يلي :

١ — إن الله تعالى تجوَّز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

(وفي رواية : وما أكرهوا عليه) .

٢ ــ إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث : عن الخطأ والنسيان والاستكراه .

٣ ــ إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

٤ ــ إن الله عز وجل تجاوز لهذه الأمة عن نسيانها ، وما حدّثت به نفسها .

٥ ــ إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ، وما أكرهوا عليه ، إلا أن يتكلموا أو يعملوا .

٦ ــ رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

* * *

وإذا راجعنا السنة المطهرة وجدنا فيها آخرين ممن يتجاوز الله عنهم أو لا يؤاخذهم أو بمعنى أدق لا يكلفهم ، فبجوار الذين يتعرضون للخطأ أو النسيان أو الإكراه نجد قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « رُفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المبتلى حتى يبرأ ،وعن الصبي حتى يكبر » . ونجد قوله : « رُفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم » .

ونخلص من هذا الاستعراض بأن الله تعالى يعفو عن الخطإ والنسيان ، كما يعفو عن المتعرض للاكراه ، كما أنه تعالى يرفع التكليف والحساب عن النائم والمريض والمجنون والصغير ، وقد يُلْحَقُ بهم الجاهل ، لأن التكليف نتيجة للتبليغ ، وكذلك يعفو الله تعالى عن خواطر السوء ما دامت لا تخرج عن حديث النفس .

نسأل الله جل جلاله أن يمن علينا بعفوه وفضله ، إنه أكرم مسئول ، وأفضل مأمول .

ألوان من القربات

عن أبي ذر رضي الله عنه : « أن أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي : يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضل أموالهم . قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ . إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمرٌ بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بُضْع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدُنا شهوتَه ويكون له فيها أجرٌ ؟ . قال : أرأيتم لو وضعها في حرام ، أكان عليه وِزْر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » .

(رواه مسلم)

* * *

هذا الحديث النبوي الكريم يرينا أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا حريصين على ألوان العبادات وأنواع القُربات ، متطلبين أسبابَ الرضى من ربهم عز وجل ، ويحسون بلاذع الألم إذا حيل بينهم وبين طاعة من الطاعات أو قربة من القربات ، ولذلك حزن فريق منهم حينما رأوا أصحابَ الأموال

يعملون بها ألوانا من الخير . وهذا الفريق يقعد به عجزُه وفقره عن المنافسة في هذا المجال .

ولقد كان الصحابي منهم يأتي رسولَ الله عليه الصلاة والسلام وهو يتأهب للغزوة ، فيسأله دابة تحمله إلى المعركة ليجاهد ، فلا يجد الرسول ما يحقق به أمله ، فينصرف هذا الصحابي حزيناً باكياً ، لحرمانه شرفَ الجهاد وموطن الاستشهاد . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث يقول في سورة التوبة : « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلتَ لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » .

ولقد جاءت زيادة للحديث في بعض الروايات ، وهي : « تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجلَ في أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة » .

كما جاءت في الحديث روايات أخرى ، فرواية منها تقول : عن أبي ذر قلت : يا رسول الله ، ذهب الأغنياءُ بالأجْر ، يتصدقون ولا نتصدق ؛ قال : وأنت فيك صدقة : رفعك العظم عن الطريق صدقة ، وهدايتك الطريق صدقة ، وعونك الضعيف بفضل قوتك صدقة ، وبيانك عن الأغْتَم (وهو الذي لا يفصح شيئاً) صدقة ، ومباضعتك امرأتك (أي مضاجعتها) صدقة ؛ قلت : يا رسول الله ، نأتي شهوتنا ونؤجر ؟ . قال : أرأيت لو جعلتَ ذلك في حرام أكنت تأثم ؟ . قلت : نعم . قال : أفتحتسبون بالشر ، ولا تحتسبون بالخير ؟ .

وفي رواية ثانية للامام أحمد : « إن من أبواب الصدقة التكبير ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله الا الله ، وأستغفر الله ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتعزل الشوكة عن الطريق والعظمَ والحجر ، وتهدي الأعمى ،

وتُسمع الأصمّ والأبكم حتى يفقه ، وتدل المستدلّ على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث ، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف ، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك ، ولك في جماع زوجتك أجر. قلت : كيف يكون لي أجر في شهوتي ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتَ لو كان لك ولد فأدرك ، ورجوت خيرَه فمات ، أكنت تحتسب به ؟ . قلت : نعم . قال : أفأنت خلقته ؟ قلت : بل الله خلقه . قال : أفأنت هديته ؟ . قلت : بل الله هداه . قال : أفأنت كنت ترزقه ؟ . قلت : بل الله كان يرزقه ؟ . قال : كذلك فضَعْه في حلاله وجنّبه حرامه ، فإن شاء الله أحياه ، وإن شاء أماته ، ولك أجر ....

وفي رواية ثالثة عن أبي هريرة أن فقراء المهاجرين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . فقال: وما ذاك ؟ . قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلا أعلّمكم شيئاً تدركون به مَنْ قد سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُرَ (أي عقب) كل صلاة ثلاثاً ثلاثين مرة . فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله . فقال الرسول : ذلك فضل لله يؤتيه من يشاء...

* * *

جاء في الحديث : « ذهب أهل الدثور بالأجور » والدثور جمع دَثْر ، هو المال الكثير ، ويقع على الواحد والاثنينْ والجميع ، وقد يطلق الدثر على لحصب والنبات الكثير ، وفي « معجم مقاييس اللغة » أن أصل الدثر هوتضاعف

الشيء ، وتناضده بعضه على بعض، فالدثر المال الكثير، والدثار ما تدثر به الإنسان وهو فوق الشعار ... إلخ . والأجور جمع أجر ، وهو الثواب الذي يهبه الله لمن أحسن عملاً .

وهذا القول من الفقراء فيه غبطة منهم للأغنياء ، والغبطة هي أن تتمنى أن يكون لك مثل ما لأخيك ، دون أن تتمنى زوالَه عن أخيك ، وإلا كان حسداً ، فالفقراء قد رأوا الأغنياء يفعلون بأموالهم خيراتٍ كثيرة ، فتمنوا لو كان لهم مثلُ ما لهولاء الأغنياء ، لينافسوهم في مواطن الخير والبر ،ولم يكن هذا حسداً منهم ، بدليل أنهم عبروا عن الأغنياء بقولهم « إخواننا » كما صرحت به بعضُ الروايات الماضية .

ونلاحظ أن الجميع قد قاموا بالفروض والواجبات، من صلاة وصوم وغيرهما ، وإذا كانوا لم يصرحوا ببقية الفروض فهي مفهومة من المقام ، بدليل قولهم بعد ذلك : « ويتصدقون بفضل أموالهم » إذ مفهوم هذا أنهم أدوا الزكاةَ الواجبة ، إذ الواجب من الزكاة مقدم على التصدق بفضل المال ، مع أنه لم يصرح هنا بأن الأغنياء زكوا كما زكى غيرهم .

وقد أراد الرسول أن يعلم أتباعَه أن المال ليس الوسيلة الوحيدة للعمل الطيب والسعي المشكور ، فإن الإنسان يستطيع أن يحقق الكثيرَ من الطيبات والقربات، بفكره ولسانه وقلمه ، وسعيه في وجوه الاصلاح والخير ،ولذلك رووا من المنسوب إلى عبدالله بن عمر — وبعضهم يجعله مرفوعاً — قوله : « من كان له مال فليتصدق من ماله ، ومن كان له قوة فليتصدق من قوته ، ومن كان له علم فليتصدق من علمه » .

ثم قال الرسول : « إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة » ، والتسبيحة هي قول : سبحان الله ، والتكبيرة قول : الله أكبر ، والتحميدة قول : الحمد لله ، والتهليلة قول : لا إله إلا الله ، وقد شاع بين العامة أن الصدقة هي الشيء الميسور من المال الذي

يعطيه الغني للفقير ، وظلَم الناس بمضي الأيام هذه الكلمةَ ، فجعلوها رمزاً إلى ضعف الآخذ وتفضل المعطي ، والحق أن الصدقة قد تكون معاونةً مالية ، وقد تكون معاونة معنوية، وهي في أصلها الإسلامي لا تفيد معنى الذلة في المحتاج إليها ، ولا معنى المن أو التعالي من الدافع لها ، بل أكاد أفهم من معنى كلمة « الصدقة » أنها دليل أو برهان يبرهن به القادر على أنه صادق في إيمانه ، صادق في استجابته لربه ، صادق في تعاونه مع إخوانه ، والمعنى اللغوي الأصلي للكلمة يساعد على هذا الفهم .

فالصدقة من مادة « الصدق » ، ومادة الصدق تدل على قوة في الشيء قولاً أو غيره ، والصدق هو مطابقة القول للضمير وللمخبر عنه معاً ، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقاً تماماً ، وقد يستعمل الصدق في أفعال الجوارح والأعضاء ، فيقال : صدق في القتال ، إذا وفى حقّه ، وفعل ما يجب وكما يجب . والصدقة — كما يقول الأصفهاني — ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزكاة ، ولكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع به ، والزكاة للواجب ، وقد يقال للواجب صدقة إذا تحرى صاحبها الصدقَ في فعله ...

وكم أتمنى أن تنتزع العامة من أذهانها ذلك الظلَّ القاتم الذي رسمته للصدقة ، إذ ربطته بمعنى المذلة والهوان من جهة ، ومعنى تفضل القادر وتباهيه من جهة أخرى . وحسبنا أن نجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلق الصدقةَ على جميع أنواع المعروف والإحسان ، فيقول : « كل معروف صدقة » .

والصدقة نوعان : نوع يكون نفعه مقصوراً على صاحبه ، كالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ، ونوع يكون نفعه منتقلاً إلى الغير ، كالدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإرشاد ، والتعليم ... الخ .

وقد بدأ الحديث بإيراد ألوان من ذكر الله تبارك وتعالى ، لما لذكر الله من مكانة عالية ومنزلة سامية ، حتى جاء في الحديث : « ما منَّ الله على عبده مثل أن يلهمه ذكرَه » . ولو رجعنا إلى الآثار الصوفية لوجدنا فيها كثيراً من الكلمات النوابغ التي تدور حول الذكر ، فقد سئل أبو يزيد البسطامي : ما علامة العارف ؟ .. قال : « ألا يفتر عن ذكره ، ولا يمل عن حقه ، ولا يستأنس بغيره » . وقال منصور بن عمار : من اشتغل بذكر الناس انقطع عن ذكر الله تعالى . وقال يوسف الرازي : من ذكر الله بحقيقة ذكره نسي ذكر غيره . وقال محمد بن الفضل البلخي : ذكرُ اللسان كفارات ودرجات ، وذكرُ القلب زُلَف وقربات .

ثم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك جانباً آخر من ألوان الأعمال الطيبة التي تستحق الثواب ، ومع ذلك لا تحتاج إلى بذل المال ، فقال : « وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة » . ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تترتب عليهما فوائد وثمرات كثيرة للفرد والجماعة فلا عجب إذا عدهما الرسول من الأعمال التي يثيب الله تعالى عليها .

ثم قال الحديث : « وفي بُضع أحدكم صدقة » . والبضع يطلق على الجماع — أي المعاشرة الجنسية بين الرجل وزوجته — وقد يطلق على عقد النكاح والجماع معاً ، وقد يطلق على الفرج ، والمراد بالبضع هنا مباشرة الرجل لزوجته ، والمعنى أن الله سبحانه يعد هذه المباشرة عملاً طيباً يستحق الثواب . وقد عجب الصحابة من هذا أول الأمر ، إذ كيف يقضي الرجل شهوةً ترضيه وتلذه ، ثم يكون له عليها ثواب ؟ ، ولذلك قالوا للنبي : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوتَه ، ويكون له فيها أجر ؟ .

وأراد الرسول أن يخبرهم بأن هذا لا يستحق العجب ، فقال لهم : «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ . (أي ذنب وإثم) فكذلك إذا وضعها

في الحلال كان له أجر » . ولا شك أن هذا من فضل الله تعالى . ومن سماحة الإسلام الذي يعلمنا أن الإنسان إذا هَمّ بالمعصية ثم صد نفسه عنها كُتبت له حسنة ..

وقد عُني الإسلام عناية كبرى بأمر الزوجة والأولاد ، فعدّ مباشرةَ الرجل لزوجته أمراً محبوباً ، يستحق عليه ثواب الله تعالى ، إذا قصد أن يُعف زوجتَه ويعف نفسَه ، وقصد أن يكون من وراء هذه المباشرة ذرية صالحة . وعدّ الإنفاقَ على الزوجة والأولاد صدقةً ما دام الإنسان مخلصاً في الإنفاق ، يبتغي به وجه الله تعالى ، ويريد به الصيانة للزوجة والأولاد ، وحسن التّربية للذرية ، والحديث يقول : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجهَ الله تعالى إلا أجرت عليها ، حتّى اللقمة ترفعها إلى في زوجتك » . بل جاء الحديث الجليل الذي يقول : « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة (أي في إعتاقها) ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أفضلها الدينار الذي أنفقته على أهلك » ....

والحديث بعد هذا كله يعلم المسلم كيف يكون نافعاً لنفسه ولغيره وكيف يكون عضواً صالحاً في مجتمعه ، يستغل كل وسيلة لفعل الخير وتقديم المعونة ، ولا تصده قلة المال إذا قل عن محاولة فعل الخير في مجالات أخرى ، فالفكرة الناضجة ، والكلمة الطيبة ، والخطوة المخلصة ، والمشورة الصادقة ، والابتسامة الطاهرة ، هذه الأعمال الطيبة أمام المسلم فسيحة الأبعاد كثيرة الثمرات . والله ولي التوفيق .

فَضِيلَة الزُّهْد

عن سهل بن سعد قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، دُلني على عمل إذا عملتُه أحبني الله ، وأحبني الناس ، فقال : ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس »

(حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره) .

* * *

في غمار الحياة المادية الطاغية ، وفي سُعار التكالب على لذاتها وشهواتها ، وفي طوفان التمتع بها والاستزادة منها ، ينبغي للمؤمن التقي أن يرعى حقّ روحه ومطالب قلبه ، وأن يستضيء بنور التخفف من زينة الحياة الدنيا ، والتلطف في الأخذ من متاعها ، والحذر من الحرص عليها أو الطمع فيها ؛ وفي مجال هذه العظة ساق إلينا رسول الله عليه الصلاة والسلام هذا الحديثَ ليكون عبرة وذكرى .

ولقد وردت رواية ثانية لهذا الحديث تقول : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، دلني على عمل يحبني الله عليه ، ويحبني الناس عليه ، فقال ، أما العمل الذي يحبك الله عليه فازهد في الدنيا ، وأما العمل الذي يحبك عليه الناس فانظر هذا الحطامَ فانبذه إليهم » . ويراد بالحطام متاع الحياة الدنيا ، وبنبذه إليهم إعطاؤه أو تركه لهم .

لقد أبان الحديث أن الطريق إلى محبة الله ومحبة الناس هو الزهد في الدنيا ، والزهد فيما عند الناس ، فما هو الزهد ؟ . لقد ذكر ابن فارس في كتابه « معجم مقاييس اللغة » أن مادة الزهد تدل على قلة الشيء ، وأن الزهيد هو الشيء القليل ، وأن الشخص المُزْهِد هو قليل المال ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال : « أفضل الناس مؤمن مُزْهِد » أي مقل ، وعرّف العلماء الزهد في الشيء بأنه الإعراض عنه لاستقلاله واحتقاره ، وارتفاع الهمة عنه ، والزهد في الدنيا هو عدم التكالب عليها أو عدم الحب لها ، وإيثار ما عند الله في الدار الآخرة على ما في هذه الحياة الدنيا : « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان[1] لو كانوا يعلمون » .

ولقد عُني القرآن الكريم عناية واضحة بإيثار الآخرة على الأولى ، وتفضيل ما عند الله – وهو ما لا ينفد – على ما في الدنيا – وهو حائل زائل – فقال عز من قائل : « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى » ، وقال : « تريدون عرضَ الدنيا والله يريد الآخرة » . وقال : « وفرحوا بالحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » ، وقال : « إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار » .

وجاء الرسول عليه الصلاة والسلام فضرب المثل الأعلى في الزهد ، والإعراض عن ملذات الحياة ، فقال : « اللهم احيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين » . ولما عرض عليه ربه أن يكون غنياً سأل ربّه أن يجعله في الحياة بحيث يشبع حينا فيحمده ، ويجوع حيناً فيسأله ويرجوه .

وقال صلوات الله وسلامه عليه لأتباعه : « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ،

---

(١) أي الحياة التامة الكاملة .

ولا تشربوا في إناء الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافهما ، فإنها لهم في الدنيا ، ولكم في الآخرة » .

وقال في حديث آخر يصور الزاهدَ الفاضل الكامل : « أزهد الناس من لم ينس القبر والبلى، وترك زينة الدنيا . وآثر ما يبقى على ما يفنى ،ولم يعدّ غداً من أيامه ، وعَدّ نفسه من الموتى » .

وإذا نظرنا إلى مواطن الزهد وأصوله وجدناه يقوم على ثلاث دعائم : « الأولى منها هي الثقة بالله ثقةً تفوق كل ثقة ، والثانية هي أن يحسن المرء احتمالَ المصيبة ولا يضيق بها ، والثالثة ألا يتأثر بالمدح أو الذم ، ولذلك قال يونس بن ميسرة : « ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثقَ منك بما في يدك ، وأن تكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تُصَبْ بها سواء ، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء » .

وقال الحسن : « إن من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عز وجل » .

ولقد قسم إبراهيم بن أدهم الزهدَ إلى ثلاثة أنواع : الأول زهد الفرض وهو الزهد في الحرام ، والثاني زهد الفضل ، وهو الزهد في الحلال ، والثالث زهد السلامة ، وهو الزهد في الشبهات .

ومن أوضح ألوان الزهد الجليل النبيل الزهد في الجاه والشهرة والسمعة والمناصب ، ولذلك قال الأولون : إن الزاهد في الجاه والرياسة أقوى من الزاهد في الذهب والفضة .

* * *

والزهد في الدنيا عند الأقوياء الأصحاء هو أن يقتدروا على كسب حلالها ،

وأن يحوزوا خيرها ، ومع ذلك لا تستحوذ عليهم محبتها ، ولا تستعبدهم أموالها ، قد يجمعون منها الطيب الغزير ، وقد يحوزون العظيم أو الكثير ، ومع ذلك لا يشحون ولا يبخلون ، بل يجودون ويسمحون ، وتنبسط أياديهم بالبذل في وجوه الخير ومواطن البر .

كما أن الزهد الصحيح الصادق لا يتعارض مع أخذ الحظ المناسب من متاع الحياة الطيب ، فالقرآن الكريم يقول : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . والرسول عليه الصلاة والسلام قد قال : « حببَ إليّ من دنياكم النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة » . وقال أبو مسلم الخولاني : « ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يديك . وإذا أُصبت مصيبة كنت أشدّ رجاء لأجرها وذخرها من إياها لو بقيت لك ». ونلاحظ أن الحديث الشريف يُفْهَم منه أن تطلع الإنسان إلى نيل حب الناس أمر لا غبار عليه شرعاً ، بدليل أن الرسول أرشد الرجلَ السائل إلى الطريق الذي يصل به إلى محبة الناس ، فلو لم يكن نيل محبة الناس أمراً جميلاً في نظر الشرع لما رسم الرسول طريقَه ، ومن المعروف أن الذي ينال ثقة الناس ومحبتهم يكون في العادة فاضلا كريماً ، ولذلك قيل : إن ألسنة الخَلْق أصواتُ الحق ..

* * *

ولقد جرت على ألسنة السلف الصالح كلماتٌ نوابغ في الزهد ، وتحديد حقيقته وأصوله ، فقال وهب بن ورد : « الزهد في الدنيا ألا تأسى على ما فات منها ، ولا تفرح بما أتاك منها » . وقال سفيان الثوري : « الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ، ولا بلبس العباء » . وقال أبو سليمان الداراني : « الزهد ترك ما أشغلك عن الله عز وجل» . وقال الفضيل بن عياض : « أصل

الزهد الرضا عن الله تعالى » . وقال الحارث المحاسبي : « الزهد يورث الراحة » . وقال أحمد بن أبي الحواري : « من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه » . وقال يحيى بن معاذ: « الزهد ثلاثة أشياء : القلة ، والخلوة ، والجوع » . وقال شاه الكرماني « علامة الزهد قِصَرُ الأمل » . وقال محمد بن الفضيل : « الدنيا بطنك ، فبقدر زهدك في بطنك يكون زهدك في الدنيا » .

وقال الحسن : « الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال هو أفضل مني » . وقال الزهري :

« الزاهد من لم يغلب الحرامُ صبرَه ، ولم يشغل الحلال شكرَه » ، وقال ربيعة : « رأس الزهادة جمع الأشياء بحقها ، ووضعها في حقها » . وقال الشبلي : « الزهد تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء » .

ولو رجعنا إلى المأثور الصالح من أدبنا وقصصنا لوجدنا فيه شواهدَ للتحريض على الزهد والتحبيب فيه ، فهذا ابن عبد ربه يذكر في كتابه « العقد الفريد » عن العتبي عن زيد بن نمارة قال : سمعت أعرابياً يقول لأخيه وهو يبني منزلاً : يا أخي .

أنت في دار شتات فتأهب لشتاتك
واجعل الدنيا كيوم صمته عن شهواتك
واجعل الفطرَ إذا ما نلتَه يومَ مماتك
واطلب الفوزَ بعيش الد هر من طول حياتك

ثم أطرق حيناً ورفع رأسه وهو يقول :

قائدُ الغفلة الأملْ والهوى قائد الزللْ
قتل الجهل أهلَه ونجا كل من عقل

فاغتنـــم دولة الســلا مة واستأنف العمـــل
أيها المبتنــي القصـــورَ وقــد شاب واكتهـــل
أخبر الشيــبَ عنك أنــ ـك في آخــر الأجـــل
فعـــلام الوقـــوف في عرصة العجــز والكســـل
أنــت في منـــزل إذا حلـه نازل رَحَـــل
منزل لم يزل يضيـــق وينبـــو بمــن نـــزل
فتـــأهب لرحـــلةٍ ليس يسعى بهــا جمــل
رحلة لم تزل على الـ ـدهر مكروهـــةَ القَفَـــل

كما رُوي أن الحجاج خرج ذات يوم فأصْحَرَ ، وحضر غداؤه فقال : اطلبوا من يتغدى معنا . فطلبوا فلم يجدوا إلا أعرابياً في شملة ، فأتوه به ، قال له : هلم .

قال : قد دعاني من هو أكرم منك فأجبته .

قال : ومن هو ؟ . قال : الله تبارك وتعالى ، دعاني إلى الصيام فأنــا صائم .

قال الحجاج : وصوم في مثل هذا اليوم الحار ؟ ، قال الرجل : صمتُ ليوم هو أحر منه .

قال : فأفطر اليومَ وتصوم غداً . قال الرجل : ويضمن لي الأميرُ أن أعيش إلى غد ؟ .

قال : ليس ذلك إليّ . قال : فكيف تسألني عاجلاً بآجل ليس لك إليه سبيل ؟ .

قال الحجاج : إنه طعام طيب . قال الرجل : والله ما طيّبه خبازك ولا

طباخك ، ولكن طيبته العافية . قال الحجاج : بالله ما رأيتُ كاليوم ، أخرجوه عني .

وأما الزهد فيما بين أيدي الناس فهو مفتاحُ الوصول إلى محبتهم وتقديرهم وإعجابهم ، لأن الإنسان إذا عامل الناس وخالطهم ، دون أن يطمع في أشيائهم يصبح موضع الثقة عندهم ، إذ يوقنون أنه لم يخالطهم لغرض أو مرض ، فيزدادون به تعلقاً ، وإليه انجذاباً ، وله حباً ، وإذا طمع الإنسان فيما عند الناس ، فقد هان على نفسه وعلى الناس ، لأن الحرص يذل أعناقَ الرجال ، ولأن الناس يملون من يسألهم حاجاتهم ، ولو كانت خفيفة ، والشاعر يقول:

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل : هاتوا ، أن يملوا ويمنعوا

ولقد قالت أعرابية لابنها توصيه : « يا بني ، إن سؤالك الناس ما في أيديهم أشد من الافتقار إليهم ، ومن افتقرت إليه هنت عليه ، ولا تزال تُحفظ (بضم التاء) وتكرم حتى تسأل وترغب ، فإذا ألحت عليك الحاجة ، ولزمك سوء الحال ، فاجعل سؤالك إلى من اليه حاجة السائل والمسئول ، فإنه يعطي السائل » .

وإنا لندعو هنا بالكلمات التي دعا بها الرسول عليه الصلاة والسلام فنقول:

« اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتنا لك ما تبلغنا به حبك ، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائبَ الدنيا ، إنك أكرم مسئول وأفضل مأمول .

نواه وأوامر

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال:

« نهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن سبع : نهى عن خاتم الذهب — أو قال حلقة الذهب — وعن الحرير ، والاستبرق ، والديباج ، والميثرة الحمراء ، والقسيّ ، وآنية الفضة .

وأمرنا بسبع : بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، وردّ السلام ، وإجابة الداعي ، وإبرار المقسم ، ونصر المظلوم » .

(رواه البخاري) .

* * *

راوي هذا الحديث الشريف هو الصحابي ابن الصحابي : ابو عمارة البراء ابن عازب بن الحارث بن عدي الانصاري ، رُوي له عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة حديث وخمسة أحاديث ، وروى له الإمامان البخاري ومسلم. ونزل الكوفة ، وتوفي بها زمن مصعب بن الزبير ، واستصغره النبي في غزوة بدر ، وأول مشاهده غزوة أحد ، وشهد بيعة الرضوان ، واشترك في معركة « تستر » ، وشهد مع علي معارك الجمل وصفين والنهروان، رضوان الله عليه [1] .

(1) انظر تفاصيل سيرته في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » صفحة ٣٠٦ — ٣١٠ .

وفي هذا الحديث أخبرنا البراء راويه أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد نهى المسلمين عن طائفة من السيئات ، وأمر بطائفة من الحسنات ، وظاهر النهي هنا هو التحريم ، قال ابن دقيق العيد : وهو قول الأئمة واستمر الأمر عليه ، وليس معنى هذا أن المنهيات هنا هي كل المنهيات في الإسلام ، فهناك غيرها ، وكذلك الأمر في المطلوبات ، فهي ليست محصورة فيما ذكره الحديث هنا .

وأول الأمور المنهي عنها هنا « خاتم الذهب » أو « حَلْقَة الذهب » والمراد بالحلقة هو الخاتم ، وقد جاء حديث يقول : من أحب أن يحلِّق جبينه حلقة من نار فليحلّقه حلقةً من ذهب » .

والإسلام يقرر أن لبس الذهب حرام على الرجال حلال للنساء ، وقد نقل الإجماع على إباحته للنساء . وقد رُوي عن ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس خاتماً من ذهب ، فنبذه، فقال : لا ألبسه أبداً ، فنبذ الناس خواتمهم ، وفي الحديث عن عمران بن الحصين : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التختم بالذهب .

•

والأمر الثاني المنهي عنه هو الحرير ، والحرير معروف ، وهو لفظ عربي ، وقد سُمِّيَ بذلك لخلوصه حيث يقال لكل خالص : محرَّر . وقيل إنه فارسي معرب . وذكر ابن حجر في « فتح الباري » أنهم اختلفوا في علة التحريم على رأيين مشهورين : أحدهما الفخر والخيلاء ، والثاني لكونه ثوبَ رفاهية وزينة، فيليق بزي النساء دون شهامة الرجال ، وذكر أنه يحتمل علة ثالثة وهي التشبه بالمشركين .

وقد روى البخاري حديثاً يقول : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » . وكذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام في الذهب والحرير : « هذان حرامان على رجالِ أمتي حلٌ لإناثها » .

ويقول القاضي عياض : « ما نُقل عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم من تختمه بالذهب فشذوذ .والأشبه أنه لم تبلغه السنة فيه. فالناس مجمعون على خلافه » . وروى أنه يباح من الحرير نحو أصبعين فيما يكون كالتطريف والتطريز ونحوهما في الثياب . كما جاء في الحديث الإذن لمن به حكة في جسمه أن يلبس الحرير ، وهذا من باب : الضرورات تبيح المحظورات .

والأمر الثالث هو « الاستبرق » وهو صنف نفيس من الحرير . وقيل هو الحرير الغليظ ، والكلمة أعجمية معربة أصلها « استبره » أو « استضره » . وقد وردت الكلمة في مواضع من القرآن الكريم ، ففي سورة الكهف : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ،أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضرا من سندس واستبرق متكئين فيهـــا على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً » .

وفي سورة الدخان : « إن المتقين في مقام أمين ، في جنات وعيون ، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين » . وفي سورة الرحمن : « متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنا الجنتين دان » . وفي سورة الإنسان : « عليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » .

ونلاحظ أن هذه المواطن كلها قد جاء فيها ذكر الجنة وأهلها ، وقد نفهم من هذا أن الله تبارك وتعالى إذا كان قد حرم الحرير على عباده في الدنيا ، فإنه يحليهم به في الجنة يوم القيامة .

والأمر الرابع المنهي عنه هو«الديباج» وهو الثياب المتخذة من الأبريسم، والكلمة فارسية معربة . وجاء في حديث النخعي : « كان له طيلسان مدبّج » ،

وهو الذي زُيّنت أطرافه بالديباج . والدَّبْج هو النقش والتزيين ، والديباج ضرب من الثياب مشتق من « دبج » ، وقيل : هو ضرب من المنسوج ملوّن ألواناً . ورُوي عن ابن مسعود أنه قال عن السور المفتتحة بقوله تعالى « حم » إنها ديباج القرآن . ودبج المطر الأرض زينها بالرياض . وقيل : الديباج صنف نفيس من الحرير .

والأمر الخامس المنهي عنه « الميثرة الحمراء » . وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ميثرة الأرجوان، والميثرة — بكسر الميم — مفعلة من الوثارة ، والوثير : اللين الوطيء ، والميْثرة من مراكب العجم تعمل من من حرير وديباج ، أو وعاء يوضع على سرج الفرس أو رحل البعير ، أو هي أغشية للسرج من الحرير، أو ما يشبه المخدة تحشى بقطن أو ريش يجعلها الراكب تحته ، وهي مظهر من مظاهر الترف والترفه ، والنهي عنها للزجر عن التشبه بالأعاجم ، أو للزجر عن التزين والسرف .

والأرجوان صبغ أحمر شديد الحمرة ، وهو نَوْر شجر .

والأمر السادس المنهي عنه هو « القسيّ » بوزن الصبي ، والقسي نسبة إلى بلدة « القس » بمصر بقرب تنيس ، وقد روى البخاري عن أبي بردة قال : قلت لعلي : ما القسيّة ؟ . قال : ثياب أتتنا من الشام — أو من مصر — مضلعة فيها أمثال الأترج والميثرة ، كانت النساء تصنعها لبعولتهن مثل القطائف يصفّونها.

والأمر السابع المنهي عنه هو « آنية الفضة » أي الأوعية المصنوعة من الفضة ، وذلك لأن الفضة قريبة من الذهب من ناحية الترف في الاستعمال، والتشبه بالأعاجم .

* * *

ثم تأتي الأشياء السبعة التي أمر بها الرسول عليه الصلاة والسلام وحث عليها ، والأمر الأول هو « عيادة المريض » . والعيادة في الأصل الزيارة المتكررة ، واشتهرت العيادة في زيارة المريض ، حتى صارت كأنها مختصة به ، والعائد هو كل من أتاك مرة بعد أخرى . وعيادة المريض فيها معنى المواساة والمشاركة الوجدانية ، وفيها تقوية للروابط الأخوية بين المسلمين .

والأمر الثاني هو « اتباع الجنائز » . والجنائز جمع جنازة — بكسر الجيم وفتحها . الميت بسريره (أي نعشه) وقيل ان الجنازة بكسر الجيم —: السرير ، وإن الجنازة — بفتح الجيم — الميت . واتباعها هو تشييعها إلى القبر ، وفي ذلك تكريم للإنسان ، وتذكر للموت .

والشيء الثالث المأمور به هو « تشميت العاطس » والتشميت هو أن يقول الإنسان لمن عطس : يرحمك الله . وذلك بشرط أن يقول العاطس عقب العطاس : الحمد لله . والتشميت هنا واجب ، وقيل إنه مستحب . ويكون التشميت للمسلم الحامد غير المزكوم ، وقد جاء في حديث أبي موسى الأشعري: « كانت اليهود يتعاطسون عند النبي صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول: يرحمكم الله . وكان يقول : يهديكم الله ويصلح بالكم » .

وإذا تكرر العطاس من المزكوم فزاد على ثلاث مرات لم يكن ذلك عطاساً ، وإنما هو زكام ، فلا تشميت بعد الثلاث ، وفي الحديث : « عطس رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فشمته ، ثم عطس فشمته ثم عطس فقال له في الثالثة : أنت مزكوم » . واختلف العلماء أيكون هذا في الثالثة أم في الرابعة . وقد ذكر البخاري في صحيحه كيفية تشميت العاطس ، فروى هذا الحديث : « إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله ، وليقل له أخوه أو صاحبه : يرحمك الله ، فإذا قال : يرحمك الله ، فليقل : يهديكم الله ويصلح بالكم » .

وقد جاء في السنة أن الله تعالى يحب العطاس ،وذلك لأنه إنما يكون مع خفة

البدن ، وانفتاح المسام ، وتيسير الحركات ؛ وسبب هذه الأوصاف هو تخفيف الغذاء ، والإقلال من الطعام والشراب .

والشيء الرابع المأمور به هو « رد السلام » . والسلام هو التحية ، وقول القائل لغيره : السلام عليك . وفي إلقاء السلام ورده ما فيه من التعارف والألفة وإشاعة الأمان والاطمئنان بين الناس . وإذا كان إلقاء السلام أمراً محبوباً فإن رده أمر واجب ، والقرآن الكريم يقول في سورة النساء : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً » .

والشيء الخامس المأمور به هو « إجابة الداعي » أي تلبية دعوة أخيك إذا دعاك إلى زيارة أو طعام أو ما شابه ذلك مما لا يدخله شيء من الحرام ، وتلبية الدعوة فيها جبر لخاطر أخيك وإيناس له وتوكيد للمحبة والمودة بين الإخوة في الله عز وجل .

والشيء السادس المأمور به هو « إبرار المقسم » . والإبرار هو التصديق ، والمقسم هو الحالف .

والشيء السابع المأمور به « نصر المظلوم » لما في ذلك من إحقاق الحق وإقرار العدل ومقاومة الباطل ، والحديث يقول : « الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » .

نسأل الله المعونة على تجنب ما نهى الله عنه ، والتوفيق للتمسك بما أمر به ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

خصال النفاق

عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدَّث كذَب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فَجَرَ ، وإذا عاهد غَدَر »

(أخرجه البخاري ومسلم) .

* * *

هذا الحديث الشريف من الأحاديث المنذرة ، التي تخوّف المؤمن معاطبَ الطريق ، وتحذره خبيث الخصال ، ولقد وردت للحديث رواية أخرى تقول: آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإن صلى وصام ، وزعم أنه مسلم » .

ولقد رُوي أن المقصود بالمنافقين في الحديث هم المنافقون على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنهم حدَّثوه فكذّبوه ، وائتمنهم على سره فخانوه ، ووعدوه أن يخرجوا معه في الغزو ثم أخلفوه ، ومع هذا فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذا الحكم بالنفاق ينطبق على كل من يأتي هذه الخصال .

وكلمة « النفاق » تدل في الأصل على إخفاء الشيء وإغماضه ، ومنه النَّفَق وهو السَّرَب في الأرض ، وسمي النفاق نفاقاً لأن صاحبه يكتم خلافَ ما يظهر ، فكأن الإيمان يخرج منه ، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء ، والنفاق من

جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان غيره ، وهو قسمان : النفاق الأكبر وهو إظهار الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإخفاء ما يناقض ذلك ، وجزاؤه هو الدرك الأسفل من النار ، بدليل قول الله تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » .

والنفاق الأصغر وهو إظهار الإنسان غيرَ حقيقته في الصلاح والعمل ، ولذلك قال الحسن :

« من النفاق اختلاف القلب واللسان ، واختلاف السر والعلانية ، واختلاف الدخول والخروج » ، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يخافون النفاق أشد الخوف ، ويخشونه خشية شديدة أن يلم بساحتهم من قرب أو بعد ، ولذلك روي عن حنظلة الأسدي أنه مر به أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي ، فقال له : ما لك ؟. فأجاب : نافَقَ حنظلة : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكّرنا بالجنة والنار كأنها رأي العين ، فإذا رجعنا عافَسْنا(1) الأزواجَ والصبية فنسينا كثيراً .

قال أبو بكر : فوالله إنا كذلك .. فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما لك يا حنظلة ؟ . قال : نافَقَ حنظلة يا رسول الله، وذكر له مثلَ ما قال لأبي بكر . فقال رسول الله : لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم ،ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة .

وروي عن أنس قال : قالوا : يا رسول الله ، إنا نكون عندك على حال فإذا فارقناك كنا على غيره . قال : كيف أنتم ؟ . قالوا : الله ربنا في السر والعلانية . قال : ليس ذاكم النفاق ..

---

(1) اي لاعبناهم وداعبناهم .

والحديث يقول : « أربع من كنَّ فيه كان منافقاً » . أي استحوذ عليه النفاق وكبرت مصيبته به ، ثم يقول : « ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها » ، أي أنه يكون قد فتح على نفسه بابَ الإصابة بهذه الآفة الخبيثة،ومن ثَمَّ يكون عرضة للاصابة ببقية أجزائها فتتم النكبة ، فواجبه أن يسارع إلى ترك هذه الخصلة ، حتى يحفظ لنفسه إسلامَها وإيمانها .

والخصلة في الأصل هي القطعة من الشيء ، ثم أطلقت على الصفة من الصفات ، فيقال : فيه خصلة حسنة ، أو خصلة سيئة ، والمراد بالخصلة في الحديث شعبة من شعب النفاق ، وجزء منه ، أو حالة من حالاته .

والخصلة الأولى هي : « إذا حدث كذب » ، والصدق في الحديث سمة الرجل المؤمن ، وصفة المسلم المستقيم ، والكذب خلق ذميم ، يدل على دناءة النفس وحقارة الذات ، ولقد ورد في الحديث : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب » ، والإنسان المنحرف يستبيح لنفسه أن يكذب كذبةً فتجره إلى أخت لها وثالثة ورابعة ، حتى يطبع نفسه بطابع الكذاب المنافق الأثيم .

والخصلة الثانية هي : « وإذا وعد أخلف » . أن لا يفي بما يعطي من عهود ، وهذا يكون بأن يعد وهو ينوي في نفسه ألا يفي ، وهذا هو أخبث ألوان الخلف في الوعد ، أو يعد وهو ينوي الوفاء بالوعد عند إعطائه، ثم ينصرف إلى الغدر به بلا ضرورة ، ولكن إذا وعد الإنسان وهو ينوي الوفاء ، ثم عجز عنه ، فلا ذنب عليه ، فإنما الأعمال بالنيات .

والوفاء بالوعد يجب أن يكون مع الجميع : مع الصغير والكبير ، ومع القريب والبعيد ، ومع الصديق والعدو ، ولذلك قال أبو هريرة : « من قال

لصبي : تعال هاك تمراً ، ثم لا يعطيه شيئاً فهي كذبة» . وجاء في حديث ابن مسعود : « لا يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجز له » .

والخصلة الثالثة هي : « وإذا خاصم فَجَرَ » . والفجور هو الانبعاث والتفتح في المعاصي ، والفاجر هو المنبعث في الآثام والمحارم ، وكل مائل عن الحق يسمى فاجراً ، وأيام الفِجَار هي أيام العرب في الجاهلية استحلوا فيها الحرمات . والفجور هنا هو أن يتعمد الخروج عن الحق حتى يصير الحق باطلا ، والباطل حقاً . وتعود الكذب هو الذي يؤدي إلى الفجور في الخصومة . ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام :

« إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار » .

ومن أسوإ العادات المبالغة في الخصومة والإسراف في العداوة ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخَصِم » . وقال أيضاً :

« إنكم لتختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض ، وإنما أقضي على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه ، إنما أقطع له قطعة من النار » . وقال أيضاً : « من خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، أي حتى يترك ذلك ويتوب منه » . وقال أيضاً : « من أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب الله » .

والخصلة الرابعة هي : « وإذا عاهد غدر » . والعهد هو الموثق الذي يأخذه الإنسان على نفسه ، والغدر هو نقض العهد وترك الوفاء به ، ولقد حث القرآن الكريم حثاً قوياً بادياً على الوفاء بالعهد ، وجعله صفة الأخيار الأبرار ، فقال: « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » ، وقال : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » ، وقال : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » ، وقال : « ومن أوفى بعهده من الله » ... إلخ .

وفي الحديث : « حسن العهد من الإيمان » أي الحفاظ عليه ورعايته .

كما حمل الإسلام حملة عنيفة على الغدر والخيانة ، فقال الحديث : « لكل غادر لواء يوم القيامة يُعْرَف به » . وقال : « إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة ، فيقال : ألا هذه غدرةُ فلان » .. ولذلك كان الغدر محرّماً على المسلم حتى مع الكافر ، ما دام المسلم قد أعطى هذا الكافرَ عهداً ، لأن المسلمين عند شروطهم وعهودهم . ولقد قال الرسول : « من قتل نفساً معاهدة بغير حقه لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » .

* * *

والوفاء أنواع وألوان ، فهناك الوفاء بعهد الله تعالى ، بتأدية الواجبات وتجنب المنهيات ، وهناك الوفاء بالبيعة للامام ، وهناك الوفاء لمن ارتبط معك بعقد مشروع ، وهناك الوفاء للأمة والوطن ، وهلم جرا . وكل شخص له كرامة في نفسه ، وأصالة في خُلقه ، لا يقبل أن يخون أو يخدع ، لأن الخيانة والغدر من صفات الأخساء ، ولذلك يقول أبو العتاهية :

ليس دنيا الا بدين . وليس   الدين إلا مكـــارم الأخـــلاق
إنما المكر والخديعة في النـــار   وهما من خصال أهل النفاق .

ولقد جاءت خصلة أخرى في بعض روايات الحديث وهي : « وإذا ائتُمن خان » ، وخيانة الأمانة — أيا كانت هذه الأمانة — رذيلة من أقبح الرذائل التي لا تتفق والإسلام ، ولا تتلاقى مع الإيمان ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، ويقول : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » .

ويقول عن المؤمنين : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

والحديث يقول : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك » . وهناك حديث لابن مسعود – ويروى مرفوعاً – وهو : « القتل في سبيل الله يكفّر كل ذنب إلا الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له : أدّ أمانتك . فيقول : من أين يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ . فيقال : اذهبوا به إلى الهاوية ، فيهوى به حتى ينتهي إلى قعرها ، فيجدها هناك كهيئتها ، فيحملها فيضعها على عنقه ، فيصعد بها في نار جهنم ، حتى إذا رأى أنه قد خرج منها زلت فهوى ، فيهوي هو في أثرها أبدَ الآبدين » .

هذا ومن لطائف ما يروى أن محمد بن كعب القرظي استنبط معنى حديث : « آية المنافق ثلاث » من ثلاثة مواضع من القرآن الكريم ، وقال : مصداق ذلك في كتاب الله تعالى قوله : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » . وقوله : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » ، وقوله : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً . » .

وهذا الاستنباط متعلق كما سبق برواية الحديث التي تقول : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » ، وذلك لأن الآية الأولى أشارت إلى الكذب ، والثانية أشارت إلى خُلف الوعد ، والثالثة أشارت إلى خيانة الأمانة .

نسأل الله جل جلاله أن يزين قلوبنا بالإيمان ، ونفوسنا بالتقوى ، وأن يعصمنا من الزلل والخلل ، إنه هو الرءوف الرحيم .

ثلاث خصال محظورات

عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لا يحل لأحد أن يفعلهن : لا يؤم رجلٌ قوماً فيخص نفسه بالدعاء دونهم ، فإن فعل فقد خانهم ، ولا ينظر في قعر بيت قبل أن يستأذن ، فإن فعل فقد دخل ، ولا يصلي وهو حَقِنٌ حتى يتخفف. »

(رواه أحمد والترمذي) .

* * *

راوي هذا الحديث الشريف هو أبو عبدالله ثوبان بن جحدر الهاشمي ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصله من اليمن . قيل إنه من أهل السراة ، وهو موضع بين مكة واليمن ، وقيل إنه من حمير ، أصابه سَبْيٌ فاشتراه النبي عليه الصلاة والسلام ، وأعتقه ، وقال له : إن شئت أن تلحق بمن أنت منهم فافعل ، وإن شئت أن تثبت فأنت منا أهلَ البيت ، فثبت وأقام مع الرسول ، ولازمه في سفره وإقامته ، حتى توفي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ثم خرج ثوبان إلى الشام ، فنزل « الرملة » ، ثم انتقل إلى حمص ، وبقي بها إلى أن تُوفي سنة خمس وأربعين ، وقيل سنة أربع وخمسين . وقد روى كثيراً من الأحاديث عن الرسول ، ومنها قوله : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لن تسجد لله سجدةً إلا رفعك الله بها درجة ، وحط

عنك بها خطيئة » . وقوله : « من سأل مسألة وهو عنها غني كانت شينا في وجهه يوم القيامة » . ويروى أن الرسول قال يوماً : « من يتكفل لي أن لا يسأل الناس ، وأتكفل له بالجنة ؟ . فقال ثوبان : أنا . فكان لا يسأل أحداً شيئاً .

والحديث يقول أول ما يقول : « ثلاث لا يحل لأحد أن يفعلهن » : أي هناك ثلاث خصال ذميمة ينفّر منها الإسلام ، ولا يرتضيها الله تعالى لشخص من عباده . ولا يحل: أي لا يجوز ولا يباح ، لأن الحلال ضد الحرام،ويقال: حَلّ المحرم وأحل ، إذا حل له ما يحرم عليه من محظورات الحج في أثناء حجه. وأصل كلمة الحلال هو حل العقدة ، واستعير حل العقدة لجعل الشيء حلالاً ، أي مباحاً . وكأن الشيء كان ممتنعاً بعقد عقدته ، فلما حُلت العقدة صار في متناول اليد . والمراد بعدم الحل هنا هو الحرمة فيما يتعلق بالنظر إلى داخل البيوت دون إذن ، والكراهة فيما يتعلق بتخصيص النفس بالدعاء ، وبالصلاة في حالة الاحتقان .

ثم قال الحديث : « لا يؤم الرجل قوماً فيخص نفسَه بالدعاء دونهم » : أي لا يجعل نفسه إماماً للناس في الصلاة . ثم يفردها بالدعاء له ، دون الدعاء للذين يصلون معه . بل ينبغي له أن يشركهم معه في الدعاء . ويؤم : أي يصير إماماً ، « فيخص » : يقال خصه بالشيء . واختصه بالشيء ، أي جعله له دون سواه . والتخصص والتخصيص والخصوصية والاختصاص تفرد الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة ، وهو ضد العموم والتعميم . والمراد بالدعاء هنا سؤال الله عز وجل والرجاء منه .

« فإن فعل فقد خانهم » : وقد عرّفوا الخيانة بأنها مخالفة الحق بنقض العهد في السر . وهي نقيض الأمانة . أي أن من أفرد نفسه بالدعاء ، ولم يدع للذين يصلون من ورائه . فقد خانهم ، لأنه أضاع حقاً من حقوقهم ، ومن أضاع حقاً لغيره فهو خائن ،ولأنه يكون قد حرص على حقه ، وأهمل حقوقهم

إذ هم تابعون له ، فينبغي أن يكون دعاؤه شاملاً لهم ، وإلا فقد ضيع حقاً من حقوق الأمانة .

والعلماء يقولون إن تعميم الدعاء يكون في المواقف الجهرية من الصلاة، أي حينما يسمعه المأمومون وهو يدعو ، كحالة القنوت في صلاة الصبح ، وكما في دعاء النازلة إذا ردده الإمام في الصلاة والقوم يسمعونه . وأباح العلماء أن يدعو الإمام لنفسه إذا كان دعاؤه سراً ، كما يحدث في الدعاء إذا أتى به الإمام في الركوع أو السجود . أو عند الاستفتاح في الصلاة، أو في آخر التشهد قبل السلام ؛ وقد استدلوا على ذلك بأن الرسول كان يدعو في سره حين افتتاحه الصلاة بقوله : « اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب ، اللهم نقّني من ذنوبي كما ينقّى الثوبُ الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من ذنوبي بالثلج والماء والبَرَد » . وبأن الرسول كان يدعو في ركوعه وسجوده بقوله : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، أللهم اغفر لي » . وبأنه كان يقول عقب الصلاة : « اللهم إني أعوذ بك من أن أُرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر » .

وذلك بخلاف الدعاء الذي يسمعه المأموون من الإمام في الصلاة . فإن الوارد منه جاء بصيغة الجمع التي تشمل الإمام والمأمومين ، كما في دعاء القنوت الذي يقول :

« اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شرَّ ما قضيت ، فإنك سبحانك تقضي ولا يُقْضَى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت » .

وكما في دعاء الوتر الذي يقول : « اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك، ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثني عليك الخير كله ، نشكرك

ولا نكفرك ، اللهم إياك نعبد ، وإليك نسعى ونَحْفد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجدّ بالكافرين مُلْحَق ، اللهم أهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليّت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا شر ما قضيت ، إنك سبحانك تقضي ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك ، وبك منك ، لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » . وتظهر ثمرة هذا عند من قال من الأئمة بصلاة الوتر في جماعة ، وسنية الجهر فيها .

وإذا كان الحديث ينهى عن إفراد الإمام نفسَه بالدعاء ، ويدعو إلى جمعه بين الدعاء للنفس والدعاء للمأمومين ، فإن الإسلام من باب أولى ينهى عن أن يدعو الإنسان لنفسه ، وينفي الدعاء عن غيره ، كذلك الأعرابي الذي جهل حين دعا فقال : اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً . وبهذا النهي حارب الإسلام حبّ الذات أو « الأنوية » في العبادة والدعاء ، لأن الإسلام يريد من أتباعه أن يكونوا أصحابَ نزعة جماعية متكافلة .

ثم قال الحديث : « ولا ينظر في قعر بيت » : والأصل في القعر هو أسفل الشيء ، وقيل إن قعر الشيء هو نهاية أسفله . والمراد بقعر البيت هنا داخله وجوفه ، والمراد بالبيت بيت الإنسان الأجنبي الذي لا يحل للمسلم أن يتطلع إليه ، أو يدخله دون استئذان أو استئناس ، والقرآن الكريم قد علم أهله أن يحفظوا حرمة البيوت ، ويصونوا كرامتها ، ولا يتطلعوا إلى أسرارها وأخبارها فقال في سورة النور : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » .

وكذلك جاء في الحديث : « لا يحل لامرىء أن ينظر في جوف بيت امرىء حتى يستأذن » . ولقد نهى الإسلام عن التطلع إلى داخل البيوت ، وعن دخولها إلا بعد الاستئذان ، لحفظ الأسرار وصيانة العورات ، ولا شك أن هذا أدب اجتماعي كريم نسيه كثير من الناس، أو تمردوا عليه، فحرموا ما فيه من تنظيم قويم ، حتى في الأمور التي قد يحسبها بعض الناس هينة وهي عظيمة الشأن والأثر .

« فإن فعل فقد دخل » : أي فإن فعل النظرَ وتطلع إلى داخل البيت فكأنه قد دخله فعلاً ، لأن النظر إلى داخل البيت — حتى ولو كان الناظر إليه موجوداً خارجه — كالدخول فيه ، لأن المحظور قد وقع بالرؤية ، لأنها هي التي تكشف العورات والأسرار ، وتسيء إلى مشاعر الناس ، فالنظر بلا إذن كالدخول بلا إذن ، كل منهما ينفر منه الإسلام ويباعد عنه .

ثم قال الحديث : « ولا يصلي وهو حَقِنٌ » . وحقنَ بفتح الحاء وكسر القاف — هو الحابس لبوله وغائطه ، وهو الذي توجد فيه الرغبة أو الحاجة إلى التبول أو التبرز ثم يغالب هذه الرغبة ويقاومها ، لأنه يريد — مثلاً — أن يحتفظ بوضوئه مدة أطول ، أو نحو ذلك . والنهي عن الصلاة في هذه الحالة إنما هو بسبب ما يكون عليه الحَقِنُ من اضطراب وعدَم استقرار ، فإذا صلى وهذه الحالة عنده فإنه لن يتفرغ لصلاته ، ولن يحسن أداءها ، ولن يخشع فيها ، لعجلته واضطرابه ، ومقاومته الحاجةَ إلى التبرز أو التبول . والمراد بالصلاة هنا أي صلاة ، فهي تشمل الفرضَ العيني كصلاة الفرائض الخمس اليومية ، والسنة كالنوافل القبلية والبعدية ، وفرض الكفاية كصلاة الجنازة .

وجاء في حديث آخر : « لا يصلين أحدكم وهو حاقن » ، وفي رواية « وهو حَقِن » ونفهم من هذا أن الحَقِن والحاقن سواء . وكذلك جاء في الحديث : « لا رأي لحاقن » . وقد قالوا إن الحاقن هو الذي حبس بوله ، والحاقب هو الذي حبس غائطه .. ونفهم من هذا الحديث أن الإسلام ينهى

الإنسان المسلم عن إبداء الرأي ، أو إصدار الحكومة في قضية ، أو الفصل بين متنازعين ،وهو في هذه الحالة التي لا يتوافر له فيها الهدوءُ الحسي وصفاء النفس، وهذا التوجيه من أروع التوجيهات التي تؤدي إلى حسن القيام بالواجب في سلامة واطمئنان .

إن الصلاة لقاء مع الله ، ومناجاة له في حماه ، فإن كان الإنسان مشغولاً عن الخشوع فيها ، والاطمئنان في أدائها ، بسبب احتقان البول أو احتقاب البراز ، أو جوع وتطلع إلى الطعام ، أو انشغال فكر وانصراف ذهن، فإنه لا يُحسن أداءها على الوجه الطيب الحسن ، وكذلك إذا كان الإنسان يستمع إلى ظُلامة ، أو يفصل في قضية ، وهو في حالة قلــق أو اضطراب حسي أو نفسي ، فإنه قد يتعجل الأمور ، ولا يحسن الاستماع إلى الحجج ووجهات النظر المختلفة ؛ وقد يؤدي ذلك إلى تعجل إصدار الرأي فلا يصيب شاكلة الصواب فيأتي الإسلام ليعلم أبناءه أن يكون الواحد منهم متفرغاً وهو يؤدي الواجب ، وإذا كانت هناك عقبات تحول دون الاطمئنان في أداء الواجب ، فعلى الانسان أن يزيلها أولاً ، ثم يقبل على أداء واجبه بيقظة واطمئنان .

ثم قال الحديث : « حتى يتخفف » أي حتى يقضي حاجته ، بأن يتبول أو يتبرز ، وبذلك يكون قد تخفف ، لأنه أخرج الفضلة التي كانت تقلقه ، سواء أكانت بولاً أو برازاً أم ريحاً ، وكأن وجود الحاجة إلى التبول أو التبرز تثقل الإنسان وتعوقه ، فإذا قضاها صار خفيفاً نشيطاً لأداء العمل .

وبعض الأئمة يحرم الصلاة مع مدافعة واحد من الأخبثين ــ وهما البول والغائط ــ ويقول البعض إن هذه الحالة إذا أدت إلى ضياع الخشوع من الصلاة لم تصح ، والكثير من الفقهاء قرروا أن الصلاة مع وجود الحاجة إلى التبول أو التبرز تكون مكروهة .

يقول العيني : « في هذا الحديث ثلاث منهيات : الأول نهي تنزيه ،

والثاني نهي تحريم ، والثالث نهي شفقة ، حتى ولو صلى وهو حاقن صحت صلاته ، فإن قيل : كيف يجوز أن يفرق بين أشياء يجمعها نظم واحد ؟ قلت: قد جاء مثل ذلك كثيراً عند قيام دليل لبعضها بصيغة مخصوصة ، كما روي أنه كره من الشاة سبعاً : الدم والمرارة والحياء والغدة والذكر والأنثيين والمثانة. والدم حرام بالإجماع ، وبقية المذكورات معه مكروهة . فإن قيل : كيف يكون ذلك ها هنا ، وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : لا يحل لأحد أن يعملهن ، قلت : هذا خارج مخرج المبالغة في المنع ، وأمثال هذا كثيرة في النصوص » .

وهناك رواية أخرى لهذا الحديث تقول : « لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلي وهو حقن حتى يتخفف ، ولا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر في بيت قبل أن يستأذن ، فإن فعل فقد دخل ، ولا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يؤم قوماً الا بإذنهم ، ولا يخص نفسه بدعوة دونهم ، فإن فعل فقد خانهم » . وقد قيل إن النهي عن إمامة الناس إنما يكون حينما يوجد الإنسان في بيت غيره ، أو إذا كان أحد الموجودين أحقّ منه بالإمامة .

وهكذا تهدينا السنة المطهرة إلى طائفة من الأمور التي تزيدنا توفيقاً وصلاحاً، وعلى الله قصد السبيل .

المسجد الأقصى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُشَدُّ الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » .

(رواه البخاري)

* * *

لعل الذي يدفع بنا إلى الكلام حول هذا الحديث هو ما تعرض له المسجد الأقصى وما حوله من طغيان وعدوان وبهتان ، بعد أن وطئت الأقدام الدخيلة النجسة الأرضَ الطيبة المقدسة ، وأُصيب المسلمون من جراء ذلك بعميق الأسى وبليغ الأسف في المشارق والمغارب ، وإذا كان الحديث النبوي الشريف يتحدث عن المساجد الثلاثة ذاتِ المكانة والحرمة في نظر الإسلام والمسلمين أجمعين ، وهي المسجد الحرام وواسطة عقده الكعبة الحرام المشرفة ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وواسطة عقده جدث المصطفى عليه الصلاة والسلام ، والمسجد الأقصى ، وإلى جواره قبة الصخرة ، ومن حوله ذكريات وحرمات للاسلام والمسلمين ، فإننا لا نجهل المكانةَ العظمى للمسجد الحرام والكعبة الحرام ، وحسب هذه الكعبة تنويها في مقامنا هذا ، أن نتدبر الأبياتَ التي رواها الإمام محمد بن عبدالله الزركشي في كتابه « إعلام الساجد بأحكام المساجد » وفيها يقول قائلها عن بيت الله المطهر :

أطوف به والنفس بعد مشوقةٌ إليه ، وهل بعد الطواف تـداني
وألثم منـه الركن أطلب بَرْدَ مـا بقلبيَ من شوق ، ومن هَيَمان
فوالله ما أزداد إلا صَبـابـةً ولا القلب إلا كثْرةَ الخفقـان
فيا جنة المأوى ، ويـا غايـة المنى ويا منيتي من دون كلّ أمـاني
أبت غَلَبَات الشوقِ إلا تقربـاً إليك ، فما لي بالبعـاد يدان
وما كان صدّي عنك صدّ ملالة ولي شاهد من مقلتـي ولساني
دعوت اصطباري عنك بعدك والبكـا فلبّى البكا ، والصبر عنك عصاني
وقد زعموا أن المحب إذا نـأى سيبلى هواه بعد طول زمـان
ولو كان هذا الزعم حقـاً لكان ذا دواءَ الهوى في الناس كلّ أوان
بلى إنه يبلى التصبر ، والهـوى بغير زمـام قائـدٍ وعنـانِ
أتاك على بعد المزار ، ولو ونت مطيتُه جاءت بـه القدمـانِ

وحسب مسجد الرسول تشريفاً وتنويهاً أن يقول فيه أصدق الخلق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على حوضي » . (رواه البخاري) .

وكلمة : « الرّحال » جمع رَحْل ، وهو مركب للبعير ، وهو أيضاً ما يستصحبه الإنسان في السفر من أثاث ، ويراد بشد الرحال هنا اعتزامُ السفر والأخذ في الارتحال إلى هدف مقصود ، بنية معينة هي نية التعبد بالصلاة والاعتكاف وذكر الله عز وجل .

« والمساجد » : جمع مسجد ، والمسجد في اللغة هو مكان السجود ، وفي الشريعة هو كل موطن من الأرض يُتخذ للصلاة ، بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « : « جُعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً » . ولما كان السجود هو أشرف أفعال الصلاة ، لقرب العبد حينئذ من ربه ، لمبالغته في الخضوع له ، اشتق اسم المكان منه، ثم خصص العرف كلمة «المسجد» بالمكان المهيأ للصلوات الخمس والجُمَع .

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بني في الأرض بعد المسجد الحرام في مكة ، فقد جاء في الصحيحين أن أبا ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وُضع على الأرض ، فقال : المسجد الحرام . قلت : ثم أيّ ؟ . قال : المسجد الأقصى . قلت : وكم بينهما ؟ .

قال : أربعون عاماً ، ثم الأرض لك مسجد ، فحيثما أدركتك الصلاة فصل .

ورووا للمسجد الأقصى أسماءً كثيرة — تشريفاً وتنويها — منها المسجد الأقصى ، وسُمي بذلك لأنه كان أبعدَ المساجد التي تزار ، ويبتغَى بها الأجر ، وقيل إنما سمي بذلك لبعده عن الأقذار والخبائث . ومن أسمائه بيت المقدس ، أي المكان المطهر من الذنوب ، ومنها بيت القدس .... إلخ .

والمسجد الأقصى هو المسجد الوحيد — بعد المسجد الحرام — الذي ذكره القرآن الكريم باسمه في قوله تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » . وهذه الآية نفسها تذكّرنا بميزة كتبها الله تعالى للمسجد الأقصى وبلده وهي القدس ، فقد جعل الله تبارك وتعالى هذا المسجد — بمنّه وفضله — نهايةً لرحلة الإسراء في الأرض ، وبدايةً لرحلة المعراج في الملإ الأعلى ، ثم جعله مرة ثانية نهايةً لرحلة العودة من المعراج ،وبدايةً لرحلة العودة من الإسراء ، وكأن الله تبارك وتعالى قد فعل ذلك لحكمة نستنبطها — والله أعلم بمراده — فنقول : كأن الله تبارك وتعالى يريد أن يقول لعباده أبناء الإسلام : إن هذه البقعة التي يوجد فيها المسجد الاقصى والقدس وما حولهما من أرض فلسطين ، هي أرض من صميم وطن المؤمنين ، فلا يجوز لهم بحال من الأحوال أن يتهاونوا في أمرها ، أو يستخفوا بمكانتها ، أو يتركوها للدخيل يعتدي عليها أو يستبد بأمرها ، فدون ذلك يجب أن تزهق الأرواح وتفنى الأشباح .

ولقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الأقصى. كما جاءت الرواية بذلك عن شداد بن أوس ، وفيها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فصليت من المسجد حيثما شاء الله » . بل قصت علينا قصةُ الإسراء أن الله تبارك وتعالى جمعَ لرسوله محمد إخوته من الأنبياء والمرسلين ، فصلى بهم إماماً ، وكأن هذه الصلاة بيعة من الرسل ، بأن مواريث النبوات والرسالات قد انتهت إلى سيد الأنبياء وخاتم المرسلين: محمد الأمين عليه الصلاة والتسليم، ولله در أمير الشعراء أحمد شوقي حين يصور ذلك بقوله يخاطب إمامَ الرسل :

أسرى بك الله ليلاً إذ ملائكهُ والرسلُ في المسجد الأقصى على قدم(1)
لما خطرتَ به التفوا بسيدهم كالشهب بالبدر، أو كالجُند بالعلَم
صلّى وراءك منهم كلٌّ ذي خطر ومن يفز بحبيب الله يأتم (2)

والمسجد الأقصى هو القبلة الأولى في الإسلام ،ولذلك اشتهر بين المسلمين من قديم الزمن وصفُ المسجد الأقصى بأنه «أولى القبلتين» ، كما اشتهر وصفه بأنه ثالث الحرمين وبأنه «موطن الإسراء والمعراج» . ولقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي — ومعه المسلمون — متجهين إلى المسجد الأقصى أكثر من عام ، حتى نزل قول الله تبارك وتعالى: « قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون » . سورة البقرة الآية ١٤٤ .

وقد أخبرنا سيدنا رسول الله أن الصلاة في المسجد الأقصى لها فضل كبير

---

(١) على قدم : أي قائمون محتشدون .
(٢) ذي خطر : صاحب منزلة وقدر . يأتم : اي يأتم .، والاصل : ومن يأتم بحبيب الله يفز ، ولكن الشاعر قلب الجملة للمبالغة والمبادرة بذكر الفوز .

على الصلاة في غيره من المساجد ، باستثناء المسجد الحرام والمسجد النبوي ، فقد سألتْ ميمونةُ النبيَّ فقالت : يا رسول الله ، أفتنا في بيت المقدس ، فقال : أرض المحشر والمنشر ، ائتوه فصلوا فيه ، فإن صلاةً فيه كألف صلاة في غيره . وفي رواية أن الصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة .

ومن فضائل المسجد الأقصى كما ذكر الفقهاء والعلماء استحباب شد المطي إليه ، وختم القرآن فيه ، والمجاورة عنده ، والصوم فيه ، والإهداء إليه ، كالزيت للانارة ونحوه ، والإحرام بالحج والعمرة ... إلخ .

كما قال العلماء إن السيئات فيه تزداد قبحاً وفحشاً ، لأن المعاصي في المكان الشريف تكون أشدَّ اجتراء على الله عز وجل وأقلَّ خوفاً منه .

ولقد جاء عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق ، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله ، لا يضيرهم خذلانُ من خذلهم ، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة » وما أعمقَ الإشارة التي ينطوي عليها هذا الحديث ، والتي تحث على صدق الجهاد ومداومة النضال من أجل هذه المقدسات الإسلامية الغالية التي لا يجوز بحال من الأحوال أن تذل أو تهون .

وجاء في الخبر : « من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء» وكأن هذا قد قيل في شأن من يموت موفياً بعهده ، صادقاً في وعده ، محتسباً لربه ، طاهراً في قلبه ، مستقيماً على طريقته ، مخلصاً في طاعته . وقال مكحول بن أنس : « إن الجنة تحن شوقاً إلى بيت المقدس ، وصخرة بيت المقدس من جنة الفردوس ، وهي صرة الأرض » ولعل هذا تصوير على سبيل المجاز ، أو التشبيه الذي يفيد التمجيد والتقدير .

وقد جاء في كتاب « الجامع لأحكامَ القرآن » للقرطبي ما خلاصته أن من

نذر صلاةً في مسجد لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة ، فلا يفعل ، بل يصلي في مسجده المعتاد ، اللهم إلا في هذه المساجد الثلاثة : المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ، والمسجد الأقصى ، فإن نذر صلاة في واحد منها خرج اليها .

وجاء في « مختصر الفتاوى » لابن تيمية ما نصه : « والذي عليه أئمة المسلمين وجمهور العلماء : أن السفر للمشاهد التي على القبور غير مشروع ، بل هو معصية من أشنع المعاصي[1] ، حتى لا يجوز قصر الصلاة فيه عند من لا يجوّز قصرها في سفر المعصية ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والأقصى ومسجدي هذا » .

ولهذا اتفق سلف الأمة وخلفها على أنه لو نذر إتيانَ المسجد الحرام ، فإنه يجب عليه الوفاء اتفاقاً ، وكذا لو نذر إتيانَ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو المسجد الأقصى ، وجب عليه الوفاء عند مالك وأحمد والشافعي ولا يجب عليه عند أبي حنيفة » .

ثم قال : «السفر المشروع إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو إلى المسجد الأقصى ، إنما يكون للصلاة التي ورد الحديث في فضلها ، وليس لأحد أن يفعل في ذلك ما هو من خصائص البيت العتيق ، كما يفعله بعض الضُّلاَّل من الطواف بالصخرة ، أو الحجرة النبوية ، أو السفر إلى القدس وقت التعريف أو الذبح هناك ، وحلق الرأس ، ونحو ذلك ، فكل هذا من دين الجاهلية ، وهو من المنكرات في دين الإسلام التي ينبغي ردع فاعلها » .

---

(١) المقصود هنا أنه اذا سافر بنية العبادة ، وعلى أن هذا الشيء من الدين ، ولكن الزيارة للذكرى او العبرة او الدراسة او نحوها لا مانع منها ، بل هي نافعة ومفيدة .

وينبغي أن نعرف أنه قد جاءت رواية للطبراني في المعجم الأوسط تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجد الخَيْف ، ومسجد الحرام ، ومسجدي هذا » . وهذه الرواية لم يروها إلا حماد بن سلمة عن كلثوم بن جبر ، ولم يذكر « مسجد الخيف » إلا في هذه الرواية التي طعن فيها العلماء .

وبعد ، فهذه مكانة المسجد الأقصى القائم في القدس عاصمة فلسطين ، التي عدا عليها السرطان الصهيوني ، وبغى في نواحيها المكر اليهودي ؛ وإن من واجب كل مسلم على وجه الأرض أن يغار على حرمات الإسلام ومقدسات المسلمين ، وأن يبذل كل ما يستطيع لتحرير هذه الحرمات والمقدسات : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » . سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .

اختيار الجلساء

عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك إما أن يُحْذِيَك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحاً خبيثة » .

(متفق عليه ، رواه البخاري ومسلم) .

* * *

الإنسان في هذه الحياة لا يستطيع أن يعيش وحيداً بمفرده ، بل لا بد له من الالتقاء بهذا ، والجلوس إلى ذاك ، والمعاملة لذلك ، وكلما أحسن الإنسان اختيارَه الذين يجلس إليهم ، ويتأثر بهم ، ويتعامل معهم ، كان ذلك عوناً على استقامته في حياته ، وبلوغه كريمَ غاياته ، ومن هنا تظهر لنا مكانة هذا الحديث النبوي الشريف ، الذي يرشدنا إلى اختيار الجلساء ، ويحذرنا ملاقاةَ الأشرار والسفهاء ، لأننا محتاجون إلى من يكون أمامنا قدوةً حسنة ، وأسوة طيبة ، في العمل والقول والسلوك، ولأنه لا بد لنا من أن نحذر الذين يسيئون حين يحرضوننا على الشر أو الانحراف ، بسوء أعمالهم أو أقوالهم أو سلوكهم .

وفي الحديث كلمات نتعرف إلى معناها أولاً ، ثم ندلف بعدها إلى فهم

المعنى العام للهدى النبوي الكريم :

« المسك » : هو الطيب المعروف ، وقيل إن كلمة « المسك » من الألفاظ المعربة ، وكانت العرب تسمي المسك : المشموم .

« الكير » — بكسر الكاف — هو كير الحداد المعروف ، وهو المبني من الطين ، ويوقد فيه على الفحم ، ليستخدم في إلانة الحديد وصهره ، تمهيداً لتكييفه حسب ما يريده الصاهر ، وقيل إن المبني هو الكور ، وأما الذي ينفخ به النار فاسمه الزق . وقد جاء في الحديث المتفق عليه : « إنما المدينة كالكير ، تنفي خَبَثَهَا وينصع طيبُها » . وقيل إن المنفاخ الذي تضرم به النار يسمى: الكير .

« يحذيك » أي يعطيك . والحَذْو — بفتح فسكون — : القطع . والحُذْوة — بضم فسكون — القطعة من اللحم ، وكذلك الحِذْية — بكسر فسكون — وفي الحديث : « إنما فاطمة حِذْيَة مني يقبضني ما يقبضها » .

« تبتاع منه » : أي تشتري منه ، والمراد هنا هو أنك تتأثر به ، وتستجيب لتقليده ، فأنت مع الجليس الصالح تدخل في الخير كما دخل ، وتحرص على الطيب كما حرص ، فتفوز كما يفوز صاحب الصفقة الكاسبة .

« وإما أن تجد منه ريحا طيبة » : هذه إشارة إلى شعور الإنسان بالانشراح والسرور ، فكما يفرح المرء ويسر بشم الرائحة الجميلة الطيبة ، يفرح المرء لرؤية الخير يفيضه الله على يد من يشاء من عباده ، ومتى استطاب الإنسان شيئاً مال إليه وتعلق به .

« إما أن يحرق ثيابك » : في هذا إشارة إلى أنك إذا شاركت جليس السوء أصابك من شره وسوئه ما يدخل عليك بالأذى والخسران ، فكما يتألم المرء

ويحزن إذا احترقت ثيابه بالكير ، يتألم ويحزن إذا ناله شر مادي أو معنوي ، بسبب مجالسة الأشرار الذين يتسببون في المفاسد والأضرار .

« خبيثة » : أصل الخبيث في كلام العرب هو المذموم والمكروه ، والقبيح من قول أو فعل أو مال أو طعام أوشراب أو شخص أو حال . وقال ابـــن الأعرابي : الخَبَث في كلام العرب المكروه ، فإن كان من الكلام فهو الشتم، وإن كان من الاعتقاد فهو الكفر ، وإن كان من الطعام فهو الحرام ، وإن كان من الشراب فهو الضار .

* * *

والحديث بعد هذا ينطوي على توجيه رشيد جاء بطريقة التشبيه المصور المؤثر ، فقد شبه الرجلَ الصالح المصلح المستقيم بالذي يحمل الطيب الجميل ، بجامع حسن الأثر الناشىء عن كل منهما ، فحامل المسك لا تحرم فائدة منه ، فإما أن يهبك ويعطيك بعضَ ما لديه ، وإما أن تشتري منه مقداراً تنتفع به ، وإما أن تشم عن طريقه رائحةً طيبة على أقل تقدير .

وكذلك أنت مع الجليس الطاهر الطيب الصالح ، إما أن يؤثر فيك الأثر الكريم ، بعلمه وعمله وإرشاده دون معاناة أو مطالبة بذلك ، وإما أن تحصل على ما تريده من فائدة عنده بشيء من المعالجة والمعاناة ، وإما أن تسعد بجلسته ومشاركتك فيها على أقل تقدير .

وأما نافخ الكير فأنت لا تعدم شراً إذا جلست إليه ، فهو إما أن يحرق ثيابك بنارِ كيره ، وإما أن تعاني ريحاً ذميمة من دخانه ووقوده ، وكذلك أنت إذا جلست مع الجليس السوء، فإما أن ينالك إيذاء بتطاوله وعدوانه،وإما أن تبوء بمذمة المشاركة لمجلس يعاب على المشارك فيه ، ولذلك شبه الحديث رجلَ السوء والمعصية بنافخ الكير، بجامع ما ينشأ عن كل منهما من الأثر السيىء .

ولقد علمنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن المؤمن مرآة أخيه ، وأن الإنسان يوزَن بميزان من يصدقه ويرافقه ، ولذلك قال : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » ، أي أن الإنسان يتأثر — بوعي أو بغير وعي — بمخالطة رفيقه وصديقه ؛ ولذلك ينبغي له أن يحسن النظرَ فيمن يختاره للصداقة والخُلة ، فالمراد بالنظر هنا التدقيق في اختيار الأصدقاء والرفقاء والجلساء ، لأن الإنسان يوزَن بميزان من يخالطه .

ولقد ذكر حجة الإسلام الغزالي في « الإحياء » الأبياتَ التالية منسوبة إلى الامام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه :

فلا تصحب أخا الجهل   وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى   حليماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء   إذا ما المرء ماشاه
وللشيء من الشيء   مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب   دليل حين يلقاه

وقال آخر :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارَهم   ولا تصحب الأردا فتردى مع الرَّدِي
عن المرء لا تسل ، وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

ومن مأثور كلام الحكماء قول بعضهم : لا تصحب إلا أحد رجلين : رجل تتعلم منه شيئاً في أمر دينك فينفعك ، أو رجل تعلّمه شيئاً في أمر دينه فيقبل منك ، والثالث فاهرب منه .

وهذا القول المأثور يلفتنا إلى جملة الواجبات التي تلزم الإنسان حين يتطلع إلى مجالسة الناس ، فالواجب الأول أن يبحث عن جليس عالم بالدين ، مرشد

إلى طريق الحق، لينال من علمه وهديه ما ينتفع به في الدين ،وتوثيق صلته بالله رب العالمين ، وإذا كان الإنسان متعلماً متفقهاً ، فالواجب عليه أن يؤدي زكاةَ علمه وفقهه ، فإذا جلس إلى من هم أقل منه علماً أو فقهاً ، كان عليه أن يعلمهم مما علمه الله ، وأن يفقههم في الدين كما يسّر الله له من قبل مَن فقهه وأرشده ، وإنما يفعل الإنسان ذلك مع من يتقبل النصح ، ويستجيب للإرشاد ، وكأن هذا إشعار للانسان بألا يضيع وقتَه مع الجاحدين المعاندين . الذين يصدون ولا يستجيبون ، وإذا لم يجد الإنسان من يتعلم منه ، أو من يعلمه ويقبل علمه ، فالوحدة خير له من جليس السوء .

وقد ذكر الغزالي أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان، بل لا بد أن يتميز الإنسان بخصال وصفات يُرْغَب بسببها في صحبته ، ثم تحدث عن الفوائد التي يتطلبها الناس على اختلاف أنواعهم من الصحبة ، فقال : « ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية ، أما الدنيوية فكالانتفاع بالمال أو الجاه ، أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة ، وليس ذلك من أغراضنا ، وأما الدينية فيجتمع فيها أيضاً أغراض مختلفة ، إذ منها الاستفادة من الجاه تحصناً به عن إيذاء من يشوش القلب ، ويصد عن العبادة ، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت ، ومنها الاستعانة به في المهمات ، فيكون عدة في المصائب ، وقوة في الأحوال ، ومنها التبرك بمجرد الدعاء ، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة ، فقد قال بعض السلف : استكثروا من الإخوان ، فإن لكل مؤمن شفاعة ، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك .

وروي في غريب التفسير في قوله تعالى : « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله » ، قال يشفّعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم . ويقال : إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه . ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة ، وكرهوا العزلة والانفراد » .

وذكر حجة الإسلام أنه ينبغي للانسان أن يفضّل في المجالسة والمصاحبة من تكون له خمس خصال ، هي أن يكون عاقلاً ، حسن الخلق ، غير فاسق ، ولا مبتدع ، ولا حريص على الدنيا وأراد بعض السلف أن يكون مثالياً فيما يتعلق بصفات الشخص الذي نختاره للمجالسة ؛ فهذا علقمة العطاردي يوصي ابنه فيقول له : « يا بني ، إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة ، فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن قعدتْ بك مئونةٌ مانك ؛ اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى سيئة سدّها ؛ اصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكتَّ ابتداك ، وإن نزلت بك نازلةٌ واساك ؛ اصحب من إذا قلت صدّق قولك ، وإذا حاولتما أمراً أمّرك ، وإن تنازعتما آثرك » .

وهكذا نرى أن علقمة لم يدع صفة من صفات الخير ، ولا خلقاً من مكارم الأخلاق ، إلا وضعه في ذلك المصاحب المثالي ، ولذلك يروى أن المأمون حينما سمع هذه الوصية قال : فأين هذا ؟ . فقيل له : أتدري لم أوصاه بذلك ؟. قال : لا . فقيل له : لأنه أراد أن لا يصحب أحداً .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : « الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » فقد نستطيع أن نفهم من هذا أن شبيه الشيء منجذب إليه ، والرجل الطيب الصالح تراه بفطرته وعادته يميل إلى أقرانه وزملائه من الطيبين الصالحين ، والرجل الخبيث السيىء تراه بنزعته وانحرافه يميل إلى أشباهه وأمثاله من الفاسدين والفاسقين ، وكأن معنى هذا أن الإنسان حين يختار جليسه أو مصاحبه يحكم على نفسه بهذا الاختيار ، فإن آثر مجالسةَ الصالحين عَرف الناس عنه أنه منهم وإليهم ، وأحسن الناس به الظن ، وأجملوا فيه القول ؛ وإن آثر مجالسة أهل السوء والإثم عرف الناس عنه أنه موصول الأسباب بهذا الحمى الموبوء .

وقد روى البيهقي موقوفاً على ابن مسعود : « لو أن مؤمناً دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد، لجاء حتّى يجلس إليه ، ولو أن منافقاً دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمن ومنافق واحد ، لجاء حتّى يجلس إليه » . ولقد صورتْ لغةُ الشعر شيئاً من هذا القبيل ، فقالت :

وقــائل : كيف تفارقتما ؟ فقلت قــولاً فيــه إنصافُ :
لم يــكُ من شكلي ففارقتُــه والناس أشكـــال وأصناف

وينبغي أن نتذكر هنا أن الجليس يحرص دائماً على أن يدفع مُجَالسَه إلى التلطخ بما تلطخ به من أقذار وأوساخ ، وهذا شارب الخمر مثلاً تجده حريصاً على أن يشاركه الشراب مَنْ يكون حاضراً معه ، حتّى لا يتميز عليه ، وحتّى لا يتصور السكير أن الممتنع عن الشراب يتعالى عليه بتحصنه وإبائه الشراب ، وكذلك متعاطي الحشيش إذا رأى في مجلسه شخصاً لا يتعاطاه ، حرص بكل ما استطاع على أن يجعله مشاركاً في هذا التعاطي الوبيء ، ومعنى هذا أن مجالسة الأشرار ينشأ عنها التحريض المستمر على ارتكاب الإثم ، وإذا لم ينفع التحريض حيناً، فإنه سيؤتي ثمرَه الخبيث مرة أخرى. فالعاقل من تنبه وحاذر مخالطة الأشرار .

وإذا كان من واجب العاقل أن يحذر مخالطةَ أهل السوء . فإن من واجبه كذلك أن يحرص على مخالطة أهل الخير ، وهذا هو الفاروق عمر رضوان الله عليه يقول : « لولا أن أسير في سبيل الله ، أو أضع جبهتي في التراب لله ، أو أن أجالس قوماً يلتقطون طيبَ القول كما يلتقط طيب الثمر ، لأحببت أن أكون قد لحقت بالله » .

هذا ، وهناك حديث نبوي آخر يدور حول بعض المعنى الذي دار حوله الحديث الذي معنا . وهذا الحديث يقول : « مثل الجليس الصالح مثل الداريّ ،

ان لم يحذك من عطره ، علقك من ريحه » . والداريّ ـ بتشديد الياء ـ هو العطار الذي يبيع الطّيب ، نسبة إلى « دارين » وهو موضع في البحرين ، يؤتى منه بالطيب ، والمعنى أن هذا الجليس الصالح إما أن يعطيك من عطره ، وإما أن تشم منه رائحة طيبة .

اللهم جملنا بأدب دينك ، وهدى رسولك ، واجعلنا من الصالحين .

بين الدنيا والآخرة

رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اعمل عملَ امرىء يظن أنه لن يموت أبداً ، واحذر حذَر امرىء يخشى أن يموت غداً » .

(رواه البيهقي في السنن)[1].

* * *

هذا الحديث الشريف يذكّرنا بما جاء به الإسلام العظيم من تنظيم لشئون الدنيا وشئون الآخرة ، ومن فسح الطريق أمام المسلم لكي ينال من دنياه ما يبتغيه من زينة الله تعالى في كونه والطيبات من الرزق ، ولكي يعد نفسه في الوقت ذاته للقاء ربه جل جلاله بالتقوى والعمل الصالح ،والقرآن الكريم يرمز إلى هذا حيث يقول في سورة القصص :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .

ويقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « ليس خيركم من ترك

---

(١) ذكر السيوطي في الجامع الصغير ان هذا الحديث مروي عن ابن عمرو ، ووضع عليه علامة الضعيف .

الدنيا لأجل الآخرة ، ولا من ترك الآخرة لأجل الدنيا ، ولكن خيركم من عمل لهذه وتلك » .

والعبارة الدائرة على ألسنة الكاتبين والواعظين فيما يتعلق بمعنى هذا الحديث هي :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ». ويحترس أكثرهم حين الاستشهاد بها فيقولون : إنها أثر إسلامي حكيم ، ولكن السيوطي في الجامع الصغير أورد الحديث بالنص الذي سبق في مطلع الكلام ، وفيه مفردات نتبين المراد منها قبل التعرض لمعنى الحديث العام :
« يظن » : الظن في الأصل هو الشك الذي يعرض في النفس ، ولكنه قد يجيء بمعنى العلم ، والمراد هنا هو إظهار الشخص المُجِدّ في العمل كأنه يظن البقاء في الدنيا ، ولكنه في الحقيقة يعلم أنه سيموت ، لأن ربه جَلّ جلاله يقول : « كل من عليها فان » ، ويقول : « كل نفس ذائقة الموت » .

« أبداً » : الأبد هو الدهر ، وقيل في تعريفه : الأبد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان ، فلا يقال : أبد كذا ، كما يقال : زمان كذا . ويقال تأبد الشيء ، أي بقي أبداً ، ويعبّر به عما يبقى مدة طويلة .

« واحذر » : الحذر احتراز عن مخيف ، وفي القرآن الكريم : « خذوا حذركم » . وفيه :

« هم العدو فاحذرهم » .

« يخشى » ــ الخشية خوف مع علم بما يخشى الإنسان منه .

« غداً » الغد هو اليوم الذي يأتي بعد يومك الحاضر ، والمراد تصوير قصر المدة التي يحتمل أن يعيشها الإنسان .

هذا وقد وردت في كتاب « النهاية » رواية أخرى للحديث ، هي: « احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً . » ، ومعنى : « احرث لدنياك » هو : اعمل لدنياك . يقال حرثت واحترثت . والحرث هو إلقاء البذر في الأرض وإعدادها للزرع ، والحرث أيضاً يطلق على الزرع ، ولقد ذم القرآن الكريم من يتلف الحرث ، فقال في سورة البقرة: « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » .

وقد جاء في « النهاية » أن الظاهر من مفهوم لفظ هذا الحديث هو الحث على العمل الصالح للدنيا ، بعمارتها حتى يسكن فيها الإنسان، وينتفع بها من يجيء بعده ، كما انتفع هو بعمل من كان قبله ، فإن الإنسان إذا علم أنه يطول عمره أحكم ما يعمله ، وحرص على ما يكسبه .

وكذلك نفهم من الحديث الحث على العمل للآخرة ، بالإخلاص في العبادة وحضور النية والقلب في العبادات والطاعات ، والإكثار منها ، فإن من يعلم أنه يموت غداً يكثر من عبادته ، ويخلص في طاعته ، ولعل هذا هو بعض السر في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « صلِّ صلاةَ مودع » .

وجاء في « مفردات القرآن » أنه روي : « احرث في دنياك لآخرتك » ، وهذه الرواية قد يختلف مفهومها بعضَ الاختلاف عن سابقتها، لأن الحرث في الدنيا من أجل الآخرة معناه استخدام الدنيا مطية ووسيلة للآخرة عن طريق شغل الدنيا بالعبادة والطاعة ، اللهم إلا إذا قلنا إن العمل الدنيوي المستقيم يعد من حسنات الإنسان ومسوغات مثوبته حتى ولو حقق للانسان متعة سليمة من متع الحياة الدنيا ، وقد عد الرسول صلوات الله وسلامه عليه من العبادات

طائفة من أعمال الدنيا ، حتى أخبرنا بأن الإنسان ينال ثواباً على معاشرته زوجته ما دامت النية طيبة طاهرة .

هذا وقد روى أبو داود في مراسيله عن علي بن الحسين مرسلاً قوله : « احرثوا فإن الحرث مبارك ، وأكثروا فيه من الجماجم » ، وكأنه يذكّر الإنسان بما في الزراعة وحرث الأرض وتقليب تربتها من أسباب تؤدي إلى فضل الله وزيادة نعمته على عبده، وقد جاء في الحديث ما يؤيد ذلك قوله : « التمسوا الرزق في خبايا الأرض » . والجماجم المذكورة في الحديث المرسل المذكور سابقاً هي جمع « جمجمة » ، ويراد بها هنا الخشبة التي تكون في رأسها سكة الحرث ، وهي إحدى الآلات التي تستخدم في حرث الأرض وقلبها تهيئة للزراعة .

والقرآن الكريم قد دعا في مواطن كثيرة فيه إلى العمل الأخروي والعمل الدنيوي فقال مثلاً : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . » ، وقال : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . » ، ويقول : « كلوا من طيبات ما رزقناكم . » ،ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام « اعملوا فكل ميسر لما خلق له . »

وخير الناس في نظر الإسلام هو ذلك الشخص الذي يجعل دنياه مكينة حصينة ، وفي الوقت نفسه يستعد للقاء ربه على أحسن الأحوال عندما يأتي الأجل ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة . » ، ويقول : « خيركم من طال عمره وحسن عمله ، وشركم من طال عمره وساء عمله » .

ومن هذا نفهم أن الإسلام يحث أبناءه على تعمير الحياة وتثميرها وتقوية

أسبابها بالزراعة والصناعة والتجارة، والسعي والكسب والإنتاج ، والعلم والعمل والاختراع والابتكار ، ونفهم أن الذين يدعون الناس باسم الدين إلى السلبية والعزلة والتبطل مضللون ، لا يحسنون فهم الإسلام ، ولا يجيدون عرض تعاليمه على الناس ، وأقوى رد على سوء فهمهم هو أن تتردد على آذانهم كلمات الحديث:

« احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» .

« ومن وراء هذه الكلمات المضيئة يمكنهم أن يسمعوا أيضاً قول القائل :

إذا هبت رياحك فاغتنمها   فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها   فما تدري السكون متى يكون
إذا ظفرت يداك فلا تقصر   فإن الدهر عادته يخون ..

هذا وقد فهم بعض أهل العلم المراد من الحديث السابق فهماً آخر لا يتبادر إلى الذهن بسهولة ، وقد نقله ابن الأثير في النهاية بهذه العبارة : « قال بعض أهل العلم : المراد من هذا الحديث غير السابق إلى الفهم من ظاهره، لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ندب إلى الزهد في الدنيا ، والتقليل منها ، ومن الانهماك فيها والاستمتاع بلذاتها ، وهو الغالب على أوامره ونواهيه فيما يتعلق بالدنيا ، فكيف يحث على عمارتها والاستكثار منها ؟ . »

وإنما أراد — والله أعلم — أن الإنسان إذا علم أنه يعيش أبدا قل حرصه ، وعلم أن ما يريده لن يفوته تحصيله بترك الحرص عليه والمبادرة إليه ، فإنه يقول : إن فاتني اليوم أدركته غداً ، فإني أعيش أبداً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اعمل عمل من يظن أنه يخلد فلا يحرص في العمل، فيكون حثاً له على الترك والتقليل بطريقة أنيقة من الإشارة والتنبيه ، ويكون أمره لعمل الآخرة

على ظاهره ، فيجمع بالأمرين حالة واحدة وهو الزهد والتقليل ، لكن بفصلين مختلفين .

وقد اختصر الأزهري هذا المعنى فقال :معناه تقديم أمر الآخرة وأعمالها حذار الموت بالفوت على عمل الدنيا ، وتأخير أمر الدنيا كراهية الاشتغال بها عن عمل الآخرة » .

ومهما يكن من أمر فما أجدرنا بأن يردد كل منا الدعاء النبوي الكريم الذي يقول : « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر . » اللهم آمين .

المبادرة إلى الطاعة

رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« بادروا بالأعمال سبعاً : ما ينظرون إلا فقرا مُنْسياً ، أو غنى مُطْغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنّداً ، أو موتاً مُجْهزاً أو الدجال فإنه شرمنتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر . »

(رواه الترمذي والحاكم) (١)

* * *

إن العمر محدود ، والأجل غير معلوم ، والإنسان لا يدري متى يودع حياته ليلقى ربه ، والماضي قد ذهب ولن يعود ، والمستقبل غيب محجّب ، فلم يبق إلا اليوم ، فواجب المؤمن انتهازُ الفرصة فيه قبل أن تصير غصة :

ما مضى فــات ، والمؤمّل غيب   ولك الساعة التي أنــت فيهــا

وهناك آفات وعوائق تصد الإنسان عن مواصلة العمل أو الجد فيه ،

---

(١) ذكر السيوطي في الجامع الصغير ان هذا الحديث روي عن ابي هريرة ، ووضع عليه علامة الصحيح ، ج ١ ص ١٢٥ طبعة الحلبي.

فعليه أن يبادر ويسارع إلى ادخار الطيبات عند ربّه قبل أن يعجز عن ذلك ، ولذلك يقول حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابَك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

ولقد ذكر الحديث الذي معنا مجموعةً من الآفات والعوارض التي تعوق صاحبها عن مواصلة حسن السير في التقرب إلى الله تعالى بالعمل الصالح ، وقد بدأ الحديث بقوله :

« بادروا بالأعمال سبعاً . » ، وبادروا : أي أسرعوا وسابقوا ، والبادرة من الكلام هي ما يسبق من الانسان في الغضب ،وابتدرت عيناه أي سالتا بالدموع ، وبادره مبادرةً عاجله . والمراد : عجّلوا بتقديم الأعمال الصالحة ، لكي تسبقوا بها هذه العوارضَ السبع .

والقرآن الكريم يحثنا على المبادرة بالطيبات ، والمسارعة إلى الصالحات ، والمسابقة إلى القربات ، فيقول في سورة آل عمران : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . » ، ويقول في السورة نفسها عن المؤمنين : « يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين . » ، وفي سورة الأنبياء عن زكريا : « فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين . »، وفي سورة المؤمنون : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » .

وفي سورة الواقعة : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون . » ، وفي سورة الحديد : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

والحديث لم يرد الحصر حين قال : « بادروا بالأعمال سبعاً » . لأن هناك عوائق وعوارض غير هذه السبع ، وإنما أورد الرسول هذه السبع على أنها أمثلة للعوائق أو لأنها أهم من غيرها .

ثم قال الحديث : « ما ينظرون » ، وفي رواية ثانية : « ما ينتظرون » . وفي رواية ثالثة : « هل ينتظرون » ، يقال : نظرته وانتظرته ، إذا ارتقبت حضوره ، وفي حديث أنس : « نظرنا النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل » .

« إلا فقراً منسياً » : الفقر هو الحاجة ، وقيل الفقير هو الذي يجد بعضَ ما يكفيه ، وقيل إنه الذي لا شيء عنده . و « مُنْسياً » من النسيان ، وأصل النسيان الترك ، وأنساه ونسّاه : جعله ينسى ، والفقر يحمل صاحبَه على نسيان كثير من الواجبات والأمور ، لأن الفقر همّ ومشغلة ، وهو يعوق صاحبه عن تحقيق كثير مما يريده ، وفي الأثر :

« كاد الفقر أن يكون كفراً . » ، وفيه أيضاً « لو كان الفقر رجلاً لقتلته . »

« أو غنى مُطْغياً » : الغنى هو عدم الحاجة ، والمُطْغِي هو الذي يجاوز بصاحبه الحدّ والقدر ، كأن المال يحمل صاحبه على مجاوزة الحدود والقيود ، وفي حديث وهب : « إن للعلم طغياناً كطغيان المال » ، أي يحمل صاحبه على الترخص بما اشتبه منه إلى ما لا يحل له ، ويترفع به على مَنْ دونه ، ولا يعطي حقه بالعمل به كما يفعل رب المال . وكثرة المال تحمل — في العادة —

على الطغيان والإسراف وتجاوز الحدود ، ولذلك يقول الحق جل جلاله في سورة العلق : « كلا إن الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .

والغنى المادي — إذا لم تحصّنه التقوى والاستقامة — يحمل صاحبه على الانحراف والشطط في ارتكاب الآثام وإتيان الشهوات والملذات . وقد يكون إطغاء المال آتياً من ناحية أنه يحمل صاحبه على الازدياد من جمع المال وكنزه، فيعرضه بذلك لسوء المآل وأليم العذاب ، بمقتضى قول الله تعالى في سورة التوبة : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

ولكن الغنى لا يذم دائماً ، فقد يجمع الرجل بين الغنى في المال والصلاح في النفس ، فيكون ذلك مزيدَ فضل من الله عليه ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . وهناك نوع من الغنى المعنوي يفوق الغنى المادي وهو غنى الرضى والقناعة ، ولذلك يقول عبدالله بن مسعود : « خير الغنى غنى النفس » .

« أو مرضاً مُفْسداً » : أي متلفاً لصحة الجسم وأعضائه ، وبذلك يصبح الإنسان عاجزاً عن مباشرة واجباته والنهوض بتبعاته ، ومن الحقائق الظاهرة أن المرض يفسد الجسم . ويوهن القوة ، ويمنع الإنسانَ مواصلةَ عمله وجده في سبيل ربه تبارك وتعالى .

« أو هرماً مُفَنِّداً » : الهَرَم الكبر ، وفي الحديث : « إن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا الهرم » . والفَنَد — بفتحتين — هو في الأصل : الكذب ، ويقال أفند إذا تكلم بالكذب . ثم قيل للشيخ إذا هرم : قد أفند، لأنه يتكلم بالمحرف من الكلام ، والمفنّد هو الذي لا فائدة من كلامه لكبر أصابه ، وقد جاء في سورة يوسف على لسان والده يعقوب : « إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » ، أي تسفهوني وتنسبوني إلى الكذب والسفاهة .

والقرآن المجيد يشير إلى أن الشيخوخة تكون موطنـاً لضعف الذاكرة والتفكير ، فيقول في سورة النحل : « والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير » .

« أو موتاً مُجْهِزاً » : الموت هو زوال القوى الحسية ، ومجهزاً : أي سريعاً . يقال : أجهز على الجريح إذا أسرع بقتله . وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه :

« أنه أتى على أبي جهل وهو صريع فأجهز عليه » . والموت رأس العوائق في هذا المجال ، لأن الإنسان إذا مات لا يستطيع أن يعمل لنفسه قليلاً أو كثيراً.

« أو الدجال فإنه شر منتظر » : كلمة الدجال مشتقة من مادة الدَّجْل ، وأصل الدجل هو الخلط ، يقال : دَجّل إذا موّه ولبّس . والدجال هو الرجل الخداع ، والذي يلبس عليك أمرك . وفي الحديث : « يكون في آخر الزمان دجالون » أي كذابون مموهون . وكلمة « الدجال » صيغة مبالغة ، أي الذي يكثر منه الكذب والتلبيس .

وقد جاء أن الدجال يظهر في آخر الزمان ، ويدعي الألوهية ، وينشر الفساد والضلال ، ويغري الناس بالمال والشهوات على الجحود والكفران ، وأخباره طويلة تراجع في مظانها من كتب الحديث .

« أو الساعة والساعة أدهى وأمر » : الساعة : هي يوم القيامة ، وكلمة الساعة لها معنيان : الأول أن تكون جزءاً من أربع وعشرين جزءاً هي مجموع اليوم والليلة ، والثاني أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار أو الليل . يقال : جلست عندك ساعة من النهار ، أي وقتاً قليلاً منه ، ثم استعير ليوم القيامة ، أي الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، لأنها ساعة خفيفة يقوم فيها أمر عظيم ، فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سُمّيت ساعة .

وقد جاء ذكر يوم القيامة بكلمة «الساعة» في آيات منها ما جاء في سورة الحجر :

«وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل».وفي سورة النحل: « ولله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير » . وفي سورة طه « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » ، وفي سورة الأحزاب : « يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » . وفي فاتحة سورة القمر :

« اقتربت الساعــة وانشق القمر » ، وفي سورة النازعــات : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

و « أدهى » : من الداهية ، وهي النازلة الشديدة ، أو الأمر الذي يعظم احتماله ، وأدهى : أي أعظم داهية . « وأمرّ » : أي أشد مرارة ، وقد جاء في سورة القمر : « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » .

هذا ، ولقد جاء في معنى الحديث أحاديث أخرى ، فقد قال عليه الصلاة والسلام :

« بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أحدهم دينَه بعَرَض من الدنيا قليل » . ويقول : « بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، ودابة الأرض ، والدجال ، وخويصة أحدكم ، وأمر العامة » .

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يحث المسلمين على الإسراع في الطاعة ، والتبكير بعمل الخيرات والقربات ، ما دامت القدرة عــلى ذلك موجودة ، لأن عوائق العمل كثيرة ، و لا يدري الإنسان متى تعرض له ، فالاحتياط بالمسارعة شأن العقلاء البصراء، والوقت كالذهب، وهو كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، والحق جل جلاله يقول : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

أصول الدين

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قـــال : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياضِ الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . — فعجبنا له يسأله ويصدقه — قال : فأخبرني عن الإيمان ؟.

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ . قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال :

فأخبرني عن أماراتها . قال : أن تلد الأمةُ ربتها ، وأن ترى الحفاةَ العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

ثم انطلق فلبث مَلِيّاً . ثم قال : يا عمر ، أتدري من السائل ؟ . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : هذا جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » .

(رواه مسلم)

* * *

روى هذا الحديثَ العظيم الإمام مسلم ، وخرجه ابن حبان أيضاً في صحيحه ، وخرجه الإمام أحمد في مسنده ، وجاء في صحيح البخاري حديث قريب منه ، وهو حديث جليل الشأن ، لأنه يشتمل على شرح أمور الدين وأصوله ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في آخره: « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » . ومناسبة الحديث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان جالساً مع بعض الصحابة عند رسول الله صلى الله عليه سلم ، وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم رجل يلبس ثياباً بيضاء شديدة البياض ، وشعره أسود شديد السواد — وهذه هي الصفة التي كان يظهر بها جبريل حينما يأتي إلى النبي في الصورة الآدمية ، ويروى أنه كان يأتي أحياناً على صورة دِحْية الكلبي[1] . وحينما أقبل جبريل بهذه الصورة لم تكن عليه علامات السَفر ، من غبار الطريق ، ولا من التعب ، ولا من غير ذلك ، ولم يكن هناك في المجلس من يعرفه ، ولما وصل هذا الرجل مجلسَ الرسول جلس بين يديه ، وأدنى ركبتيه من ركبتي

(١) الصحابي ، بكسر الدال او فتحها ، اسلم قديما ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله بعد بدر ، وكان من اجمل الناس ، شهد اليرموك ، وسكن «المزة» القرية المعروفة بجوار دمشق ، وبقي الى خلافة معاوية .

النبي ، ووضع كفيه على فخذي الرسول وهذا كله يعطي صورة التلميذ الراغب في العلم والمعرفة .

ثم سأل جبريلُ الرسول قائلاً : ما الإسلام ؟ . فأجابه الرسول بقوله :

« الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » .

والإسلام هو أعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل ، وهي منقسمة إلى عمل بدني كالصلاة والصوم ، وعمل مالي كالزكاة ، وإلى مركّب من العمل البدني والعمل المالي كالحج بالنسبة إلى البعيد عن مكة ، ومما يدل على أن الإسلام يشمل القول والعمل قولُ الرسول عليه الصلاة والسلام : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

وقد ذكر النبي في الإجابة عن الإسلام أنه قواعد الدين المعروفة منه وهي : الشهادتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج . ولا شك أن من يقوم بهذه القواعد ، ويحافظ على حقوقها ، لا يكون منه ضرر لأحد من عباد الله تعالى . وقد روى أحمد والنسائي عن معاوية بن حَيْدة[1] ، قال : قلت يا رسول الله ، بالذي بعثك بالحق ، ما الذي بعثك الله به ؟ . قال : الإسلام . قلت : وما الإسلام ؟ . قال : « أن تسلم قلبك لله تعالى ، وأن توجه وجهك لله ، وأن تصلي الصلاةَ المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة » .

* * *

(١) الصحابي البصري ، غزا خراسان ومات بها .

ثم سأل الرجل النبيَّ عن الإيمان ، فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » . .

والإيمان هو الاعتقاد الباطن ، وقالوا إنه يشمل القول والعمل والنية ، ولذلك كانت الأعمال داخلةً في الإيمان . وفي الصحيحين : « الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون – شعبة . فأفضلها قول: لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان » .ولقد كتب خامس الراشدين الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى أهل الأمصار يقول : « إن الإيمان فرائض وشرائع ، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان » .

فمن الواجب على الإنسان ليكون مؤمناً أن يعتقد اعتقاداً باطنياً جازماً بأن الله تعالى هو الخالق ، وهو المستحق وحده للعبادة ، وكذلك يعتقد في ملائكة الله وكتبه المنزلة ورسله ، وبالبعث بعد الموت ، وبالدار الآخرة ، وبكل ما يقدره تعالى من خير أو شر في الحياة ، والإيمان بالقدر يشمل الإيمان بأن الله تعالى قد سبق في علمه ما يعمله العباد قبل خلقهم وإيجادهم ، ويعلم الشقي منهم والسعيد .

وينبغي أن نلاحظ أن كلمتي الإسلام والإيمان يتداخل معناهما أحياناً ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإذا ذكرا معاً ، أريد بكل واحد منهما جانباً من المعنى الذي يشتركان في الدلالة عليه ، والتحقيق في الفرق بينهما أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته ، والإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له ، وذلك يكون بالعمل . وفي مسند الإمام أحمد عن أنس قال : « الإسلام علانية ، والإيمان في القلب » . وذلك لأن الأعمال تظهر علانية ، والتصديق في القلب لا يظهر . وإذا تحقق الإيمان في القلب

ورسخ في النفس ، اندفعت الجوارح مستجيبة له بالأعمال ، وهذا هو الإسلام .

* * *

ثم سأل جبريل النبي عن الإحسان ، فأجابه بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . والإحسان هو أن يعبد الإنسان ربّه على وجه الحضور والمراقبة ، كأنه يراه بقلبه ، وينظر إليه في أثناء عبادته ، وأنه بين يديه كأنه يراه ، وهذا يؤدي إلى كمال الخشية والهيبة ، وإتيان العبادة على وجهها ، ولذلك قال أبو ذر : « أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم ، أن أخشى الله كأني أراه ، فإن لم أكن أراه فإنه يراني » . وروى الطبراني أن رجلاً قال : « يا رسول الله ، حدثني بحديث واجعله موجزاً . » فقال : « صلّ صلاةَ دموع ، فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك » .

وفي حديث حارثة أن الرسول قال له : كيف أصبحت يا حارثة ؟ . قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال النبي : انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة . قال : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها . قال النبي : « أبصرتَ فالزم ، عبدٌ نوّر الله الإيمانَ في قلبه » .

وقد ذكر النبي للاحسان درجتين : الأولى هي أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه ، وهناك درجة تالية ، فإذا لم يستطع العبدُ الأولى فعليه بالثانية . وهي : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . أي فإن شقّ على العبد الوصولُ إلى درجة الصفاء التي تجعله كأنه يرى ربه وهو يتعبد ويعمل ، فليستعن على ذلك بإيمانه وتذكره أن الله يراه ويطلع عليه ، ويدرك سره وعلانيته ، وباطنه وظاهره ، فإذا تحققت عنده هذه المنزلة ، أصبحت المنزلة الأولى قريبةً منه .

وقد قال بعض العارفين : « من عمل لله على المشاهدة فهو عارف ، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص » . والناس يتفاوتون في هذا الميدان بحسب إخلاصهم . وقد أشار القرآن المجيد في أكثر من موطن إلى أن الله تعالى مع الإنسان يراه ويطلع عليه ، فقال : « وهو معكم أينما كنتم » . وقال :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريب » . وقال : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » . وقال : « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه » . وقال : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

وفي الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير من ملإه ، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » . وليس المراد بذلك تشبيها أو حلولاً أو اتحاداً ولكنه تصوير لقرب الله تعالى ، واقباله على عبده المستجيب له ..

وروي أنه قيل لمالك بن مغفل وهو جالس في بيته وحده : ألا تستوحش ؟. قال : أو يستوحش مع الله أحد ؟ ... وكان حبيب أبو محمد يخلو في بيته ويقول : من لم تقر عينه بك فلا قرت عينه ، ومن لم يأنس بك فلا أنس . وقال غزوان : إني أصبت راحة قلبي في مجالسة من إليه حاجتي .... وقال مسلم بن عابد : ما يجد المطيعون لله لذة في الدنيا أحلى من الخلوة بمناجاة سيدهم ، ولا أحسب لهم في الآخرة من عظيم الثواب أكبر في صدورهم وألذ في قلوبهم من النظر إليه .

* * *

ثم قال جبريل : أخبرني عن الساعة ؟ . فقال النبي : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » . يعني أن الخلق كلهم متساوون في عدم العلم بالساعة ، لأن الله تعالى استأثر بعلمها .

وهنا عاد يسأل عن أماراتها وعلاماتها ، فذكر الرسول علامتين ، الأولى :

« أن تلد الأمة ربتها أي سيدتها ومالكتها ، وقيل إن هذه إشارة إلى كثرة الفتوح والرقيق ، حتى تكثر السراري ويكثر أولادهن ، فتكون الأمة مملوكة لسيدها ، وأولادها منه بمنزلة والدهم، فكأنهم أسياد لها . وقيل إن المعنى أن تجارة الرقيق تكثر في آخر الزمان وعند انحطاط الانسان ، حتى يشتري الرجل البنت ثم يعتقها ، وبعد عتقها تملك المال وتشتري أمها ، وتستخدمها وهي جاهلة أنها أمها ، وقيل إن المعنى هو أن الإماء يلدن السلاطين . ومهما يكن من قول فإن المعنى العام يفيد انقلاب الأوضاع وتبدل الأحوال .

والعلامة الثانية عبر عنها بقوله : « أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » والحفاة هم الذين يمشون بلا نعال في أقدامهم ، والعالة الفقراء ، ومنه قوله تعالى : « ووجدك عائلاً فأغنى ». ورعاء الشاء هم رعاة الغنم ، والمراد أن أسافل الناس يصيرون رؤساء لهم . وتكثر أموالهم حتى يتباهوا بطول البنيان وزخرفته . وهذا أيضاً من انقلاب الأوضاع . نسأل الله العفو والعافية .

أيام مباركة

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام — يعني أيام العشر — قالوا : يا رسول الله ، ولا الجهاد في سبيل الله ؟ . قال : ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله ، فلم يرجع من ذلك بشيء . »

(رواه البخـاري) .

كلما دنا شهر ذو الحجة من كل عام رأينا في المجتمع الإسلامي حركة ناشطة ، تصحبها البهجة ، وتحف بها المسرة ، فهناك ألوف مؤلفة من المسلمين قد أخذوا عدتهم لأداء فريضة الحج ، وهم في فرحة وغبطة ، وهناك من حولهم ملايين وملايين يفرحون لفرحهم ، ويتمنون أن يكتب الله تعالى لهم ما كتب لإخوانهم في الله من توفيق للخروج إلى أداء هذا الركن العظيم — وهو ركن الحج الذي جاء بشأنه قول الله جل جلاله في سورة آل عمران : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » ٩٦ و ٩٧ .

ومن فضل الله تبارك وتعالى على عباده أنه عيّن لهم مواسم للطاعة ينتظرونها بالجد في الخير ، والعزيمة في الرشد ، والنشاط في عمل البر . وتقديم القربات ، مع اجتهاد في الطاعات يقابله من الله إكرام مضاعف في الثواب والحسنات . وفي تعيين هذه المواسم حث على انتهازها . ودعوة إلى مضاعفة الجهد فيها ، والحديث الشريف يقول : « إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » . ولعل هذا التبيين الذي يصاحبه ذلك الإقبال يكون سبباً لتنقية النفس ، وتطهير القلب ، والتسامي بالروح ، فيعتدل الإنسان على الطريق ويستقيم .

ولعل الله الرءوف بعباده قد أراد — وهو أعلم بمراده — من تحديد هذه المواسم أن يجبر في عباده ضعفاً ، أو يتم نقصاً ، فإذا استشعر المؤمن من ربه ما يعامله به من كرم وحلم ورحمة ، سارع إليه ، وأقبل عليه ، واستقام في طريقه.

ولو رجعنا إلى أيام العام لوجدنا أن الله تعالى قد وزع مواسم الطاعات عليها ، فهناك يوم الجمعة من كل أسبوع ، وهو العيد الأسبوعي المتكرر ، وهناك ليلة النصف من شهر شعبان ، وهناك شهر رمضان ، وليلة الفطر ، وليلة الأضحى ، ويوم عرفة ، وأيام منى ... إلخ .

* * *

والحديث الذي معنا يخبرنا بأنه لا توجد أيام تشبه « الأيام العشرة » في أن الطاعة والعمل الصالح فيها أفضل من الطاعة والعمل الصالح في غيرها ، وهذه الأيام العشرة هي الثلث الأول من شهر ذي الحجة ، فقد جعل الطاعة فيها أحب الأعمال إلى الله ، فهي تزيد على الأعمال الأخرى في سائر الأيام ، حتى إن هذه الأيام العشرة أفضل من يوم الجمعة الذي ورد فيه أنه خير يوم طلعت عليه الشمس ، فلو جاء يوم الجمعة خلال هذه الأيام العشرة لكان ذلك هو الحظ الأوفى لذلك اليوم وأهليه ، ولقد قيل إن المراد بالأيام المعلومات في قوله تعالى في سورة الحج : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام

معلومات » هو الأيام العشرة في أول ذي الحجة وأيام التشريق وهي الأيام الثلاثة التالية للعشرة الأولى .

كما روي أن المراد بقوله تعالى في أول سورة الفجر : « والفجر ، وليال عشر » هو الليالي العشر للايام العشرة الأولى من ذي الحجة ، ولكن قد قيل أيضاً إنها العشر الأخيرة من رمضان،وقيل إنها العشر الأولى من شهرالمحرم، ويذهب الشيخ محمد عبده إلى أن المراد من « ليال عشر » عشر ليال يتشابه حالها مع حال الفجر ، وهي ما يكون ضوء القمر فيها مطارداً لظلام الليل، إلى أن تغلبه الظلمة ، فكأنه وضع التناسب على شيء من التقابل ، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ، ثم يسطع النهار ، ولا يزال الضوء إلى الليل ، وضوء الأهلة في الليالي العشر من أول كل شهر يشق الظلام ، ثم لا يزال الظلام يغالبه إلى أن يغلبه ، فيسدل على الكون حجبه . ولكن الرأي الأول أكثر شهرة بين العلماء .

ولعل الحكمة في تفضيل الأيام العشرة الأولى من ذي الحجة ترجع إلى أن هذه الأيام بلياليها تقع في أحد الأشهر الحرام ، وفيها تكـــون أعمال الحج ، وهو إحدى قواعد الإسلام ، والحجاج في العادة أقرب ما يكونون إخلاصاً لله في العمل،والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يحاولون أن يبذلوا جهدهم — في أثناء تلك الأيام — ليستشعروا روح المصاحبة للحجاج خلال هذه الأيام ، في الطاعة والتقرب إلى الله عز وجل .

وعن ابن عمر أنه قال : « ليس يوم عند الله أعظم من يوم الجمعة ، ليس العشر ، فإن العمل فيها يعدل عمل سنة » . والحديث الذي معنا يفضل هذه الأيام — بعملها وسعيها وطاعاتها— على الجهاد في سبيل الله إذا لم يتحتم الجهاد فيها ، اللهم إلا إذا خرج الإنسان مجاهداً في سبيل ربه ، وهو يرجو الشهادة صادقاً ، ويقدم أمام ذلك ماله ونفسه ، وليس في هذا استخفاف بمكانـــة

الجهاد ، فالجهاد فريضة مكتوبة باقية ، وهو فرض عين على كل مسلم عند الزحف العام ، وفي هذه الحالة تؤخر كل الطاعات والقربات حتى ينتهي الجهاد في حالة الزحف العام ،فلا يذهبن تفكير إنسان إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يهوّن من شأن الجهاد اللازم المحتوم ، وإنما أراد أن يلفتنا إلى انتهاز الفرصة في هذه الأيام ، لنضاعف فيها الجهود ، ونجدد العهود ، ونصدق الوعود ، فنستقيم بذلك التطهير والتجديد والتأكيد على صراط الله العزيز الحميد .

وبعض الأئمة يرى أن الليالي العشر الأخيرة من رمضان أفضل من الليالي العشر الأولى في ذي الحجة ، وإن كانت الأيام العشرة الأولى من ذي الحجة أفضل من الأيام العشرة الأخيرة من رمضان ، وذلك لأن الليالي الأخيرة من رمضان ، يكون فيها الاعتكاف ، والتعبد ، والتهجد ، والتلاوة ، والتطلع إلى ليلة القدر ، وأما الأيام العشرة من ذي الحجة فإنها تكون عامرةً بأداء أعمال الحج وبأداء المناسك في المشاعر الحرام .

ولقد جاء في حديث رواه أبو داود بسند صالح : « أعظم الأيام عند الله يوم النحر ويوم القَرّ » ، ويوم النحر هو اليوم العاشر من ذي الحجة ، لأن نحر الذبائح يكون فيه ، ويوم القر — بفتح القاف وتشديد الراء — هو اليوم الحادي عشر من ذي الحجة، وسمي بذلك لاستقرار الناس فيه بمنى . ويوم النحر قد وصفه القرآن بأنه « يوم الحج الأكبر » .

* * *

وهناك رواية أخرى للحديث الذي معنا، رواها أبو يعلى البزار وابن خزيمة وابن حبان ، عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذي الحجة ، فقال رجل : هن

أفضل من عدتهن جهاداً في سبيل الله ؟ . قال : هن أفضل من عدتهن جهاداً في سبيل الله ، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ، فيباهي بأهل الأرض أهلَ السماء فيقول : انظروا إلى عبادي، جاءوني شُعْثاً غُبْراً ضاحين . جاءوا من كل فج عميق ، يرجون رحمتي ولم يروا عذابي . فلم ير يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة » .

وهناك رواية تقول: « ما من أيام العمل فيهن أفضل واحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذي الحجة . إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة ، وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر . قيل : ولا الجهاد في سبيل الله تعالى ؟ . قال : ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل الا من عُقر جواده وأهريق دمه » . وهناك رواية تقول: « ما العمل في أيام أفضل من العمل في هذه العشر ، قالوا : ولا ا لجهاد ؟ . قال : ولا الجهاد ، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله ، فلم يرجع بشيء » .

* * *

ولقد عد الإمام الغزالي الأيام والليالي الفاضلة المخصوصة بمزيد من الفضل، التي يتأكد فيها استحباب الإحياء والعبادة ، والتي لا ينبغي أن يغفل العابد عنها ، لأنها مواسم الخيرات ، وفرص الطاعات ؛ ومن هذه الليالي ست ليالٍ في رمضان ، هي ليلة السابع عشر ، إذ في صباحها كان يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في غزوة بدر ، وخمس ليال هي أوتار العشر الأخيرة من رمضان ، أي ليلة إحدى وعشرين ، وليلة ثلاث وعشرين ، وليلة خمس وعشرين ، وليلة سبع وعشرين .

ومن الليالي الفاضلة ليلة أول المحرم ، وليلة عاشوراء ، وهو اليوم العاشر من المحرم ، ولفظ « عاشوراء » اسم إسلامي ، أي موضوع في العصر الإسلامي فليس في ألفاظ العرب القدماء ما هو على وزن « فاعولاء » غير هذه الكلمة ،

وقد أُلحق به يوم تاسوعاء . وهو اليوم التاسع من المحرم . وقيل إن عاشوراء هو التاسع .

ومن الليالي الفاضلة أول ليلة من رجب . وليلة النصف منه . وليلة سبع وعشرين منه . وليلة النصف من شعبان . وليلة عرفة . وليلتا العيدين .

وأما الأيام الفاضلة فهي تسعة عشر يوماً . وهي يوم عرفـة ، ويوم عاشوراء . ويوم سبعة وعشرين من رجب . ويوم سبعة عشر من رمضان ، ويوم النصف من شعبان . ويوم الجمعة ، ويوما العيدين ، والأيام العشرة الأولى من ذى الحجة ، وأيام التشريق وهي أيام عيد الأضحى الثلاثة .

ومن الأيام الفاضلة في الأسبوع يوم الاثنين ، ويوم الخميس .

نسأله جل جلاله أن يوفقنا لطاعته ومرضاته ، حتّى نفوز بنعمته ورضوانه .

الملة البيضاء

جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم . فغضب وقال : أَمُتَهَوِّكُون فيها يا ابن الخطاب ؟ . والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاءَ نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » .

(رواه أحمد) .

* * *

هذا الحديث فيه توجيه إلى الاكتفاء بدين الله الخاتم ، وعدم الاستمداد من غيره فيما يتعلق بالعقائد والعبادات ، لأن القرآن المجيد يقول : « إن الدين عند الله الإسلام » . ويقول : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، ويقول : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

وفي الحديث بعض المفردات نتعرف إلى معانيها :

« بكتاب » : المراد بالكتاب هنا الصحيفة ، بدليل التصريح بها في بعض روايات الحديث .

« أصابه » : وجده فتناوله وأخذه .

« أتتهوكون فيها » : التهوك كالتهور . وهو الوقوع في الأمر بغير روية أو تبصر . والمتهوك هو الذي يقع في كل أمر . وقيل إن التهوك هو التحير . وفي رواية أن النبي قال لعمر : « أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئت بها بيضاء نقية » . وفي رواية ثالثة أن عمر أتاه بصحيفة أخذها من بعض أهل الكتاب . فغضب وقال : « أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ..... » .

« نقية » : طاهرة صافية ، والتنقية إفراد الجيّد من الرديء ، ويقال : فلان ينقي الطعام ، أي يخرجه من قشره وتبنه .

« وسعة » الوسع — مثلثة الواو — : الطاقة .

ولقد جاء في « مصابيح السنة » للبغوي رواية لهذا الحديث تقول : عن جابر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حين أتاه عمر رضي الله عنه ، فقال : إنا نسمع أحاديثَ من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها؟.

فقال النبي : « أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية . ولو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي » .

والنبي هنا يلوم عمر ويؤاخذه ، لأنه أخذ هذه الصحيفة من صحف اليهود ، ونظر فيها . ويصف الرسول هذا بأنه حيرة وتردد . وليس من شأن المؤمن ذلك ، بل هو يؤمن ويوقن ويطمئن إلى حديث ربه وحديث رسوله ، لأن القرآن الكريم يقول : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وما حاجة المسلمين إلى تطلب التفقه في الدين من غير كتاب الله ، وهو الذي يقول فيه رب العزة : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، وهو الذي يقول فيه نبي الهدى : « إن أصدق الحديث كتاب الله تعالى » . ومن وراء القرآن الكريم تأتي السنة المطهرة التي يقول فيها سيد الخلق صلوات

الله وسلامه عليه : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضّوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور » .

وجاء في الحديث الشريف : « اتبعوا القرآن ولا يتبعنكم » ، أي اجعلوه أمامكم . ثم اتلوه . ولا تدعوا تلاوته والعمل به فتكونوا قد جعلتموه وراءكم .

* * *

والحديث الذي معنا يصرح بأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد جاء بالشريعة السمحة العادلة ، والملة المشرقة الواضحة الطاهرة ، والدعوة التامة الكاملة ، التي لا نقص فيها ولا عيب بها ، ومن هنا فلا مجال لكي يسأل أهلُ الإيمان أهلَ الكتاب عما يتعلق بالدين أو العقيدة ، ولا مجال لكي يأخذ أبناء الإسلام أشياء تتعلق بالدين من هؤلاء .

وليس معنى هذا أن يناصب المسلمون أهلَ الكتاب العداء ، ولا أن يكذبوهم فيما يروون أو يقولون ، بل يطالبهم ربهم بعدم سؤالهم أهل الكتاب عن شيء من الدين ، وعدم تكذيبهم أو تصديقهم ؛ ولهذا روى الإمام البخاري أن أهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » .

ويعلق على ذلك عبدالله بن عباس رضوان الله عليهما فيقول : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذي أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أحدث الأخبار عن الله ، تقرأونه لم يُشَب (لا غش فيه ولا خلط) ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله ، وغيروا

بأيديهم الكتاب ، فقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسأ لكم عن الذي أنزل عليكم » .

* * *

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » . وموسى بن عمران هو نبي الله ورسوله وكليمه ، وقد أثنى عليه القرآن المجيد في أكثر من موضع ، ومع ذلك لو بقي حياً حتى جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام،لما تأخر موسى أبداً عن الدخول في شريعة سيد الأنام ، لأن شريعة موسى موقوتة بزمانها وقومها ، وشريعة محمد باقية ما دامت السموات والأرض : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ومما يدل على متابعة موسى رسولنا محمداً ، لو أن الوقت تأخر بموسى حتى أدرك محمداً ، أنه يروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى في التوراة ما يعطر مدحَ محمد ، ويجعله مثلاً أعلى ، قال : « يا أيها النبي ، إني باعث نبياً أمياً ، بشيراً ونذيراً ، وحرزا للأميين ، وهو عبدي ورسولي ، سميته (المتوكل) ليس بفظ ولا غليظ ، ولاصخّاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يغفر ويعفو .

أسدده بكل جميل ، وأهب له كل خُلق كريم ، واجعل الصدق والوفاء طبيعتَه ، والعفو والمعروف خلقَه ، والعدل والحق سيرته ، والهدى والإسلام شريعته .

اسمه أحمد ، أؤلف به قلوباً مختلفة ، وأمماً متفرقة ، وأجعل أمته خير

أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، يصلون حيث أدركتهم الصلاة : قياماً وقعوداً ، وركعاً وسجوداً .

ولن أقبضه حتى أقيم به الملة السمحة ، ويقولون معه : لا إله إلا الله . مولده بمكة ، وهجرته بطيبة ، وملكه بالشام ، يفتح أعيناً عميا ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلفاً ، أمته الحامدون ، يحمدون الله على كل حال ، يومئون أطرافهم ، ويأتزرون إلى أضيافهم . قرآنهم في صدورهم . وقربانهم دماؤهم ، رهبان بالليل . ليوث بالنهار ، يقاتلون فيقتلون في سبيل الله ، صفهم في القتال كصفهم في الصلاة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

وروى يحيى بن كثير أن موسى عليه السلام حين علم من التوراة بالنبي الذي ليس معه ، وأطلعه الله تعالى على صفات أمته وأحوالهم .

قال : يا رب ، اجعلني نبي هذه الأمة التي وصفتها .

فقال الله تعالى : نبيهم منهم .

قال موسى : اجعلني منهم .

فقال الحق عز وجل : لن تدركهم .

* * *

هذا ونفهم من مرامي الحديث الأمورَ التاليةَ :

١ ــ وجوب الاستمساك بالقرآن دون سواه من الكتب ، فهو المنبع الأساسي الذي يعتمد عليه الجميع : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ، « فاستمسك بالذي أوحي إليك » .

٢ ــ الاهتداء بسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لأنها المبينة للقرآن ،

الشارحة لمقاصده ، والنبي يقول : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي » .

٣ – الإيمان الثابت بأن ما جاء به الإسلام من مبادىء وأحكام هو الحق والعدل والرشاد .

٤ – عدم الاستماع إلى أهل الكتاب فيما يتعلق بالدين ، مع عدم تكذيبهم وعدم تصديقهم ، فقد يتحدثون بشيء من قبيل الحق فيكذبه المسلم فيقع في الباطل ، وقد يتحدثون عن باطل فيصدقهم المسلم فيقع في الضلال .

٥ – الإشارة إلى أن الإسلام الحنيف هو الدين الخاتم الجامع الباقي ، الذي لو بُعث الرسل لآمنوا به واتبعوا نبيه عليه الصلاة والسلام .

الأمانة

عن حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين ، رأيتُ أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر : حدثنا أن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة .

وحدثنا عن رفعها قال : ينام الرجل النومة ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوَكْت ، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المَجْل ، كجمر دحرجته على رجلك فنَفِط ، فتراه مُنْتَبِراً ، وليس فيه شيء ، فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة . فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل : ما أعقله ، وما أظرفه، وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً ردَّه الإسلام ، وإن كان نصرانياً رده على ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً .

(رواه البخاري ومسلم)

* * *

راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل أبو عبد الله حذيفة بن اليمان العبسي حليف الأنصار ، من السابقين إلى الإسلام ؛ وقد روى عن جماعة

من الصحابة ، وروى عنه خلائق من التابعين ، وكان صاحبَ السر لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين ، يعلمهم منه ، واشترك في غزوات ومعارك ، وحضر الحرب بنهاوند وفتح الجزيرة ، ولقد تمنى عمر الفاروق أن يكون في الأمة رجال مثل حذيفة وأبي عبيدة ومعاذ بن جبل ، وكان كثير السؤال عن أحاديث الفتن ليتجنبها ، ولما سأله بعض الناس : أي الفتن أشد ؟.. قال : إن يعرض عليك الخير والشر ولا تدري أيهما تترك .

توفي بالمدائن سنة ست وثلاثين للهجرة ، وله مناقب كثيرة .

وهذا الحديث يدور حول « الأمانة »[1] ويصور ما يحقق وجودُها وذيوعها بين الناس من خير واطمئنان ، وما يؤدي ضياعها إلى فساد وشر ، وحذيفة يخبر فيه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، تحدث بحديثين ، أولهما عن شيوع الأمانة بين المؤمنين ، وتمكنها من نفوسهم ، والحديث الآخر عن طروء الفساد على المجتمع بعد ذلك . ولذلك قال : « رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر » . أي علمت مضمونَ أحدهما ومفهومه، وأنتظر وقوع الأخر ، وهو ضياع الأمانة من بين أكثر الناس ، حتى يصير الأمين شبهَ معدوم بالنسبة إلى ما كان من أمانة شائعة على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

و « الأمانة » هي ضد الخيانة ، وهي صفة غرزية تحمل صاحبها على تأدية الحقوق لأصحابها ، سواء أكانت مادية أم معنوية ، لله أم للناس . وورد في معنى الأمانة أكثر من قول ، فقيل أن الأمانة هي ما يودعه الانسان عند غيره ليحفظه ويصونه ، واستشهدوا لذلك بقول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » . النساء آية ٥٨ .

---

(١) انظر باب « الامانة » في الجزء الثاني من كتابي « اخلاق القرآن » ، ص ١٥ وما بعدها ..

وهذا القول ينظر إلى الأمانة المادية ، وقيل إن الأمانة هي الفرائض والتكاليف والواجبات التي أوجبها الله تعالى على عباده ، وكذلك الحقوق المتعلقة بالعباد مما طالب الله بصيانته ورعايته، واستشهدوا لذلك بقول الله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » الأحزاب آية ٧٢ .

وهذا القول يشمل الأمانةَ المادية ، والأمانة المعنوية ، والأمانة الدينية .

وقد ورد في الحديث : « الأمانة ثلاث ـ الصلاة ، والصيام ، والغسل من الجنابة » ولعل هذا أريد منه ضربُ أمثلة للأمانة ، لا حصر أنواعها .

وقال ابن عباس : « الأمانة الفرائض » وهذا القول يشبه سابقه .

ومن قبيل هذا ما قيل إن الأمانة هي « الولاية » بدليل ما رواه أبو ذر وهو : « قلت : يا رسول الله ، ألا تستعملني ؟ .. فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ،وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذ بحقها ، وأدى الذي عليه فيها » .

وقيل : الأمانة هي شهادة أن لا الله الا الله . ويقرب من هذا قول من قال : الأمانة هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وهناك من عمم فقال : الأمانة هي كل ما يؤتمن عليه الإنسان من أمر ونهي ، ودين ودنيا ، وحقوق وأشياء .

ويمكن أن نقول إن الأمانة هي صيانة الإنسان كل ما تنبغي صيانته من حقوق أو فروض أو واجبات أو حدود أو أشياء مادية أو معنوية ، سواء كانت لله أم للناس ..

* * *

ولقد قال حذيفة راوياً عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « حدثنا أن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال » . والجذر — بفتح فسكون — هو الأصل فجَذْر كل شيء أصله ، ويقال : نزلت المحبة في جذر قلبه ، أي في أصله — والمعنى أن الله تبارك وتعالى خلق صفة الأمانة في أصل قلوب الرجال — ويلحق بهم النساء — فهي كالغريزة في الفطرة النقية الصافية ، والناس بعد ذلك يحرصون إذا استقاموا — على تجلية هذه الصفة وتنميتها وتقويتها ، وأما إذا أهملوها فإنها تضمر وتتقلص ، ثم تفسد فيبطل الانتفاع بها .

ثم جاء في الحديث قوله : « ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة » أي أن هؤلاء المتصفين بصفة الأمانة الحسية والمعنوية ، أخذوا يتعلمون من القرآن الكريم ما يقوي صفة الأمانة فيهم ، وما يدفعهم إلى التزام سبيلها ، ثم تعلموا أيضاً من هدى الرسول وسنته — سواء أكانت قولاً أم عملاً أم تقديراً — ما يعزز تلك الصفة ويؤكدها .

وقد أعاد النص الكريم حرف « ثم » الذي يدل على العطف مع التراخي ، فقال :

« ثم علموا من السنة » ليشير إلى أنهم كانوا يحرصون عل أن يتعلموا من القرآن المجيد أولاً ، ثم من السنة المطهرة بعد ذلك .

ثم قال : « وحدثنا عن رفعها ، قال : ينام الرجل النومة ، فتُقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوَكْت » .

وقوله هنا : « وحدثنا » فيه إشارة إلى الحديث الثاني ، الخاص برفع الأمانة ، وهو الحديث الذي كان ينتظره حذيفة ، والمراد بالرفع هنا أن يقل وجود هذه الصفة عند الناس ، حتى كأنها مفقودة .

والمراد بالنوم واحد من معنيين : أولهما النوم الحقيقي ، والآخر أن يكون النوم كناية عن غفلة الإنسان عن أوامر الله عز وجل ؛ وعلى المعنى الأول يكون التعبير كناية عن أن الإنسان يتغير بين يوم وليلة ، فينام وعنده صفة الأمانة ، ويستيقظ من النوم وقد عرض له من الفساد ما يذهب بالأمانة من قلبه . وعلى المعنى الآخر يكون المراد أن الإنسان يغفل مرة بعد مرة عن هدى الله وأمره ، فتضيع الأمانة من قلبه شيئا شيئاً ، وقد جاء في الحديث : « بادروا بالأعمال ، فستكون فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مسلماً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض الدنيا » . وهذا الحديث يمكن حمله على المعنيين السابقين .

والقبض هو الأخذ ، « فتقبض » أي تنزع وتؤخذ ، وليس المراد بقبضها هنا أخذها كلها ، بل أخذ جانب كبير منها ، لأنه سيقول بعد ذلك : « ثم ينام النومة فتقبض » فقد تكرر القبض ،ولو كان القبض الأول يعني أخذ الكل لما بقي شيء من الأمانة ليقبض في المرة الثانية .

« فيظل أثرها مثل أثر الوكْت » : أي يبقى مكان الجزء المنزوع من الأمانة مثل « الوكت » . والوكت ـ بفتح فسكون ـ هو السواد الخفيف في اللون ، والوكتة النقطة ، ويقال : « في قلبي وكتة مما قيل » أي أثر يسير ، وفي عينه وكتة من حمرة أو بياض . وفي الحديث : « لا يحلف أحد ، ولو على مثل جناح بعوضة ، إلا كانت وكتة في قلبه » . والمراد بالوكتة الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه .

والإضافة في قوله : « أثر الوكت » إضافة بيانية ، والتقدير : أثر هو الوكت ، ولذلك جاء في رواية أخرى : « مثل الوكت » .

« ثم ينام النومة فتقبض،فيبقى أثرها مثل المَجْل » . وحرف «ثم» هنا يدل على التراخي والترتيب ، في درجات الأجزاء الممحوة من الأمانة ، ويراد

بذلك أنها تؤخذ أو تُرفع جزءاً بعد جزء . والمجل — بفتح فسكون — هو غلظ يصيب جلد اليد من عمل بآلة صلبة خشنة ، يؤدي إلى أن يثخن الجلد ويتعجر ، ويظهر فيه ما يشبه البثر ، فيرتفع جزء من الجلد ، ويتجمع تحته ماء قليل . ويقال : خرجت على يده مجلة . ومجلت يده مَجَلاً — بفتح الميم والجيم — ويقال : « يد مجلة خير من وجنة خجلة » . كما يقال : تمجل رأسه قيحاً ودماً ، أي امتلأ .

ثم قال الحديث : « كجمر دحرجته على رجلك فنَفِط ، فتراه منتبراً وليس فيه شيء » . الجمر : قطع النار المتقدة . ودحرجته : دفعته فتتابع في حدور أي انحطاط من علو إلى سفل . و « نفط » — بوزن علم — أي انتفخ . والضمير يعود إلى « الرِّجْل » ، ولم يقل « فنفطت » مع أن « الرجل » مؤنثة ، لأنه أراد منها العضو ، وهو مذكر . ونفِطت يده من العمل — بكسر الفاء — وتنفطت ، وأنفطها العمل . و « منتبراً » أي مرتفعاً ، يقال : نبرت الشيء أنبره نبراً رفعته ، ومن ذلك صيغ اسم « المنبر » لأنه مرفوع .

والمراد : تورم وامتلأ ماء ، وقد ذكر الحديث كلمة « منتبراً » بعد قوله: « فنفط » للدلالة على الاستمرار في الارتفاع ، ومع ارتفاعه المستمر لا يوجد فيه شيء ينفع . وبعد أن شبه الحديث الأثرَ الأول بالوكت ، والأثرَ الآخر بالمجل ، جاء بهذا التشبيه التمثيلي ، فشبه هيئة ما يتكرر عروضه للقلب من غفلات عن الهدى ، فتنزع منه الأمانة جزءاً فجزءاً على حين أن مظهره قد يغر ويخدع ، بهيئة الجمر الذي يمر على جلد الرِّجْل فيفسده ، ويظهر فيه هذا الورم الذي يبدو مرتفعاً ، وليس فيه ما ينفع .

وهذه الصورة التشبيهية التمثيلية تذكّر بالحديث الذي يقول : إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب واستغفر صقل قلبه ، وإن

عاد زادت حتّى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذكر الله في القرآن : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . أي طبع وختم على قلوبهم .

والران أو الرين هو الطبع والتغطية والران والرين سواء ، كالذام والذيم ، والعاب والعيب ، ويقال : أعوذ بالله من الرين والران ، وهو ما غطى على القلب وركبه من القسوة ، للذنب بعد الذنب . وقيل : الرين صدأ يعلو الشيء الجليل ، فقول القرآن : « ران على قلوبهم » ، أي صار ذلك كصدإ على جلال قلوبهم ، فعميت عليهم معرفة الخير من الشر ، وقيل الرين الدنس ، ويقال : ران ذنبه على قلبه رينا وريونا ، أي غلب ؛ وكل ما غلبك فقد رانك. وران بك ، وران عليك ، ورانت النفس خبثت وغثت . وقيل : الرين هو الغطاء على الشيء ، وقد رين عليه .

ويمكن مراجعة تلك المعاني وغيرها في أساس البلاغة ، ومفردات القرآن ، والنهاية في غريب الحديث ، ومعجم مقاييس اللغة ، والقاموس المحيط .

وصورة البثر المنتفخ بلا فائدة من وراء ارتفاعه تذكّر بقول المتنبي وهو يعرّض بأناس يغره مظهرهم ويسوء مخبرهم :

أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ثم قال بعد ذلك : « فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة » . « يتبايعون » : يبيع بعضهم لبعض ، والبيع يطلق على الشراء أيضاً . « ويؤدي الأمانة » أي يؤدي حقوقها أو يلتزم بتبعاتها ،أي يقل الأمناء بين الناس،فإذا وُجد واحد منها كان وجوده محل استغراب ، فيقال : « إن في بني فلان رجلاً أميناً » أي إن في القبيلة الفلانية ، أو في الحي الفلاني ، رجلاً عنده أمانة ، وهذا كناية عن ندرة الموصوفين بالأمانة في ذلك الوقت ، حتى إن وجود رجل

أمين بين القوم يكون مدعاة للتعجب ، فالناس يتحدثون عن وجوده ، وقد كان أمثاله بالأمس كثيرين .

« ويقال للرجل : ما أعقله ، وما أظرفه ، وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » . وهذه إشارة إلى سوء الحال ، واضطراب الموازين التي يوزن بها الناس ، حتى صارت الأمانة ليست هي المقياس الذي يقاس به الإنسان ، بل أخذ الناس يتوسعون في المديح والثناء ، فيوصف الشخص بقوة العقل ورقة الظرف وشدة العمل ، وليس عنده من الإيمان مقدار حبة من خردل — والخردل حب شجر صغير — أو وزن أقل الأشياء ، لأن مثقال الحبة من الخردل يضرب مثلاً للضآلة والقلة ، ولذلك قال القرآن الكريم في سورة الأنبياء : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين » . وفي سورة لقمان: « يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير » .

وقد عبر بكلمة « الإيمان » هنا وأراد الأمانة ، لأن الإيمان هو أقوى باعث على التحلي بصفة الأمانة .

ثم قال راوي الحديث : « ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً رده الإسلام ، وإن كان نصرانياً رده عليّ ساعيه » . وهو بهذا يشير إلى زمان مضى كانت الأمانة فيه صفة شائعة عند أكثر الناس ، ولذلك كان لا يحتاط حين يبايع الناس ، ولا يبحث عن حال من يعامله ، ولا يدقق في السؤال عنه، فأيهم بايعه فهو مطمئن إليه . وقوله : « ما أبالي » أي لا أكترث ، أو لا أكره ، والمبايعة هي البيع والشراء .

« لئن كان مسلماً رده الإسلام » : فإن كان الشخص الذي أبايعه مسلماً

فإسلامه يرده ويمنعه من الغش والخيانة ، « وإن كان نصرانياً رده على ساعيه ». وفي رواية : « وإن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنه على ساعيه » . والساعي هنا هو الحاكم الذي يحكم عليه . وكان الساعي حينئذ مسلماً . والمسلم — وبخاصة الحاكم — سيحفظ الأمانة والحق . وقيل إنه أراد بساعيهم رئيسهم الذي يصدرون عن رأيه ، ولا يمضون أمراً دونه ، وقيل إن المراد هو الوالي الذي يجب عليه الإنصاف ، وكل من ولي أمر قوم فهو ساع عليهم .

« فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً » . وحذيفة قد مات سنة ست وثلاثين بعد مقتل عثمان بقليل ، وشهد جانباً من التغير الذي طرأ على المجتمع عند اضطرابه . ولذلك صار يحذر أن يعامل الناس إلا بعد بحث وتنقيب ، وهو لا يعامل إلا أفراداً معدودين عنده ، بقيت لهم صفة الأمانة ، وقوله : « إلا فلاناً وفلاناً » لعله ذكر اسمين غابا عن الراوي ، ولعله قال هذين اللفظين ، « فلاناً وفلاناً » كنايةً عن قلة الأمناء ، وإذا كان حذيفة قد قال هذا على عهده فماذا يقول الذين شهدوا عهود الخيانة والغدر بعد ذلك ؟ .

* * *

ولقد حث القرآن الكريم حثاً قوياً على التزام الأمانة ، فقال في سورة النساء : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » . وقال في سورة البقرة : « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته » . وقال في سورة المؤمنين : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وحذر من الخيانة فقال في سورة الانفال : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وقال على لسان بنت شعيب في سورة القصص : « إن خير من استأجرت القوي الأمين » .

وعني الحديث الشريف بالأمانة ، فقال الرسول صلوات الله وسلامه

عليه : « لا إيمان لمن لا أمانة له » . وقال : « الأمانة غنى » أي سبب للغنى ، لأن الرجل إذا عرفه الناس بالأمانة أكثروا معاملته ، فصار ذلك سبب غناه .

وقد أشارت السنة إلى ألوان من الأمانة ، كالأمانة بين الزوج وزوجته ، فقال الحديث : « إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ، ثم ينشرسرها » . وكأمانة المجالس الخاصة التي يلزم أن تحفظ وتصان ، فقال الحديث : « المجالس بالأمانة » وهذا حث على ترك إعادة ما يجري في المجلس من قول أو فعل ، لأن ذلك أمانة عند من سمعه أو شهده ، وكالأمانة عند المستشار ، فقال الحديث : « المستشار مؤتمن » فإن علم الصواب وذكر لمن يستشيره غيرَه فقد خانه . وكأمانة المؤذن، فقال الحديث : « المؤذن مؤتمن القوم » أي الذي يثقون به ، ويتخذونه أميناً حافظاً ، فالمؤذن أمين على صلاة الناس وصيامهم . وكالأمانة في التجارة ، فقال الحديث : « الزرع أمانة ، والتاجر فاجر » فجعل الزرع أمانة لسلامته من الآفات التي تقع من التاجر أحياناً في تجارته ، كالحلف والزيادة في الثمن ونحو ذلك .

وجعل الحديثُ « الأمانة » شيئاً غالياً يرجو الإنسان من الله حفظه ، فجاء الحديث : « استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » . وإذا كان هناك من قال إن الأمانة هنا هي الأهل ومن يخلفه الإنسان وراءه ، أو ماله الذي يودعه ويستحفظه أمينه ووكيله ، فإني أفهم أن الأمانة هنا هي الإيمان الذي يحفظ على صاحبه صفة الأمانة بكل أنواعها .

وكان الرسول يستعيذ من ضياع الأمانة فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة » . وذكر الرسول أن ذيوع الخيانة من أشراط الساعة وعلامات القيامة ، فحينما قال له بعض الناس : متى تقوم الساعة ؟ . أجاب : « إذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة » ، قال السائل : وكيف إضاعتها ؟ . فأجاب : إذا وُسّد الأمر

لغير أهله فانتظر الساعة . وفي حديث عن أشراط الساعة ذكر أن علاماتها أن يتخذ الناس « الأمانة مغنماً » أي يرى الذي في يده أمانة، أن الخيانة فيها غنيمة قد غنمها .

ولقد روى عبد الله بن مسعود حديثاً يشير إلى طائفة من ألوان الأمانة وفيه يقول : « القتل في سبيل الله يكفّر الذنوب كلها إلا الأمانة ، قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله — فيقال : أد أمانتك . فيقول أي رب ، كيف وقد ذهبت في الدنيا ؟ . فيقال : انطلقوا به إلى الهاوية ، وتمثل لـه أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها ، فيهوي في أثرها حتّى يدركها ، فيحملها على منكبيه ، حتّى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه ، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين . ثم قال :

« إن الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشياء عددها ، وأشد ذلك الودائع » .

قال راوي الحديث : فأتيت البراء بن عازب ، فقلت : ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود ؟ . قال : كذا . قال البراء : صدقه أما سمعت الله تعالى يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ؟ . .

وفي هذا الحديث تصوير بليغ رائع لخيبة من يضيع الأمانة أو يألف الخيانة، وفيه تفصيل مقنع لألوان من الأمانة التي نسأل الله أن يحلينا بها لنكون من المفلحين .

* * *

والحديث النبوي الشريف يذكّرنا بفضل أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه

عليه.على اللغة العربية، فقد كان سيد الخلق محمد أفصح العرب،وكانت تجري على لسانه كلمات ومفردات فيها ثروة طيبة للمتكلمين بلغة القرآن . والحديث الذي معنا أحد الأدلة على ذلك ، حيث تضمن طائفة من الألفاظ التي يحرص الانسان على فهم معناها والاستفادة بها في قول أو كتابة . مثل كلمات : جذر القلوب ، والوكت . والمجل ، ونفط ، ومنتبراً .

وهذا هو المرحوم الرافعي يشير إلى هذه الناحية في أدب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول عن قبيلة قريش : « كانوا أفصح العرب لساناً ، وأخلصهم لغة ، وأعذبهم بياناً ، وإنهم قد ارتفعوا عن لهجات رديئة ، اعترضت في مناطق العرب فسلمت بذلك لغتهم ، وإنما كان هؤلاء القوم أنضاد النبي صلى الله عليه وسلم من أعمامه وأهله وعشيرته » ثم يشير إلى نشأة الرسول اللغوية التي كان فيها صاحبَ رتبة بعيدة المصعد ، ويقول :

« فلا جرم كان صلى الله عليه وسلم على حد الكفاية في قدرته على الوضع والتشقيق من الألفاظ ، وانتزاع المذاهب البيانية ، حتى اقتضب ألفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدم كلامها ، وهي بعد من حسنات البيان ، لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها وقوة دلالتها ، وغرابة القريحة اللغوية في تأليفها وتنضيدها ، وكلها قد صار مثلاً ، وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي » .

* * *

هذا ومما يتصل بحديث الأمانة في المعاملات ما رواه بعض السابقين عن تقلص ظل الأمانة ، حيث قال : أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول : من ترون لي أن أعامل من الناس ؟ . فيقال له : عامل من شئت . ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون فيه : عامل من شئت إلا فلاناً

وفلاناً . ثم أتى زمان آخر ، فكان يقال : لا تعامل إلا فلاناً وفلاناً ، وأخشى أن يذهب هذا أيضاً .

ويروي الغزالي هذا ثم يعلق عليه بقوله : « وكأنه قد كان الذي يحذر أن يكون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وإذا كان الغزالي قد قال هذا وهو حجة الإسلام ، وقد مات سنة خمس وخمسمائة من الهجرة ، فماذا يقول الذين جاءوا بعده ، وشهدوا ما شهدوا من تقلص الأمانة وخراب الذمم ؟ .

لقد ضرب لنا الأولون من سلفنا الصالح أمثلة رائعة للأمانة والتحرز من الخيانة ، فهذا يونس بن عبيد ، كان يتجر في الثياب ، وكان عنده ثياب الثوبُ الواحد منها بأربعمائة درهم ، وعنده ثياب الواحدُ منها بمئتي درهم ، وحدث أن ذهب يونس إلى الصلاة ، وترك ابن أخيه في محله ، وجاء أعرابي فطلب ثوباً بأربعمائة درهم ، فأعطاه الصبي ثوباً من حُلَل المئتين ، فأعجب به الأعرابي ، ودفع فيه أربعمائة وانصرف فلقيه يونس في الطريق ورأى الثوب معه ، فعرفه ، فسأله عنه ، فعلم منه أنه قد اشتراه من محله بأربعمائة درهم ، فأعاده معه ، وأعطاه مئتي درهم ، على الرغم من أن الأعرابي قال له : إنه يساوي عندنا خمسمائة ، ولكن يونس قال : « النصح في المعاملة خير من الدنيا وما فيها » .

وبمثل هذه الأمانة المثالية ساد أولئك وقادوا الدنيا إلى ميادين الحق والعدل والكرامة الانسانية .

فضيلة التوكل

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خِماصاً ، وتروح بِطاناً » .

(رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي)

هذا الحديث النبوي الشريف أصل جليل في توضيح فضيلة التوكل[1] ومكانته في الإسلام ، والتوكل في اللغة يقال على وجهين : يقال توكلت لفلان ، أي توليت له . ويقال : توكلت عليه أي ، اعتمدته . ومعنى التوكل على الله هو الاعتماد عليه ، والإيمان به ، والثقة بنصره . ما دام الإنسان مقبلاً عليه ، مهتدياً بهديه : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز » .

ولما كان التوكل الصحيح لا يتحقق إلا مع الإيمان الصادق ، قال سعد بن جبير : « التوكل جماع الإيمان » . وقال وهب بن منبه : « الغاية القصوى التوكل » .

---

(1) انظر باب « التوكل » في الجزء الثاني من كتابي «أخلاق القرآن» صفحة ٢١٤ — ٢٢٧ .

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام لأتباعه في هذا الحديث إنهم لو صدقوا في إيمانهم ، فصدقوا في توكلهم ، فأخذوا بأسباب ربهم ، فاستعملوا ما وهبهم الله تعالى من طاقات وملكات ووسائل ، فاستشعروا الثقة بعون الله ونصره ، لرزقهم الله رزقاً رغداً واسعاً ، ولهيأ لهم من مواطن الفوز وثمرات التوفيق ما يهيئه للطير التي تخرج من أعشاشها عند الصباح وهي جائعة ، وتعود عند المساء وهي ممتلئة البطون ، أو كما قال ابن الأثير في « النهاية » : تغدو بكرة وهي جياع ، وتروح عشاء وهي ممتلئة .

وماذا تصنع الطيور ؟ . هل تنام في أكنانها بلا سعي أو عمل ؟ لا ، بل هي تغدو في الصباح خالية البطون ، وتظل تطير بأجنحتها ، وتضرب في آفاق الجو بطاقاتها ، وتسعى وتكدح ، وتجمع من هنا وهناك ، حتى ترجع في آخر النهار ، وقد نالت جزاءَ سعيها ، وكفاءَ جهدها ، وهذا يفيدنا أن من التوكل الأخذَ بالأسباب ، والتذرع بالعمل لتحقيق الأمل ، لأن الله سبحانه هو الذي خلق الأسباب والوسائل الموصلة إلى الغايات ، فإذا أخذ الإنسان بها ، واستنفد جهده فيها ، فإنه يكون قد صدق في توكله ، لتقبله ما هيأ له ربه من أسباب ووسائل . ولانتفاعه بما يسر خالقه الكريم من طرق ومسالك .

ولو أن الإنسان أهمل هذا كله لكان مُعْرِضاً عن الله جل جلاله ، متأبياً على ما وهب ويسر ، فلا يكمل توكله بذلك ، وإنما يكمل إذا آمن الإنسان وأيقن أن الله معه لأنه مع الله ، ثم انطلق وكله عزيمة وهمة وثقة من النصر ، متذكراً دائماً أن الله كالئه وراعيه ، وأنه واهب التوفيق والنجاح ، لمن أحسن استخدام الأسباب ، وقرن هذا بالتقوى الثابتة ، وإذا ما أصابه بعد هذا ما لم يكن في الحسبان ، أو ما لا يستطيع بعزمه البشري أن يدفعه ، لم ييأس ولم يقنط ، بل رضي بما قضى الله ، واستعان به في دفع ما يؤلمه أو يصدمه ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس (أي العقل) ، فإذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل » .

وهذا معناه أن الله تعالى يؤاخذ الإنسان على الكسل والتبطل والعجز ، ويدعوه إلى استخدام العقل القاضي بمواصلة العمل والاستمرار على بذل الجهد ، ما دامت هناك استطاعة ، فإذا عرض للإنسان ما ليس في طاقته ولا في استطاعته ، فليصدق في التوجه إلى ربه سائلاً إياه أن يكون عونه ونصيره ، وأن يرفع عنه ما لا يستطيع .

ولعل هذا هو السر في الجمع بين التقوى والتوكل في حديث القرآن الكريم ، حيث نجد التنزيل المجيد يقول : « ومن يتق الله يجعل اه مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه قد جعل الله لكل شيء قدراً » .

وقد روي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرأ هذه الآية على أبي ذر وقال : « لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » ، أي لو أنهم اتقوا ربهم حق التقوى ، ونزلوا على حكمها في إتيان ما يجب إتيانه ، وتجنب ما يلزم تجنبه ، لكان ذلك مفتاحَ توفيقهم الواسع في أمور الدين والدنيا .

ولعل هذا أيضاً هو السر في أن القرآن قرن بين التوكل والإيمان ، فأخبرنا أن الذين يتوكلون إنما هم المؤمنون ، فقال عز من قائل : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وقد تكررت هذه الآية في سور : آل عمران ، والمائدة ، والتوبة وابراهيم ، والمجادلة ، والتغابن : كما قال الله تعالى في سورة المائدة : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

ولذلك قيل في حقيقة التوكل إنه « صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار » ومن الواضح أن « الاستجلاب »

و « الدفع » يستلزمان جهداً وعملاً وسعياً ومحاولة . وفسر الحسن التوكل بأنه « أن يعلم الإنسان أن الله هو ثقته » .

ولقد دل القرآن المجيد على أن التوكل يصاحب العمل ، فقال الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : « فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

والمعنى كما في « تفسير المنار » : إذا عزمت بعد المشاورة في الأمر على إمضائه ، على ما ترجحه الشورى ، وأعددت له عدته ، فتوكل على الله في إمضائه ، وكن واثقاً بمعونته وتأييده لك فيه ، ولا تتكل على حولك وقوتك ، بل اعلم أن وراء ما أتيته قوة أعلى وأكمل ، يجب أن تكون بها الثقة ، وعليها المعول ، وإليها الملجأ إذا انقطعت الأسباب وأغلقت الأبواب ....

ومن الواجب علينا أن نؤكد في مقام الحديث عن التوكل أن التوكل ليس معناه البطالة أو ترك الأسباب ، وأن الذين يفعلون ذلك عن جهالة أو ضلالة بحاجة إلى التبصير والتقويم . ولقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفهم منه : أيترك ناقته بلا عقال ويتوكل ، أم يربطها ويتوكل ؟ . فقال له الرسول : اعقلها وتوكل ؛ وهذه العبارة تفيد أن التوكل لا يتعارض مع الاحتياط والأخذ بالأسباب .

ولقد جاء في الحديث المرسل : « التوكل بعد الكيس » أي بعد التعقل في العمل وبذل الجهد والاحتياط ، وسئل الإمام أحمد بن حنبل عمن يقعد ولا يكتسب ويقول : توكلت على الله ، فقال : ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ، ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب . وقدم على عمر بن الخطاب ناس من اليمن ، فقال لهم : من أنتم ؟ . فأجابوا : نحن المتوكلون . فقال : بل أنتم المتواكلون ، إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله ..

. وهنا يحسن أن نعرف الفرق بين التوكل والتواكل ، فالتوكل إيمان بالله ، وثقة فيه ، واستعانة بحوله وقوته ، مع بذل الجهد والطاقة ؛ والتواكل تضييع للعمل ، وإلقاء للعبء على الغير ، ولذلك نجد الأصفهاني في « مفردات القرآن » يقول : « وواكل فلان إذا ضيّع أمره متكلاً على غيره ، وتواكل القوم إذا اتكل كل منهم على الآخر » .

ويعجبني قول من قال — فيما يرويه يوسف بن أسباط — : اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله ، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له . .

ولقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى السعي وتأمر بالعمل، فقال الله تعالى : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » . وقال : « وقل اعملوا » . وقال : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » وقال : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . وأمر القرآن الكريم بأخذ الحيطة والحذر ، فقال : « خذوا حذركم » . وقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . إلى غير ذلك .

وبجوار ذلك تكررت مادة « التوكل » في القرآن عشرات المرات ، واتجه فيها الأمر بالتوكل إلى الأخيار والأبرار ، فأمر الله تعالى نبيه بالتوكل فقال له : « وتوكل على الحي الذي لا يموت وكفى به بذنوب عباده خبيراً » . وقال : « وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم » . وقال : « فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . وقال القرآن على لسان هود عليه السلام : « إني توكلت على الله ربي وربكم » . وقال على لسان شعيب عليه السلام : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » . وقال على لسان والد يوسف عليهما السلام : « إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون » . إلى آخر الآيات .

فكيف نجمع بين آيات الأمر بالعمل وآيات الأمر بالتوكل ؟ ، نجمع بين هذه الآيات وتلك بأن نقول إن التوكل هو اعتماد على الله تعالى ، وثقة به ، وإيمان بنصره ، على حين يبذل المرء كل ما يستطيع من جهده وطاقته في ميدان العمل والسعي ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وليس من التوكل أبداً أن يدع المرء أولاده بلا سعي من أجلهم قائلاً : إني وهم متوكلون على الله ، وإلا لكان هذا خروجاً على الحديث الذي يقول : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » ، وهذا سيد البشرية وإمام الانسانية محمد ، وهو خير المتوكلين ، لم يترك شرعة العمل طيلة حياته ، فقد تاجر ورعى واشتغل ، وقد جاهد وهاجر ، وقد رتب ودبر ، وقد استخدم كل ما يسر الله له أسباب في أمور الدين والدنيا .

وليس من التوكل أبداً ترك التداوي مع القدرة عليه ، فقد كان النبي يتداوى ويداوم على ذلك ، وهو يخبرنا أن الذي خلق الداء خلق الدواء . فإذا ترك الإنسان استعمال الدواء فكأنه تأبى على الله تعالى ، فلا يكون متوكلاً عليه حقاً ، بل يكون في الواقع معرضاً عنه ، مستخفاً بنعمته التي هيأها لعباده ..

ولا يجوز للمتواكلين أن يتعللوا بقصة إبراهيم مع ولده إسماعيل وأمه هاجر ، وفيها أن إبراهيم عليه السلام ترك زوجته وولده بواد غير ذي زرع ، ولما هم بالرحيل تعلقت به هاجر ، وقالت له : إلى من تدعنا ؟ . فقال : إلى الله . فقالت : رضيت بالله .

لا وجه للتعلل بهذه القصة ، لأن فيها أموراً تبعدها عن معنى التواكل ، وهي : أولاً : أن ما فعله إبراهيم عليه السلام كان بوحي من الله تعالى ،

وإبراهيم لا يسعه إلا تنفيذ الوحي ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وثانياً : لقد ترك إبراهيم لزوجته وولده – كما ذكرت القصة – جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء . وثالثاً : مع علم إبراهيم بأن هذا وحي ، وأن الله الذي أمره بذلك لا يضيعهما أخذ يرجو ربه في الرحمة بهما والتفضل عليهما ، فيقول :

« ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ، فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

ورابعاً : لم تقعد هاجر – مع رضاها بقضاء الله ، ومع توكلها عليه ، ومع ثقتها بأنه سبحانه لن يضيعها وولدها – بل سعت عندما احتاجت إلى الماء ، حتى هداها الله إلى بئر زمزم كما هو معروف ...

هذا وقد وردت في السنة أحاديث عن التوكل وأدعيته نذكر منها ما يلي :

١ – من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

٢ – اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك .

٣ – اللهم اجعلني ممن توكل عليك فكفيته .

وللصوفية في التوكل كلمات كثيرة يند الرشاد عن بعضها ؛ وهذا البعض أشبه بالشطحات ، أو هو على أقل تقدير خاص بفئة معينة تعرض نفسها لمواطن لا تناسب عامة الناس ، ولذلك نتركهم وشأنهم ، ومع ذلك نجد من بين الصوفية من يصور لنا التوكل تصويراً يحسن الجمع بين الاعتماد على الله سبحانه ، وبذل الجهد والعمل ، فهذا مثلاً هو سهل التستري يقول : « من طعن في الحركة (السعي والكسب) فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل ، فقد طعن في الإيمان ، فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته (طريقته) ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته » .

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا صدق التوكل عليه .

من وصايا الرسول

عن عبد الله بن عباس قال : كنت خلفَ النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا غلام ، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ . فقلت : بلى . فقال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

(رواه الامام أحمد) .

***

راوي هذا الحديث الشريف هو حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، وقد تضمن الحديث طائفةً جليلة من الوصايا النبوية التي يجب أن يهتدي بها المسلم ليزداد إيماناً ، وليستقيم على طريق الهداية والخير ، وقد ألف الإمام ابن رجب الحنبلي في شرحه كتاباً مطبوعاً لطيف الحجم سماه « نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي لابن عباس » .

ووردت في الحديث روايات أخرى منها :

١ — احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة . واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً .

٢ — يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك ، رُفعت الأقلام ، وجفت الصحف .

* * *

والحديث يقول : « احفظ الله يحفظك » أي احفظ حقوق الله تعالى عليك واحفظ إيمانك به وخضوعك له ، فلا تتعد حدوده ، ولا تقرب نواهيه ، ولا تهمل أوامره ، بل أطعه واستجب له ، وقد مدح الله تعالى من يحفظ حقوقه ، فقال عز من قائل : « هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » .

وهناك أمور كثيرة تحتاج إلى الحفظ والمحافظة ، فهناك المحافظة على الصلوات ، وحفظ الإيمان ، وحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وحفظ الفرج من الفاحشة .

وإذا حفظ الإنسان حقوقَ ربه وأدى واجباته ، فإن الله تبارك وتعالى يثيبه ، بأن يحفظه في دينه ودنياه ، ويوفقه في عمله ومسعاه ، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو ربه فيقول : « اللهم استّر عوراتي ، وآمن روعاتي ، واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وشمالي ومن فوقي » .

وعلّم النبيُّ المسلمَ أن يقول عند نومه: « اللهم إن قبضت روحي فارحمها . وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » . أو يقول : « اللهم احفظني بالاسلام قائماً ، واحفظني بالإسلام قاعداً ، واحفظني بالإسلام راقداً ، ولا تطمع فيَّ عدوا ولا حاسداً » .

ومن ألوان الحفظ حفظ الشبيبة وصيانتها ، حتى تكون رصيداً لصاحبها عند الكبر . وما أحكم الكلمة التي قالها بعض الأدباء ، وهي : « من جار على صباه جارت عليه شيخوخته » . ولقد وثب أحد العلماء — وهو طاعن في السن — وثبةً واسعة ؛ فلامه بعض معارفه على ذلك . فقال : « هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر » .

وربما جعل الله تعالى حفظه لعبده متمثلاً في حفظ أولاده وذريته ، ولذلك قال خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز : « ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه » ..

* * *

ثم قال الرسول : « إحفظ الله تجده أمامك » . وفي بعض الروايات : « تجده تجاهك »: أي مقابلك . وأصل كلمة تجاه هو « وجاه » وأبدلت الواو تاء كما في كلمة « تقاة » .

والمعنى أنك إذا حفظتَ حقوق الله وراقبته وجدتَ الله معك في كل الأحوال ، يهديك ويرعاك ويؤيدك ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه « المعية الخاصة — أي معية الصيانة والحفظ والرعاية والتوفيق — في أكثر من آية كقوله : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » ، وقوله لموسى وهارون : « لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » ؛ وقوله على لسان موسى : « كلا إن معي ربي سيهدين » وقوله على لسان محمد : « لا تحزن إن الله معنا » .

ولقد كتب بعض السلف إلى أخ له في الله تعالى فقال له : « أما بعد : فإن كان الله معك فمم تخاف ؟ وإن كان عليك فمن ترجو ؟ » . وقال قتادة :

« من يتق الله يكن معه ، ومن يكن معه فمعه الفئة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام ، والهادي الذي لا يضل » . وفي الحديث القدسي : « أنا جليس من ذكرني » .

* * *

ثم قال الحديث : « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » . والمراد بالرخاء الغنى والقوة ، والمعنى أن الإنسان إذا عرف طريق ربه ، وأدى حقوقه وهو في غنى ويسار ، فمقتضى ذلك أن البطر لم يركبه ، وأنه شكر النعمة وقدرها ، ولذلك إذا عرضت له شدة أو ابتلاء كان الله معه : يعينه وينصره ، وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي : « من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء » . وليس المراد بالدعاء هنا مجرد الترديد لكلماته بلا وعي أو تأثير أو انفعال ، بل يجب قرن ذلك بالاستجابة والعمل الصالح والعبادة المستقيمة . وقال الضحاك بن يونس : « اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة » . وقال أبو الدرداء : « ادع الله في يوم سرائك لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك » .

ومن التعرف إلى الله في الرخاء أن يذكر الإنسانُ الموتَ وهو في صحته وشبابه حتى لا يغتر بهما ...

ثم قال الحديث : « وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » . أي لا تسأل غير الله سبحانه ، وتوجه بالدعاء والرجاء اليه وحده ، فهو القائل: « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » . وهو القائل : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه

ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون » .

ولا تستعن بغير الله تعالى في قضاء أمورك وبلوغ آمالك ، فهذا هو الحسن البصري يكتب إلى خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يقول: لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه » . وقد جاء في الحديث القدسي أن الله تبارك وتعالى يقول : هل من داع فأستجيب له دعاءه ؟ هل من سائل فأعطيه سؤله ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ . والإمام أحمد بن حنبل كان يدعو ربه فيقول : « اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواك » .

* * *

ثم قال الحديث : « قد جف القلم بما هو كائن » . أي أن كتابة المقادير قد انتهت من زمن بعيد ، والقرآن الكريم يقول : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير » ، وفي الحديث الصحيح أن الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . وهذا لا يتعارض مع وجوب السعي والعمل ؛ لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « كلٌّ ميسَّر لما خُلق له » .

* * *

ثم قال الحديث : فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه » ، ولعل خير ما يوضح هذا قول القرآن المجيد : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

والإيمان بهذا يجعل الإنسان واثقاً مؤمناً بالله تعالى لا يخاف عبداً من العباد، ولا يهاب أحداً من الناس . بل يقدم ليبذل جهده وتوفيق الله معه متى كان

مستحقاً له بيقينه وإخلاصه وسعيه ، ولا يتطرق إليه رهبة من أحد ، لأن المعز المذل ، والخافض الرافع ، هو الله وحده : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير » .

* * *

ثم قال الحديث : « واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، أي إذا أصابك مكروه أو ابتلاء ، واحتملته بصبر ، ولم تذل أمامه جاءك من وراء ذلك خير كثير ، والقرآن يقول : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

وفي هذا أيضاً إشارة إلى أن الصبر على الأحداث من شيمة المؤمن الذي يعلم أن الله يقضي ، وأن المرء عليه الرضا والقبول ، ليفوز بالثواب والنعيم ، يقول الله تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة . وأولئك هم المهتدون » .

وقد جاء في الحديث : « إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » ، ومن الكلمات النوابغ المأثورة عن خامس الراشدين عمر بن العزيز قوله : « أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر » . فهو لا يجد لذته إلا فيما تأتيه به المقادير .

والمؤمن على خير في كل حال ، لأنه إن أصابته نعمة فشكر الله تعالى عليها كان الشكر خيراً : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وإن أصابته شدة وصبر عليها كان الصبر خيراً : « والله مع الصابرين ».

* * *

ثم قال الحديث : « واعلم أن النصر مع الصبر » . وفي الصبر هنا معنى الاحتمال والثبات ورسوخ العزيمة . وان الفئة القليلة لتصبر فتنال النصر على الفئة الكبيرة ، والقرآن يؤيد هذا حيث يقول : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » . والقرآن قد جعل المؤمنين — بصبرهم وثباتهم ويقينهم — يغلبون أضعافهم ، فقال: « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

وكما يكون الصبر الحسي سبباً للنصر المادي يكون الصبر النفسي سبباً للنصر المعنوي ، فإن الإنسان إذا صبر عن الآثام والمنكرات انتصر على نفسه الأمارة بالسوء ، وانتصر في مجال التطهر والتحصن والفضيلة ، ومن هنا نفهم أن الصبر له أكثر من معنى ، ولذلك قال الأصفهاني في « مفردات القرآن » هذه العبارة : « الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عما يقتضيان حبسها عنه ، فالصبر لفظ عام ، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه ، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير ، ويضاده الجزع ، وإن كان في محاربة سمي شجاعة ، ويضاده الجبن ، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر ، ويضاد الضجر ، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً ، ويضاده المذل (الذي يفشي السر) وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبراً » .

* * *

ثم قال الحديث : « وإن الفرج مع الكرب » ، والكرب هو الغم الشديد

الذي يثير النفس ، وقد يوصف بأنه عقدة على القلب ، وهذا إرشاد إلى عدم اليأس والقنوط ، فإن من شأن المؤمن أن لا ييأس ، بل يتصل منه الرجاء حتى يصل ويفوز : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ولقد كان إبراهيم عليه السلام في كرب النار ، ولكن الله نجاه ، وكان يونس عليه السلام في كرب الدخول في جوف الحوت ، ولكن الله نجاه ، وكان أيوب عليه السلام في كرب المرض : ولكن الفرج أتاه من الله ، وكان محمد عليه الصلاة والسلام في كرب الغار ولكن الفرج أتاه من الله .

* * *

ثم قال الحديث : « وإن مع العسر يسراً » ، والعسر هو الشدة والضيق والصعوبة ، واليسر هو التسهيل واللين والتوفيق ، وهذه العبارة الكريمة تشير إلى أن العسر لا يدوم ، فإذا عرضت لك اليوم شدة فثق بأن الله تعالى سيعقبها فرجاً : « سيجعل الله بعد عسر يسراً » ، « إن مع العسر يسراً ؛ إن مع العسر يسراً » ، ولن يغلب العسر يسرين ، ويقول الحديث : « لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه » .

نسأل الله عز وجل أن يهبنا تقواه ورضاه ورحمته ، انه أكرم مسئول وأفضل مأمول .

من طرق القضاء

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم ، ولكن البينة على المدعي، واليمين على من أنكر » .

(حديث حسن رواه البيهقي) .

* * *

هذا الحديث النبوي الشريف يقدم إلينا طريقة مهمة من طرق الفصل في الخصومات ، ويرسم لنا نظاماً لحفظ حقوق العباد ، وتعرف الحقائق عند النزاع والتقاضي ، فالمشاهد أن الناس ليسوا على درجة واحدة من قوة الإيمان وحياة الضمير واستقامة السلوك ، والمطامع عندهم مختلفة ، والأهواء متباينة ، ولو تُركوا وشأنهم فيما يتعلق بالادعاء والزعم لرأينا كثيراً ممن لا خلاق لهم يدعون ما لا يملكون ، ويحاولون الحصول على ما لا يستحقون، ويكفيهم هنا أن يضعوا يدهم على شيء من الأشياء ويقولون : هذا لنا . أو هذا ملكنا ، أو غير ذلك من صور الادعاء والافتراء .

فكان لا بد والحالة هذه أن نضع حواجز أمام الادعاء ، وأن نقيم وسائل لتمحيص الافتراء ، ومن بين مـــا وضعه الإسلام العظيم هذه القاعدة التي بيّنها هذا الحديث الجليل ، حيث يسد الباب على الادعاء الذي لا يصحبه دليل أو برهان .

وقد وردت روايات أخرى في معنى الحديث ، منها ما يلي :

١ ــ لو يعطى الناس بدعواهم ، لادعى الناس دماء رجال وأموالهم ، ولكن اليمين على المدعى عليه .

٢ ــ عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى أن اليمين على المدعى عليه .

٣ ــ لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال دماء رجال وأموالهم ، ولكن البينة على الطالب واليمين على المطلوب .

٤ ــ المدعى عليه أولى باليمين ، إلا أن تقوم بينة .

وقد روي عن قتادة أنه قال : « فصل الخطاب الذي أوتيه داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام هو أن البينة على المدعي ، واليمين على من أنكر » وهو يشير بذلك إلى قول الله تبارك وتعالى في سورة « ص » في شأن داود عليــه السلام : « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

وقد جاء في الجزء الرابع من تفسير ابن كثير هذا النص : « قال شريح القاضي والشعبي : فصل الخطاب الشهود والأيمان . وقال قتادة : شاهدان على المدعي ، أو يمين المدعى عليه هو فصل الخطاب الشهود والايمان . وقال قتادة ، أو قال : المؤمنون والصالحون ، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة .

وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي ، وقال مجاهد والسدي : هو إصابة القضاء وفهم ذلك ، وقال مجاهد أيضاً : هو الفصل في الكلام في الحكم ، وهذا يشمل هذا كله ، وهو المراد ، واختاره ابن جرير . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمر بن شبة النميري : حدثنا إبراهيم بن المنذر : حدثني عبد العزيز بن أبي ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي زناد عن أبيه عن بلال بن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى رضي الله عنه قال : أول من قال (أما بعد) داود عليه السلام ، وهو فصل الخطاب ، وكذا قال الشعبي : فصل الخطاب : أما بعد » انتهى .

وبالرجوع إلى الجزء الثالث والعشرين من تفسير ابن جرير نجد أنه قد ذكر في تفسير « فصل الخطاب » عدة معان منها : إصابة القضاء وفهمه ، ومنها علم القضاء ، ومنها الخصومات التي يخاصم الناس إليها ، وفصل ذلك الخطأ الكلام والفهم واصابة القضاء والبينات ، ومنها تكليف المدعي البينة ، واليمين على المدعي عليه ، ومنها الشاهدان على المدعي ، واليمين على المنكر ، ومنها يمين أو شاهد .... إلخ .

ولكنا إذا رجعنا إلى الجزء السابع من تفسير الرازي نجده يقول عن معنى فصل الخطاب ما نصه : « ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال في كلامه : أما بعد ، وأقول حقاً إن الذين يتبعون مثل هذه الكلمات قد حرموا الوقوف على معاني كلام الله تعالى حرماناً عظيماً والله أعلم ، وقول من قال : المراد معرفة الأمور التي بها يفصل بين الخصوم ، وهو طلب البينة واليمين ، فبعيد أيضاً ، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال ، بحيث لا يختلط شيء بشيء ، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام ، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام ، والله أعلم « انتهى »

* * *

يقول الحديث: « لو يعطى الناس بدعواهم لادعى قوم دماء قوم وأموالهم » أي لو كان إثبات الحقوق بمجرد القول والادعاء لوجدنا من الناس كذبة يستبيحون لأنفسهم أن يدعوا أموال غيرهم ، فيزعم الواحد منهم أن هذا المال ماله ، وهو في الحقيقة والواقع مال غيره ، ويزعم آخر أن فلاناً قتل قريبه أو مورثه ، والقاتل في الحقيقة والواقع سواه ، وهكذا .

« ولكن البينة على المدعي » : أي الطريق السليم هو أن يكون مع الدعوى دليل وبرهان ، فيجب على المدعي أن يأتي ببينة لتكون برهاناً على ما يطالب به ، حتى يستحقه ويأخذه ، وهذه البينة قد تكون شهادة شاهدين فأكثر ، وقد تكون دليلاً حسياً ملموساً ، وقد تكون قرينة تقوم على إثبات الدعوى ، ومعنى هذا أن البينة تشمل كل ما يبين صحة دعوى المدعي ويشهد بصدقه .

« واليمين على من أنكر » : والمنكر هنا هو المدّعى عليه ، وإنما كان عليه أن يحلف اليمين لأنها هي التي تبرىء ذمته، وتنفي التهمة عنه ، فإذا جاء المدعي وادعى دعواه ، وعجز عن أن يقيم عليها البينة والدليل ، وأنكر المدعى عليه ما قال المدعي ، فإن المدّعي عليه يبرىء ساحته بحلف اليمين ، حتى يؤكد أنه صادق في إنكاره .

وقد يسأل سائل هنا فيقول : من المدعي ؟ . ومن المدعى عليه ؟ . والجواب أن المدعي هو من يطلب حقاً ، أو يزعم أمراً خفياً على خلاف الأصل والظاهر ، والمدعي عليه هو من يطالبه المدعي بهذا الحق ، أو ينسب إليه هذا الأمر الخفي ، ويؤيد هذا التفسير روايةُ الحديث التي تقول : « ولكن البينة على الطالب ، واليمين على المطلوب » . وقد سبق ذكر هذه الرواية .

ومن صور التطبيق لهذه القاعدة أنه يروى أن شريحا القاضي قضى في أولاد هرة تخاصمت فيها امرأتان ، كل منهما تقول : هي أولاد هرتي ، فقال

شريح : ألقوها مع هذه فإن هي قرت ودرت واسبطرت (أي امتدت للارضاع) فهي لها ، وإن فرت وهربت واقشعرت فليست لها .

وعن الركين بن الربيع عن أبيه قال : إن حصاناً شرد لأخيه ، ثم رآه في أحد المرابط ، فقال : هذا فرسي ، فقال له صاحب المربط : ألك عليه بينة ؟ . قال : لا ، ولكني أدعوه فيحمحم ، فقال له صاحب المربط : افعل . فدعاه الرجل فحمحم الحصان ، فأعطاه إياه .

وقال بعض الفقهاء : إنه إذا ادعى صاحب زرع على صاحب غنم أن غنمه أتلفت زراعته بالليل ، ينظر : فإذا كان هناك آثار للغنم اعتبرت دليلاً ، وإن لم تكن هناك آثار فإن صاحب الزرع يطالب بينة على كلامه .

ويروى أن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجل خصومة في بئر ، فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله : شاهداك أو يمينه . قلت : إذن يحلف ولا يبالي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين يستحق بها مالاً هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان ». وأنزل الله تبارك وتعالى قوله : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » .

ويروى في سبب نزول الآية أيضاً عن عبدالله ابن أبي أوفى أن رجلاً أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين .

وقال ابن حجر في هذا المقام : « لا منافاة بين الحديثين ، بل يحمل على أن النزول كان بالسببين معاً » .

ويروى أيضاً أن الآية نزلت في حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف

وغيرهما من اليهود الذين كتموا ما أنزل الله في التوراة وبدلوه ، وحلفوا أنه من عند الله .

ويعجبني هنا قول « تفسير المنار » في هذه الروايات المتعددة : « ويحتمل أن الآية كانت تذكر عند ذكر تلك الوقائع ، فيظن من لم يكن سمعهـا أنها نزلت فيها .

ونخلص من هذا بأنه يحرم على الإنسان أن يدعي ما ليس له ، كما يحرم على الإنسان أن يحلف كاذباً ، ومن فعل إحدى الكبيرتين تعرض لغضب الله ونقمته في الدنيا والآخرة .

* * *

وبمناسبة ذكر الحلف الكاذب ينبغي أن نعرف أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال : « الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » وهي ما تعمد بها صاحبها الباطل ، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار . وقال النبي : « من حلف على يمين مصبورة كاذباً فليتبوأ بوجهه مقعده من النار » واليمين المصبورة هي التي تكون لازمة لصاحبها من جهة الحكم . وقال النبي أيضاً : « لا يحلف أحد عند منبري هذا على يمين آثمة ولو على سواك أخضر إلا تبوأ مقعده من النار ، أو وجبت له النار » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحقّ أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

وقال : « من خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه . ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله رَدْغة الخبال حتى يخرج مما

قال ، ومن أعان على خصومة بظلم فقد باء من الله عز وجل » والرذْغة الطين ، والخبال عصارة أهل النار ، أي ما يسيل من أبدانهم .

نسأل الله جل جلاله أن يغنينا بحلاله عن حرامه ، وأن يجملنا بالصدق والوفاء ، وأن يجنبنا الكذب والافتراء ، وأن يأخذ بنواصينا إلى سبيله ، إنه أكرم مسئول وأفضل مأمول .

بين الخير والشر

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ . قال : نعم . قلت : وهل بعد هذا الشر من خير ؟ . قال : نعم ، وفيه دَخَن . قلت : وما دخنه ؟ . قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر . قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ . قال : دعاة إلى أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها . قلت : يا رسول الله ، صفهم لنا . قال : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا . قلت : يا رسول الله ، فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ . قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ . قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك .

(رواه البخاري)

* * *

من شأن العاقل اللبيب أن يتعرف إلى الخير ليتبعه ويستمسك به ، وأن

يتبين الشر ليحذره ويتجنبه ، وإذا لم يعرف الإنسان الشر فإنه يكون عرضة للوقوع فيه بسبب جهله له ، وإذا كان هنـــاك طلاب للخير يسألون عنه ، ويتعرفون مواطنه ، فإنه ينبغي أن يكون إلى جوارهم آخرون يحذرون الشر بعد أن يحددوا أماكنه ، وهكذا كان الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، فهو يرى الصحابة رضوان الله عليهم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجوه الخير ، وهو يشاركهم اتباع هذا الخير والعمل به ، ومع هذا كان يخشى زوال الخير ، وكان يسأل عما قد يعقبه من شر ، وإنما هو يريد معرفة ذلك ليحتاط ويحترس ، إذ هو يخاف أن يناله شيء من ذلك الشر دون أن يدري .

ولذلك قال حذيفة للرسول عليه الصلاة والسلام : « يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر » ؟ .
و « الجاهلية » : مصدر صناعي من كلمة « الجاهل » ، والجاهل من مادة « الجهل » . ولكن لا يراد بالجهل هنا ما هو ضد المعرفة ، بل يراد بالجاهلية الخروج عن صراط الحق والعدل والخير ، إلى الباطل والانحراف والشر ، ولذلك يقال : فلان يجهل على قومه ، أي يتسافه عليهم ويسيء إليهم ، وعلى هذا جاء قول القائل :

ألا لا يجهلــن أحــد علينــا فنجهل فوق جهل الجاهلينــا

والجاهلية : هي الحال التي كان عليها الناس قبل الإسلام ، من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين ، ومن المفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك ، وقد جاء في حديث آخر : « إنك امرؤ فيك جاهلية » .

و « الخير » : ضد الشر ، والخير هو ما فيه نفع طيب ، خاص أو عام ، وخار الله لك : أي أعطاك ما هو خير لك . والمراد بالخير هنا استقامة الحال وتجنب الآثام .

و « الشر » : يراد به هنا ما كان قبل الإسلام من بغي ومعصية وضلال ، والمراد بالخير والشر في الحديث الخير العام والشر العام ، لأنهما هما اللذان يأتي أحدهما بعد الآخر بوقت .

فحذيفة يقول لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه : إننا كنا قبل أن يمن الله علينا بك نعيش في ظلام الجاهلية وضلال الكفران ، لا نتبع حقاً ، ولا نحذر باطلاً ، ثم جئتنا من ربك بالدين القيم المتضمن ألوان الخير والبر ، ولا عجب فالله يقول فيه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

فهل هناك في الغيب شر سيأتي بعد هذا الخير العظيم الذي جاءنا به الإسلام؟. وقد جاء في إحدى الروايات : « فهل بعد هذا الخير من فتنة » . وقد أجابه الرسول محذراً بقوله : « نعم » ، وهذا الجواب من دلائل النبوة ، والرسول عليه الصلاة والسلام لا يخبر إلا بالحق ، « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » . والمراد بهذا الشر الأول بين المسلمين هو ما وقع من خلاف بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أو ما وقع من الفتنة بعد مقتل عثمان ابن عفان رضي الله عنه .

وعاد حذيفة يسأل الرسول : « وهل بعد هذا الشر من خير » ؟ . فأجابه الرسول محذراً ومنبهاً : « نعم وفيه دَخَن » . وقد ذكر العلماء أن المراد بالخير هنا ما وقع في خلافة خامس الراشدين الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز ، فقد جاء عهده في أعقاب ما فعل الحجاج وأحزابه ، فأعاد الله بخامس الراشدين أنفاس الخلافة الطاهرة الراشدة . ولنلاحظ أن الحديث استعمل اسم الإشارة « هذا » في قوله : « وهل بعد هذا الشر من خير » ، وهذا الاسم موضوع

الإشارة إلى القريب ، وذلك للدلالة على أن حدوث الشر الأول سيقع بعد زمن قصير من إشراق شمس الإسلام ، وكذلك كان .

و « الدخَن » : بفتح الدال والخاء يراد به الشر العارض ، وأصله من كلمة « الدخان » ، ومادة الدخن تدل على الكدورة وعدم الصفاء ، وقيل إن أصل الدخن أن يكون في لون الدابة كدورة ، مائلة إلى سواد ، وفي الحديث : «هدنة على دخن» أي على فساد واختلاف ، فهي تشبه دخان الحطب الرطب الذي يلقى على النار فيكثُر دخانُها ، وذلك لما بين المتهادنين من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر ، فيراد بالدخن هنا فساد القلب ، وقد وضع العرب الدخان موضع الشر ، فقالوا : كانت بيننا أمور ارتفع لها دخان ، أي عداوات وحزازات ، وأطلقوا الدخن على الحقد مجازاً ، وقال قائلهم :

وقد علمت على أنـــي أعاشرهم لا نفتأ الدهر الا بيننـــــا دخن

ثم عاد حذيفة في تطلع وحرص على استقصاء المعرفة ، فقال يســأل رسول الله عليه الصلاة والسلام ... « قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر » . أي هم أناس لا يستنون بسنة الرسول ولا يتابعون هديه ، بل يخلطون الطيب بالخبيث ، والحسنات بالسيئات ، فأنت تعرف منهم أشياء توافق الشريعة ، في أقوالهم أو أعمالهم أو تصرفاتهم ، ثم ترى لهم أشياء أخرى لا توافق الشريعة في أقوالهم وأعمالهم وتصرفاتهم ، وقوله : « تعرف منهم وتنكر » تعبير بليغ فيه إيجاز رائع ، لأنه يجمع المعنى الكثير في اللفظ القليل ، فهذه ثلاث كلمات صوّر بها الرسول سيد البلغاء ما عند هؤلاء من اضطراب واختلاط ، وما في أقوالهم وأعمالهم وتصرفاتهم من أمشاج وأخلاط . والمقصود بهؤلاء هم الذين جاءوا بعد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وعبوا من الشهوات ، فلديهم جانب من الخير معه جانب من الشر .

ولم يسأم حذيفة السؤال ، بل عاد يقول لسيد الخلق : « فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ . قال : دعاة إلى أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها ». وقد استعمل حذيفة هنا كلمة « ذلك » وهي إشارة للبعيد ، لأن ذلك الخير سيأتي بعد وقت طويل . والدعاة : جمع داع ، وهو الذي يدعو إلى شيء ويحث على اتباعه . والدعوى والدعاوة والدعاية هي ما يدعو به الإنسان . وفي الحديث : « إني أدعوك بدعاية الإسلام » أي بدعوته ، و « دعوى الجاهلية » هي أنهم كان يدعو بعضهم بعضاً للتعاون على الشر والباطل والإفساد . والمراد بهولاء الدعاة : الذين يحرضون على الفتن ، ويحضون على الآثـام والمنكرات ، ويعيشون في البدع والضلالات ، ويعملون على الشقاق والافتراق في خبث ونفاق .

وقد قال عنهم الحديث : « دعاة إلى أبواب جهنم » أي يدعون إلى مـا يكون سبباً لدخول النار . كما يقال لمن يستحق العذاب : وقف على شفير جهنم . والمراد أنهم يدعون الناس إلى معاصٍ وذنوب تجعلهم بارتكابها مستحقين دخول النار .

« من أجابهم إليها قذفوه فيها » . المراد بالإجابة هنا الاستجابة وطاعة هؤلاء المحرضين فيما حرضوا عليه . والقذف هو الرمي بقوة . والمعنى أن من أطاع هؤلاء الآثمين المجرمين في غيهم وضلالهم ، فإنه بهذا سيدفعونه دفعاً قوياً ليدخل النار . وقد ذكر العلماء أن هؤلاء منهم القرامطة والباطنية والبهائية ونحوها من الفرق الضالة المضلة .

وفي قول الحديث : « دعاة إلى أبواب جهنم » استعارة تمثيلية بليغة . فقد شبه هيئة الداعي إلى الفتن بهيئة ملائكة العذاب الواقفين على أبواب النار . ينادون أهلها ليقذفوهم فيها . وكل من الحالتين دعوة إلى الهلاك والدمار. وفي قوله : « قذفوه فيها » تعبير بليغ يصور مدى ما في إضلالهم مـن

شراسة ، حتى كأنهم بهذا الإضلال يحملون من أضلوه ، ويقذفونه قذفاً فيه شدة وسرعة إلى النار .

ومن الشرور التي يذيعها هؤلاء الفاسدون المفسدون : التحلل الأخلاقي ، والتفكير الإلحادي ، والتهتك النسائي ، وارتكاب الكبائر ، وتضييع الحدود والفروض والواجبات ، وعبادة الدنيا بما فيها من شهوات وملذات .... إلخ .

ثم قال حذيفة للرسول : « يا رسول الله صفهم لنا . قال : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا » . والجلد في الجسم معروف ، وهو البشرة المحيطة بأعضائه ، وجلدة الشيء ظاهره ، والأجلاد والتجاليد هي مجموعة الأعضاء والهيئة ، ويقال : فلان عظيم الأجلاد ، أي عظيم الجسم والشخص . وإذا قيل : فلان من أبناء جلدتنا ، فمعنى هذا أنه منا ، أو منسوب إلينا ، أو محسوب علينا ، ويقال : هؤلاء من جلدتنا ، أي من أنفسنا وعشيرتنا . والمراد بالجلدة في الحديث الملة والدين ، أي أنهم ينتسبون إلينا في الظاهر ، وينتسبون إلى ديننا ، ولكنهم مخادعون منافقون .

« ويتكلمون بألسنتنا » : أي هم من أهل لساننا العربي ، أو هم يتكلمون بأسلوب كأسلوبنا ، فهم قد يرددون نصوصَ القرآن والسنة ، ولكن ذلك لا يتجاوز حلوقهم ، لأن قلوبهم خالية من الخير ، فهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .

هنا قال حذيفة : « يا رسول الله ، فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ . قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامَهم » : أي فما الذي تأمرني بأن أتبعه أو أفعله إذا عشتُ وشهدت هذه الفتنةَ الدهماء ؟ . فأمره بأن يلزم جمهورَ المسلمين ، أي يكون معهم ، ولا يجنح إلى الشواذ منهم ، وأن يطيع أميرهم الشرعي ، أي سلطانهم وخليفتهم وحاكمهم ، وفي هذا إشارة إلى وجوب الاعتصام

بوحدة الأمة وجماعتها ، وطاعة أولياء الأمور سدّاً لباب الفتن ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة » . ويقول : « يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ إلى النار » . ويقول : « اسمعوا وأطيعوا ما لم تؤمروا بمعصية ، فإذا أمرتم بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

ثم قال حذيفة : « فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ . قال : فاعتزل تلك الفرقَ كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» . والاعتزال هنا يراد به التجنب والابتعاد، والفرق هنا يراد بها الفرق الضالة « والعض » هو الضغط الشديد ، وفي الحديث : « عضوا عليها بالنواجذ » وهذا مثل في شدة الاستمساك بالدين ، لأن العض بالنواجذ عض بجميع الفم والأسنان ، لأن النواجذ جمع الناجذ ، والناجذ هو الضرس أو الناب ، وقيلَ هي أواخر الأسنان . وأصل العض اللزوم ، يقال : عض عليه ، إذا لزمه . وهذا التعبير كناية عن تحمل المتاعب والصبر على المشاق . وقوله : « حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » أي حتى تموت وأنت مثابر على هذا الاستمساك بالاعتزال للفتن والتجنب للضلالات .

ويؤخذ من هذا الحديث عدة أمور منها : وجوب اتباع الخير بعد معرفته ، وتجنب الشر بعد معرفته . ووجوب لزوم الجماعة والطاعة لولي الأمر الشرعي ، وتحريم الخروج على الأئمة حتى ولو وقع منهم خطأ يسير ، والعزلة إذا حدثت فتنة عامة ، ولم يكن هناك إمام ، وذم البدعة ، والدعوة إلى الاهتداء بالسنة ، والحث على عدم الاغترار بحال الدنيا .

نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا ، والسلامة في الأولى والآخرة .

العمرة في رمضان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن عمرة في رمضان حجة » .

(رواه البخاري)

* * *

العمرة من الاعتمار ، ومعنى الاعتمار : الزيارة ، يقال : اعتمر فهو معتمر ، أي زار وقصد، والعمرة في الشرع هي زيارة البيت الحرام (الكعبة) بشروط مخصوصة . وقد جاء في فضل العمرة طائفة من الأحاديث النبوية ، منها قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « العمرة إلى العمرة كفارة لمـــا بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . وقوله : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفي الكير خبثَ الحديد والذهب والفضة ، وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة » .

وسبب الحديث ما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لامرأة من الأنصار يقال لها أم سنان : ما منعك أن تكوني حججتِ معنا ؟ . فقالت ناضحان (أي بعيران) كانا لأبي فلان (هو زوجها أبو سنان) حج هو وابنه على أحدهما ، وكان الآخر يسقي عليه غلامنا .

قال : « فعمرة في رمضان تقضي حجة — أو حجة معي » . وفي البخاري : « إذا كان رمضان اعتمري فيه ، فإن عمرة في رمضان حجة » .

وإنما كانت العمرة في رمضان صاحبةَ هذا الفضل العظيم لأن الإنسان يجمع فيها بين تحمل مشقة الصوم ، وتحمل مشقة القيام بأعمال العمرة ، ولأن رمضان موسم كريم من مواسم الطاعات والقربات . والصائم فيه يكون أقرب إلى الله تعالى وأكثرَ استعداداً لإخلاص العمل لربه جل جلاله ، وحسبنا أن نجد القرآن الكريم يقول في فضل رمضان : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . وأن نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « أتاكم رمضان شهر مبارك . فرض الله عز وجل عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب السماء ، وتُغلق فيه أبواب الجحيم ، وتُغَل فيه مَرَدة الشياطين . لله فيه ليلة (ليلة القدر) خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم » . ويقول :

« إذا جاء رمضان فُتّحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين » .

ولقد اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع مرات ، فقد اعتمر عمرة الحديبية . ولكنها لم تتم ، وعمرة القضاء — أو عمرة القضية — سنة سبع للهجرة ، وهي قضاء لعمرة الحديبية التي لم تتم ، وعمرة الجعرانة سنة ثمان للهجرة حين رجوعه من الطائف ، وعمرته مع حجة الوداع سنة عشر للهجرة .

وقد اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم هذه المرات الأربع كلها في شهر ذي القعدة لسببين : الأول فضل هذا الشهر ، والآخر مخالفة أهل الجاهلية ، لأنهم كانوا يعتقدون أن زيارة البيت الحرام للاعتمار في شهور

الحج من أفجر الفجور . فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : إن قريشاً ومن دان دينهم كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ، ويجعلون المحرم صفرا (أي يجعلون صفرا من الأشهر الحرم دون المحرم ، وهذا هو النسيء الذي أشار إليه القرآن الكريم) ويقولون : « إذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر » . فقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه صبيحة رابعة مهلين بالحج ، فأمرهم أن يجعلوها عمرة ، فتعاظم ذلك عندهم ، فقالوا : يا رسول الله ، أي الحل ؟ . قال : الحل كله ..

ومعنى « برأ الدبر » أي التأمت جروح الإبل من كثرة الأسفار ، و « عفا الأثر » أي اندرست آثار المشي لمرور الأيام بعده ، و « انسلخ صفر » أي مضى المحرم المسمى عندهم بصفر .

وقد استدل الفقهاء على مشروعية العمرة بقول الله تبارك وتعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » أي ايتوا بهما تامين ، وبقول الرسول فيما يرويه البخاري : « ليس أحد إلا وعليه حجة وعمرة » أي مرة واحدة عند الاستطاعة .

ويجوز أن تؤدى العمرة في أي وقت من أوقات السنة ، عدا يوم عرفة ويوم النحر ، وأيام التشريق . وأفضل أوقاتها شهر رمضان للحديث الذي معنا ، ثم شهر ذي القعدة تشبها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز للإنسان أن يعتمر قبل أشهر الحج ، ويجوز أن يعتمر في أشهر الحج ، ويجوز أن يعتمر بعد أن يحج .

وإذا كان الفقهاء قد أجمعوا على مشروعية العمرة فقد اختلفوا بعد ذلك في حكمها ، ففي مذهبي المالكية والحنفية ، أنها سنة ، بدليل أن النبي سئل عن العمرة : أواجبة هي ؟ . فقال : لا ، أن يعتمروا أفضل . وفي مذهب الشافعية والحنبلية أن العمرة فرض ، والقول الأول أصح .

وأركان العمرة هي الإحرام ، والطواف بالبيت سبعة أشواط ، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً ، والحلق والتقصير ، والترتيب بين الأركان . ويجب فيها ما يجب في الحج . ويسن فيها ما يسن فيه ، غير أنها ليس لها وقت معين وليس فيها وقوف بعرفة ولا المزدلفة . ولا رمي فيها للجمرات ، وفي حديث ابن عمر عن عمرة النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قدم النبي صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعاً ، ثم صلى خلف المقام ركعتين ، وطاف بين الصفا والمروة سبعاً ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » .

ومن السهل أن يجمع الإنسان بين الحج والعمرة ، ويقوم بأعمال العمرة بعد انتهائه من أعمال الحج،ولعل هذا هو معنى الحديث النبوي الشريف الذي يقول : « إن العمرة قد دخلت في الحج إلى يوم القيامة » . ولذلك قال الشافعي وأحمد وإسحاق : إنه لا بأس بالعمرة في أيام الحج .

وهنا يخطر سؤال هو : هل تسقط العمرة الحجَّ المفروض ؟ .

والجواب أنها لا تسقط الحج المفروض ، وإذا كان الحديث هنا يقول :

« إن العمرة في رمضان حجة » . وفي بعض الروايات : « عمرة في رمضان تعدل حجة » فالمقصود هو بيان الفضل الكبير للعمرة إذا أديت في رمضان ، وأن ثوابها عظيم كثواب حجة ، وهي تقوم مقام حجة التطوع .

والإنسان المؤمن يقبل في رمضان على الصوم ، وهو الفريضة الجليلة التي جعلها الله تعالى عبادةً خالصة لوجهه ، وجعل ثوابها بينه وبين عبده ، وفي رمضان يقبل المؤمن أيضاً على قراءة القرآن الكريم ،وعلى مدارسة دين الله عز وجل ، وعلى إحياء مشاعر الخير والبر في نفسه ، فتكون هناك « عملية

تطهير » روحية وحسية واسعة . فإذا استطاع المؤمن فوق هذا أن يشد رحاله إلى منزل الوحي ، وأن يقوم بعمرة خلال شهر رمضان ، فإن الشأن في هذه العمرة أن تأتي حينئذ على خير وجه مستطاع من ناحية الإخلاص والإحسان ، فيكون ثوابها عند الله كثواب الحج ، وإن كانت لا تسقط مع هذا حجة الفرض .

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته ، وأن يوثق صلتنا ببيته، إنه أكرم مسئول وأفضل مأمول .

طريق الخير

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار . قال : لقد سألتَ عن عظيم ، وإنه ليسيرٌ على من يسّره الله تعالى عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماءُ النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) حتى بلغ : (يعملون) ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذِروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد .

ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ . قلت : بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه ثم قال : كفَّ عليك هذا . قلت : يا نبي الله . وإنّا لمؤاخَذون بما نتكلم به ؟ . فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم » ؟ .

(حديث حسن صحيح رواه الترمذي)

* * *

هذا حديث نبوي جليل ، يرسم أمام الإنسان طريقَ الخير وسبيل الهدى ، ويدل على أسباب الفوز والفلاح ، وقد جاءت للحديث رواية أخرى ، جاء في صدرها أن معاذ بن جبل قال : يا رسول الله ، إني أسألك عن كلمة قد أمرضتني وأسقمتني وأحرقتني. قال : سل عما شئت . قال : أخبرني بعمل يدخلني الجنة لا أسألك غيره ؛ ثم ذكر بقية الحديث . » .

يقول معاذ للرسول : « أخبرني بعمل يدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار » ، وهذا يدل على أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانت عندهم عناية بمعرفة الطريق الموصل إلى الجنة المبعد عن النار . كما أن هذا يدل على أن الأعمال هي السبب في دخول الجنة ، ويزكي هذا قولُ الله تعالى : « وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون » .

فإن قيل : وكيف ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يدخل الجنةَ منكم أحد بعمله » . فالجواب أن العمل نفسه لا يسترجب دخول الجنة ، ولكن الله سبحانه جعل العمل سبباً لدخول الجنة بفضله ورحمته ، والتوفيق للعمل الصالح انما يكون من فضل الله وكرمه ، فلا يكون العمل إذن في حد ذاته هو الذي يدخل صاحبَه الجنة ، فالفضل أولاً وأخيراً إنما هو لله رب العالمين .

ولما سأل معاذ هذا السؤالَ أجابه الرسول الكريم بقوله : « لقد سألتَ عن عظيم » وليس معنى هذا أنه سأل عن أمر مشكل معضل ، يعظم على المجيب إيضاحُه ، بل المعنى أنه سأل عن هدف كريم عظيم ، فإن دخول الجنة هو الفوز الكبير ، كما أن الابتعاد عن النار فيه النجاة من الشر الخطير ، ولذلك أضاف الرسول قوله : « وإنه ليسير على من يَسّره الله عليه » أي أن الله سبحانه وتعالى ولي التوفيق والهداية ، فإذا أخذ بناصية عبد إلى طريق الهدى ، سهل عليه السيرْ في العمل الصالح ، حتى يبلغ غايته العظمى ، ويحصل على الفوز الكبير ، وإنما يكتب الله تعالى هذا التوفيق لمن يستحقه ولمن هو أهل اه ،

ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « اعملوا فكل ميَسّر لما خلق له ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل الشقاوة » . ثم تلا النبي قولَ الله تبارك وتعالى : « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » .

وقد ذكر القرآن الكريم من دعاء نبي الله موسى في سورة طه : « قال رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري » . وكان رسول الله يقول :

« اهدني ويسر الهدى لي » وكان ابن عمر يقول : اللهم يسرني لليسرى ، وجنبني العسرى » .

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يفصل طريق الهداية بقوله : « تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » . وهذه هي أصول الإسلام ودعائمه التي بُني عليها ، وأول أصل فيها أن يؤمن الإنسان بوجود الله تعالى وربوبيته ووحدانيته ، واستحقاقه دون غيره للعبادة والتقديس ، وأن يلتزم الإنسان أداءَ العبادة لله وحده ، بلا شريك له في أي شيء ؛ والأصل الثاني هو أداء الصلاة مستقيمةً مستوفية الشروط والأركان ، والأصل الثالث هو دفع الزكاة المستحقة وإعطاؤها لأهليها ، والأصل الرابع هو صوم رمضان صوماً يراد به وجه الله تعالى ، والأصل الخامس هو حج بيت الله الحرام مرة في العمر .

ثم أراد النبي أن يزيد معاذاً نصحاً وإرشاداً ، فقال له : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ . الصوم جُنّة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ : « يعملون » .

وهذا يفيد أن للخير طرقاً ومسالك ينبغي للإنسان أن يسلكها كلها ، لتتعاون على

إبلاغه مرادَه، وهو النجاة من العذاب، والفوز بالثواب ، ومن تلك الطرق أن يدرك الصائم أن الصوم جُنّة « أي وقاية ، وفي بعض الروايات جاءت هنا زيادة وهي : « وحصن حصين من النار » ، وفي رواية ثالثة : « الصيام جُنة يستجن بها العبدُ من النار » أي يحفظ صاحبه كما أن ثوب الحرب الواقي يحمي صاحبه عند القتال ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوقاية في الصوم حين قال : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

والصوم السليم يقي صاحبه العلةَ والمرض ، ويقي صاحبه ضعفَ الهمة وخور العزيمة ، ويقي صاحبه سوءَ الكلام وفحش الحديث ، ويقي صاحبه الغضبَ والمشاحنة . ولذلك جاء في الحديث : « فإذا كان يوم صوم أحدكم ، فلا يرفث ولا يصخب ، فإن امرؤ سابه أو شاتمه فليقل إني امرؤ صائم » .

* * *

« والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » : ومعنى إطفائها الخطيئة أنها تزيل آثارها ، وتعاون على استحقاق غفرانها، لأن العمل الطيب يأتي على العمل السيىء فيمحوه : « إن الحسنات يذهبن السيئات » . وكما أن الماء يطفىء النار ، ويذهب لهبها ، ويخمد جذوتها ، وبذلك يزيل ضررها وشرها ، نجد الصدقة أيضاً ــ كما أخبر الرسول ــ تمسح بيد المغفرة والتوبة على الخطأ . وهذا تحبيب في التصدق، وحث على مدّ يد المعاونة للمحتاجين . ويروى أن الحسين ابن علي كان يحمل الخبز بنفسه ، ويوزعه على المساكين في ظلام الليل ، ويقول : « إن الصدقة في ظلام الليل تطفىء غضب الرب عز وجل » . ولعل مما يفسر هذا قول الله تعالى : « إن تبدوا الصدقات فنعما ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم سيئاتكم » .

« وصلاة الرجل في جوف الليل » : والمراد بصلاة الليل هنا صلاة

التطوع ، أي بعد أداء الصلوات المفروضة ، فإنه لا معنى للتطوع إذا كانت الفريضة مهملة ، وخص الحديث صلاةَ الليل بالتنويه لأنها أبعد عن الرياء ، ولأن المرء فيها يكون أحسن استعداداً للمناجاة ، وإقبالاً على الصـــلاة ، واتصالاً بالله سبحانه ، ولذلك جاء في الحديث : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » . والمراد بجوف الليل وسطه أو نصفه ، وقيل الجزء الأخير منه عند الفجر .

ثم إن الرسول صلوات الله عليه وسلامه تلا بعد قوله هذا – قول الله تعالى في شأن عباده الأخيار : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

* * *

ثم قال الرسول لمعاذ : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقال له معاذ : بلى يا رسول الله ؛ فقال النبي : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » .

والمراد هنا بالأمر هو الدين ، ورأسه كما أخبر النبي هو الإسلام ، والمراد بالإسلام هنا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، كما جاء بيان ذلك في رواية أخرى للحديث ، فإذا لم يقر الإنسان بالشهادتين باطناً وظاهراً ، فليس له حظ من الإسلام ، والمراد بالعمود ما يقوم به الشيء ويعتمد عليه ، وقد أخبر النبي بأن عماد الدين هو الصلاة ، وهي أهم فريضة من فرائض الإسلام ، ولذلك جاء الحديث : « الصلاة عماد الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين » . والمراد بذروة السنام أعلى ما في الإسلام وأرفعه ، وهو الجهاد في سبيل الله ، وسبيل الله هي سبيل الحق والعدل والخير ، وقد

روى الإمام أحمد حديثاً يفيد أن الجهاد هو أفضل الأعمال بعد أداء الصلاة المفروضة .

ثم قال الرسول لمعاذ : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ . فقال معاذ : بلى يا رسول الله ، فقال النبي وقد أخذ بلسانه : كفّ عليك هذا ؟ والمراد بالملاك أصل الشيء الذي يضبطه ويحكمه ، فمن منع لسانه قول السوء ، وأمسكه عن الفحش والنكر ، ولم يستخدمه إلا في الخير ، فقد ملك أمره وضبطه ، وقد جاء في الحديث أن رجلاً قال : يا رسول الله ، دلني على عمل يدخلني الجنة . فقال له مشيراً إلى لسانه : أمسك هذا . فأعاد الرجل السؤال فقال له النبي : « ثكلتك أمك ، هل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم » ؟ .

وهنا في الحديث الذي معنا نجد معاذ بن جبل يقول : « يا نبي الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به » ؟ . فقال له الرسول : ثكلت أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » « وثكلت أمك » : عبارة دعاء على الشخص بأن تفقده أمه ، وليس المراد الأساسي منها هو الدعاء عليه حقيقةً ، بل يراد منها التحذير والتنبيه ، وكأن المعنى هو الدعاء عليه إذا لم يقبل النصيحة ولم يعمل بما أمره به الرسول .

والمراد بحصائد الألسنة هو جزاء قولها السيىء ، وعقابها على النطق بما لا يليق ولا يحسن ، فكأن الإنسان يزرع بكلماته حسنات وسيئات ، ثم يحصد يوم القيامة ما زرع ، فإن كان زرعه طيباً حصد طيباً ، وإن كان زرعه سيئاً حصد سيئاً .

واللسان قد ينطق بكلمة الكفر أو الشرك فيهوي بصاحبه في السعير أبد الآبدين ، وقد ينطق بشهادة الزور ، أو الكذب ، أو الغش ، أو الافتراء ، أو

القذف ، أو الغيبة ، أو النميمة ، أو السباب ، فتكون هذه ألواناً من السيئات . ولذلك كان اللسان آلة خطيرة في الإنسان ، إن أساء استخدامها أوردته المعاطب والمهالك .

* * *

وقد وردت عن السلف كلمات في اللسان توضح خطورته ، فقد جذب أبو بكر لسانه يوماً وقال : « هذا أوردني الموارد » يعني المهالك . وقال ابن عباس للسانه : « قل خيراً تغنم ، أو اسكت عن شر تسلم ، وإلا فاعلم أنك ستندم » . وقال ابن مسعود : « والله الذي لا إله إلا هو ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان » . وقال الحسن : « اللسان أمير البدن ، فإذا جنى على الأعضاء شيئاً جنت ، وإذا عفا عفت » . وقال يونس بن عبيد : « ما رأيت أحداً لسانه منه على بال إلا رأيت ذلك صالحاً في سائر عمله » . وقال يحيى بن أبي كثير :

« ما صلح منطق رجل إلا عرفت ذلك في سائر عمله ، ولا فسد منطق رجل إلا عرفت ذلك في سائر عمله » .

نسأل الله عز وجل أن يجملنا بالتقوى ، وأن يأخذ بنواصينا إلى طريق الخير والهدى ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

أفضل الأعمال

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : سأل رجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أحبُّ إلى الله ؟. فقال : الحالُّ المرتحل . قال : يا رسول الله ، من الحال المرتحل ؟ . قال : صاحب القرآن ، يضرب في أوله حتى يبلغ آخره ، وفي آخره حتى يبلغ أوله » .

(رواه الطبراني) .

* * *

القرآن الكريم هو دستور الإسلام ، وأساس الإيمان ، وهو الذي جعله رب العالمين هادياً ورائداً ، ودليلاً ومرشداً ، وقال فيه : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . وقال فيه أيضاً : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » . ولذلك كان واجباً على المؤمنين أن يعكفوا على هذا القرآن المجيد : تلاوة وتدبراً ، واستماعاً وتفهماً ، لكي يهتدوا بنوره ، ويسعدوا باتباعه : « صبغةَ الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » .

وهذا رجل يقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مستفهماً مستوضحاً ، قائلاً له : يا رسول الله ، أي الأعمال أحبُّ إلى الله ؟ . فيجيبه الرسول قائلاً :

الحال المرتحل . أي أحب الأعمال إلى الله سبحانه هـو عمل الحال المرتحل .
فمن الحال المرتحل ؟ .

أصل مادة « حل » هو حل العقدة ، ومن ذلك في القرآن قوله تعالى على لسان موسى : « واحلل عقدةً من لساني » . ويقال : حللت المكانَ ، إذا نزلته ، وأصل ذلك من حمل الأحمال عند النزول. والمحلة: هي مكان النزول ، والمرتحل : من الارتحال ، وهو الانتقال من مكان إلى مكان ، والراحلة من الإبل هي البعير القوي على الأسفار والأحمال .

والمراد بالحال المرتحل هنا هو الانسان الذي يعلق قلبه ولسانَه بكتاب الله عز وجل، فهو كثير الإقبال عليه ، والنظر فيه ، والاستمداد منه ، لا يكاد يبلغ خاتمتَه في قراءته وتلاوته ، حتّى يصل نهايةَ سوره ببدايتها ، وما يكاد يصل خاتمة المصحف الشريف حتّى يربطها بفاتحته ، ولذلك جاء في رواية أخرى للحديث أنه عليه الصلاة والسلام سئل : أي الأعمال أفضل ؟ . فقال : الحال المرتحل . قيل : وما ذاك ؟ قال : الخاتم المفتتح . أي الذي يختم القرآنَ بتلاوته ، ثم يفتتح التلاوةَ من أوله ، شبهه بالمسافر، يبلغ المنزل فيحل فيه ، ثم يفتتح سيره ، أي يبتدئه .

وقد روي أن قراء مكة في عهد السلف كانوا إذا ختموا القرآن بالتلاوة ابتدأوا وقرأوا « الفاتحة » وخمسَ آيات من أول سورة البقرة ، وهي قول الله تبارك وتعالى : « ألم ،ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . ثم يقطعون القراءة ، أي يقفون عند ذلك حتّى يعودوا إلى التلاوة مرة تالية ، ويسمون فاعل ذلك : « الحال المرتحل » أي ختم القرآن الكريم ، وابتدأ بأوله ، ولم يفصل بينهما زمان .

وقد تحدث الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في تفسيره المسمي «الجامع لأحكام القرآن، والمبين ما تضمنه من السنة وآي الفرقان» عن أمور كثيرة مما ينبغي لحرمة القرآن وتوقيره ، وكان مما ذكره هذه العبارة : « ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه ، حتى لا يكون كهيئة المهجور ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم يقرأ من أول القرآن خمس آيات ، لئلا يكون في هيئة المهجور، وروى ابن عباس قال : جاء رجل، فقال: يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ . قال : عليك بالحال المرتحل (أي عليك بعمله) قال : وما الحال المرتحل ؟ . قال : صاحب القرآن ، يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ، ثم يضرب في أوله ، كلما حل ارتحل » .

ولعل مما نفهمه هنا هو أن القارىء للقرآن لا يليق به أن يختار سوراً بعينها ، أو آيات بذاتها ، يقتصر على تلاوتها وترديدها ، بل هو يرتل القرآن قدر طاقته من بدايته حتى نهايته ، ويصاحبه فيمضي فيه من أوله حتى يبلغ آخره ، ثم يضرب في أوله ، كلما حل ارتحل ، ولعل هذا هو الذي جعل القرطبي يقول فيما يقول: إن من حرمة القرآن الكريم على قارئه ألا يلتقط الآيات من كل سورة يقرأها ، فإنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئاً ، فأمره أن يقرأ السورة كلها .

* * *

والمقصود من الحديث فيما نفهم — والله أعلم — هو الحث على الاستمرار في تلاوة القرآن المجيد ، والمداومة للنظر فيه ، وقد جاء في السنة أنه يستحب للانسان أن يختم القرآن كل شهر ، فإن وجد من نفسه قوة أكثر ختمه في كل أسبوع ؛ والأفضل الوقوف عند هذه المدة ، حتى يكون هناك تمهل في التلاوة ، وتدبر في الآيات ، وبعد عن المشقة على النفس بما قد تعجز عن المداومة عليه في المستقبل .

وقد أكدت السنة الطاهرة الحثّ على تعهد القرآن الكريم والارتباط به ، فجاء في الحديث قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تَفَصّياً من الابل في عقلها ». والعُقُل – بضمتين – جمع عقال ، وهو الحبل الذي يُعقَل به البعير ، أي يربط ، والإبل المعقولة هي المشدودة بالعقل .

وجاء في حديث آخر : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات » .

وجاء في الحديث القدسي : « من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » .

كما جاء قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

هذا وقد أورد الإمام ابن الأثير في كتابه « النهاية » تفسيراً ثانياً لكلمة « الحال المرتحل » فذكر أنه قيل : إن الحال المرتحل هو الغازي الذي لا يقفل من غزو إلا عقبه بآخر . فكأن هذا الغازي كلما رحل منزلاً عقب انتهائه من غزوة ، أعد نفسه للارتحال إلى غزوة أخرى ، وهكذا، ولا شك أن الاستمرار في الجهاد – ممن استطاع ذلك وقدر عليه – عمل من أجل الأعمال التي يشكرها الله عز وجل ، ويثيب عليها، وقد جاء في الحديث الصحيح : « تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي ، وايمان بي ، وتصديق برسلي ، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذي

خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده ما من كَلْم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم: لونه لون الدم، وريحه ريح مسك ؛ والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني ، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وكذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه ، كلما سمع هيعة طار إليها » . أي أنه على استعداد مستمر لإجابة النداء في الجهاد .

والتفسيران الواردان في كلمة « الحال المرتحل » لا يتناقضان ولا يتعارضان. لأن الجهاد شريعة القرآن ، ولأن القرآن كتاب الجهاد ، فمن أقبل على القرآن وتلاه وتدبره واستمد منه آمن بأن الجهاد فريضة باقية ماضية ، ومن جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فقد عمل على إعزاز شأن القرآن . والمهم هو الدوام على عمل الخير ، سواء أكان عن طريق التدبر للقرآن والاهتداء به ، أم عن طريق إخلاص الجهاد له ، وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها ، وإن قل » .

طوبى للغرباء

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » .

(حديث صحيح)

* * *

هذا الحديث الجليل رواه مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، كما رواه الترمذي وابن ماجه ، ولقد جاء في بعض رواياته زيادة هي : قيل يا رسول الله : ومن الغرباء ؟ . قال : النزّاع من القبائل (أي أهل الخير القليلون) . وفي رواية قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ . قال الذين يصلحون إذا فسد الناس . وفي رواية : الذين يفرون بدينهم من الفتن .

كما أن الحديث جاء بروايات أخرى منها :

١ — إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً ، فطوبى للغرباء .

٢ — إن الدين بدأ غريباً، وسيرجع غريباً، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي .

٣ — طوبى للغرباء ، قلنا : ومن الغرباء ؟ . قال : قوم قليل في ناس سوء كثير ، ومن يعصيهم أكثر ممن يطيعهم .

٤ — بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً ، فطوبى يومئذ للغرباء إذا فسد الناس .

٥ — بُدِىء الإسلام غريباً ، ولا تقوم الساعة حتى يكون غريباً كما بدىء، فطوبى للغرباء حين يفسد الناس .

وهذا الحديث يصور أمرين مهمين ، أولهما وَقَع بالفعل على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والآخر هو ما أخبر بوقوعه بعد عهده ، ويأتي بعد الأمرين حكم رسول الله الطيب للغرباء ، سواء أكانوا على عهده ، أم أتوا بعد ذلك .

ومعنى : « بدأ الإسلام غريباً » : أن الإسلام جاء على حين فترة من الرسل ، والناس في ضلالة عمياء وجهالة جهلاء ، فلا حدود ولا قيود ولا أخلاق ، فأعرض عنه المتكبرون والمتجبرون والباغون في الأرض،واستجاب له في أول الأمر قلة مستضعفون ، تعرضوا للاضطهاد والتعذيب والمقاومة ، حتى اضطروا أن يستخفوا بدينهم حيناً ، وأن يتحملوا مقاطعة الناس لهم حيناً ، وأن يهاجروا أكثر من مرة ، ومنهم من قتل في سبيل دينه .

ثم ظهر الإسلام ، وعز وانتصر ، وجاء الفتح الأكبر ، ونزل قول الله تعالى: « إذا جاء نصر الله والفتح،ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » .

« وسيعود غريباً كما بدأ » ، وهذه إشارة إلى ما ظهر في الناس بعد ذلك من الفتن والضلال عن الصراط المستقيم ، والاستجابة للشهوات والأهواء ، وكثرة الطوائف والفرق ، مع ما بينها من اختلاف وتشاحن . وإذا كانت الكثرة قد انحرفت ، فإن طائفة مؤمنة تبقى على يقينها وإيمانها ، وهي التي أشار إليها سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « لا تزال طائفة من أمتي

ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

* * *

وقد سئل الرسول عن الغرباء ، فقال : « الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي » .

وقال الإمام الأوزاعي وهو يفسر غربة الإسلام الأخيرة : « أما أنه ما يذهب الإسلام ، ولكن يذهب أهل السنة ، حتى ما يبقى في البلد منهم إلا رجل واحد » . وقال سفيان الثوري وهو يشير إلى هذا المجال :

« استوصوا بأهل السنة خيراً ، فإنهم غرباء » . والمراد بالسنة هنا طريقة الإسلام وطريقة الرسول عليه الصلاة والسلام ، القائمة على الحق والعـــدل والخير ، ولهذا ورد في بعض الروايات عن تفسير الغرباء : « هم قوم صالحون قليل ، في قوم سوء كثير ، ومن يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » .

والمعروف أن الصالحين في زمن الفتن يكونون غرباء معرّضين لهجوم المتطاولين وسخرية الساخرين ، وأنهم يعانون ما يعانون في سبيل المحافظة على عقيدتهم ودينهم ومبادئهم ، ولذلك روى الترمذي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يأتي على الناس زمان الصابر فيه على دينه كالقابض على الجمر » . ولقد قال النبي يوماً — كما يروي الترمذي — : « إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك ، ثم يأتي زمان من عمل منكم بعشر ما أمر به نجا » .

وللإمام الشاطبي كلام جليل عن هذا الحديث في كتابه « الاعتصام » منه قوله : « فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم ، وذلك حين يصير

المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، وتصير السنة بدعة ، والبدعة سنة ، فيقام على أهل السنة بالتثريب (اللوم) والتعنيف ، كما كان يقام أولاً على أهل البدعة ، طمعاً من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال ، ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة .

فلا تجتمع الفرق كلها — على كثرتها — على مخالفة السنة عادة وسمعا ، بل لا بد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتي أمر الله ، غير أنهم لكثرة ما تناوشهم الفرق الضالة ، وتناصبهم العداوة والبغضاء ، استدعاءً إلى موافقتهم — لا يزالون في جهاد ونزاع ، ومدافعة وقراع (مقاتلة) آناء الليل وأطراف النهار ، وبذلك يضاعف الله لهم الأجر الجزيل ، ويثيبهم الثواب العظيم » ..

« فطوبى للغرباء » : قيل إن « طوبى » اسم للجنة ، وقيل إنه اسم شجرة في الجنة ، وقيل إن طوبى هو كل مستطاب في الجنة ، وقيل إن طوبى هي « فعْلَى » من الطيب . ومهما يكن المعنى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وعد الغرباء — على المعنى السابق — بالخير والثواب الحسن ، ومن هنا نجد النبي صلوات الله وسلامه عليه يوصي ابن عمر بقوله : « كن في الدنيا كأنك غريب ، فكأنك بالدنيا ولم تكن ، وبالآخرة ولم تزل ، وعدّ نفسك من أهل القبور » .

هذا وقد قلت في كتابي « غربة الإسلام » عن معنى الحديث : « ويصح أن يكون المعنى : إن هذا الإسلام أخذ يسير وينتشر بين قوم غرباء عن مهبطه ومنزله الأول وهو مكة ، فإن أهل مكة قد تنكروا للإسلام في أول الدعوة ، وآذوا الرسول إيذاءً شديداً ، حتى تربصوا به الدوائر ، وتربصوا به ريب المنون ، بل واجتمعوا على قتله ذات ليلة ، فأعلمه الله تعالى وأنجاه إلى المدينة .

وفي المدينة كان الأنصار الذين سعت طلائعهم في بيعتي العقبة الأولى والثانية لتلقي دعوة الإسلام والاهتداء بأشعته ، وبأيدي هولاء الأنصار مع من اصطفاهم الله من أهل مكة — وهم المهاجرون — ساد الإسلام وعز وانتشر ، مع أنه كان منتظراً أن ينصر الإسلامَ أولئك القوم الذين شرف الله تعالى حماهم

بإهباط وحيه فيه ولكن هكذا شاءت إرادة الله أن ينصر الإسلامَ أهلُ المدينة وهم غرباء نوعاً عن مهبطه الأول » .

وكذلك سيصير الإسلام في آخر الزمان – ولعله هذا الزمان – غريباً بين أهله ، وبين المنتسبين إليه ، وبين الآكلين ما شاءوا باسمه ، وسينصر هذا الدينَ قومٌ غرباء لم يكونوا منتسبين إليه من قبل ، ولم ينشأوا في دياره من قبل .

وكأن هذا إنذار – أي إنذار – من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته أن يحذروا وقوعَ تلك الغربة للإسلام على أيديهم ، حتى لا يحرموا نعمة الاستمساك به ، والغيرة عليه ، والدعوة له ، والدفاع عنه .

ويصح أن يكون المعنى أن هذا الإسلام قد (بدا) أي ظهر وعلا وانتشر بصورة عجيبة غريبة ، لأن المدة التي أستغرقها في انتشاره مدة قليلة ، تمت فيها أعمال جليلة خارقة للعادة على أيدي المسلمين .

نعم إن الإسلام قد لقي معارضة وإنكاراً وكفراناً في أول الأمر ، ولكن الناس بعد ذلك دخلوا فيه أفواجاً . وما هي إلا سنوات بعد الهجرة ، حتى كانت خيل المسلمين تشرّق وتغرّب ، وتخرج من نصر إلى نصر ، وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يوم الهجرة ومعه صديقه الوحيد أبو بكر ، ولكنه بعد سنوات عاد إلى مكة فاتحاً منتصراً ، ومن حوله عشرة آلاف جندي من جنوده المؤمنين . وما كاد يفتتح مكة ، ويحطم الأصنام ، ويعفو عن قريش ، ويهتف : الحمد لله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ... حتى جاءت الأفواج بعد الأفواج تدخل في دين الله الذي عز وغلب » .

ثم قلت : « ويجوز أن يكون المعنى – على بعد – : إن هذا الإسلام قد فاجأ عقولَ من جاءهم بالأمور الغريبة التي لم يهضموها ولم يفهموها ، لأنهم كانوا في جهالات وضلالات ، ولأنهم كانوا في فوضى وإباحية ، وهو قد جاء بالعلم والهدى ، والنظام والفضيلة ، فلم يرحبوا به ، ولم يتقبلوه ، ولكن

الله هيأ له من بين أولئك الناس حمَلَةً أحسنوا رعايته وفهمه، وسيعود الإسلام عند انتشار الجهالة والضلالة والشهوة والبغي غريباً غير مفهوم ، عسيراً على المجرمين غير مهضوم ، فطوبى للغرباء الذين يدق ذوقهم على أذواق الجماهير ، وتعلو عقولهم على عقول الرعاع ، وتسمو حكمتهم على سفه السفهاء ، أولئك هم الغرباء » .

ومنذ عصور متطاولة والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم يشكون ظهورَ الغربة في مجتمعاتهم ، ويقررون أنهم أدركوا غربة الإسلام في حياتهم ، فكيف بهم لو أدركوا عصوراً جاءت بعدهم فزاد الإسلام فيها غربة بين الناس ؟ .

هذا هو أحمد بن عاصم الأنطاكي من رجال القرن الثاني الهجري يشكو غربة الإسلام في عصره بقوله : ما كنت أظن أني أدرك زماناً يعود فيه الإسلام غريباً . فقيل له : وهل عاد الإسلام غريباً ؟ .

فقال : نعم إن ترغب فيه إلى عالم تجده مفتوناً بالدنيا ، يحب الرياسة والتعظيم ، ويأكل الدنيا بعلمه ، ويقول : أنا أولى بها من غيري ، وإن ترغب فيه إلى عابد معتزل في جبل تجده مفتوناً جاهلاً في عبادته ، مخدوعاً لنفسه ولإبليس ، وقد صعد إلى أعلى درجات العبادة ، وهو جاهل بأدناها ، فكيف بأعلاها ، فقد صارت العلماء والعباد سباعاً ضارية ، وذئاباً مختلسة ، فهذا وصف أهل زمانك من أهل العلم والقرآن ورعاة الحكمة ، فاعتبروا يا أولي الأبصار » .

ويا عجباً للأنطاكي ، إذا كان قد قال هذه العبارة الشديدة القاسية عن هذه الطائفة التي تطالبها تبعاتها بأن تكون القدوة والطليعة ، فماذا يقول إذن في غيرها من طوائف الناس . ؟ .

نسأل الله جل جلاله أن يوفقنا للاعتصام بحبله ، والاستمساك بشرعته ، والاهتداء بهدي رسوله عليه الصلاة والسلام ، وعلى الله قصد السبيل .

قائمة مفصلة بمؤلفات

الدكتور احمد الشرباصي

رقم	اسم الكتاب	اسم المطبعة	الناشر	سنة الطبع
١	حركة الكشف	دار الطباعة المصرية		١٩٣٦ م
٢	محاولة	مطبعة الشرق		١٩٣٨
٣	بين صديقين	مطبعة الشرق		١٩٣٩
٤	نفحات من سيرة السيدة زينب	مطبعة دار التاليف	دار التاليف	١٩٤٦
٥	المحفوظات الازهرية	مطبعة لرسالة		١٩٤٨
٦	لمحات عن ابي بكر (طبعتان)	مطبعة الرسالة		١٩٤٨
٧	واجب الشاب العربي	مطبعة الرسالة		١٩٤٨
٨	في رحاب الصوفية	مطبعة دار التاليف	دار التاليف	١٩٥٠
٩	رسالة النبي (بالاشتراك)	مطبعة الاهرام	جريدة الاهرام	١٩٥٠
١٠	تحقيق كلمة الاخلاص (بالاشتراك)	مطبعة مصر		١٩٥٠
١١	صفوة التصوف للمقدسي(تحقيق)	مطبعة دار التاليف	دار التاليف	١٩٥٠
١٢	صلوات على الشاطىء (طبعتان)	دار الكتاب العربي	بيت الكويت	١٩٥١
١٣	محاضرات الثلاثاء	دار الكتاب العربي		١٩٥١
١٤	مذكرات واعظ أسير	دار الكتاب العربي		١٩٥٢
١٥	عائد من الباكستان	المطبعة السلفية		١٩٥٢
١٦	النيل في ضوء القرآن	دار الكتاب العربي		١٩٥٢
١٧	أيام الكويت	دار الكتاب العربي		١٩٥٣
١٨	امين الامة ابو عبيدة بن الجراح	مطبعة الاعتصام	مجلة الاعتصام	١٩٥٣
١٩	من اجل فلسطين	المطبعة السلفية		١٩٥٤
٢٠	غربة الاسلام لابن رجب (تحقيق)	دار الكتاب العربي	دار الكتاب العربي	١٩٥٤
٢١	القصاص في الاسلام	دار الكتاب العربي	جماعة الازهر	١٩٥٤
٢٢	في عالم المكفوفين (ج ١ و ٢)	مطبعة نهضة مصر		١٩٥٦
		ومطبعة لجنة البيان		١٩٥٩

رقم	اسم الكتاب	اسم المطبعة	الناشر	سنة الطبع
٢٣	الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز (مسرحية)	مطبعةنهضة مصر	مطبعةنهضة مصر	١٩٥٦
٢٤	خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز (ج ١ و ٢)	مطابع الشعب	دار الشعب	١٩٥٩
٢٥	وسائل تقدم المسلمين	مطبعة العالم العربي	مؤسسة المطبوعات	١٩٥٩
٢٦	طبقات الصوفية (تيسير)	مطابع الشعب	دار الشعب	١٩٦٠
٢٧	التصوف عند المستشرقين		المكتب الفني للنشر	١٩٦٠
٢٨	الاسلام دين الاشتراكية (بالاشتراك)	الدار القومية للطباعة والنشر	وزارة الثقافة	١٩٦١
٢٩	الدين والمجتمع في ضوء الميثاق	مطبعةوزارةالتربية	وزارةالتربية	١٩٦٢
٣٠	قصة التفسير	مطبعة دار القلم	وزارة الثقافة	١٩٦٢
٣١	بطولات اسلامية وعربية (ج١ و٢)	دار الكتاب العربي	وزارةالثقافة	١٩٦٢ و ١٩٦٣
٣٢	عمر بن عبد العزيز لابن كثير (تحقيق)	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٢
٣٣	الاشتراكية والدين	مطبعة التحرير	ادارة التوجيه المعنوي	١٩٦٢
٣٤	مسرحيات اسلامية	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٢
٣٥	مولد الهدى (مسرحية)	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٢
٣٦	سيف الله خالد بن الوليد	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٢
٣٧	امين الامة ابوعبيدة (طبعة ثانية)	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٢
٣٨	احاديث الجهاد والفروسية	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٣
٣٩	دستور الطالب	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٣
٤٠	شكيب ارسلان من رواد الوحدة العربية	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٣
٤١	ايام في الاسلام	مطبعة دار القلم	وزارة الثقافة	١٩٦٣
٤٢	الدين والميثاق (طبعتان)	مطبعةالتحرير	ادارةالتوجيهالمعنوي	١٩٦٣
٤٣	امير البيان شكيب ارسلان(ج١ و٢)	دارالكتاب العربي	معهد الدراسات	١٩٦٣
٤٤	حفيدة الرسول السيدة زينب	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٣

رقم	اسم الكتاب	اسم المطبعة	الناشر	سنة الطبع
٤٥	شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام	مطبعة مصر	وزارة الثقافة	١٩٦٣
٤٦	دعوة الاسلام (رسائل متوالية)	دار الكتاب العربي	جمعية الشبان المسلمين	٦٣
٤٧	سلاح الشعر	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٤
٤٨	الحركة الكشفية عربية الاصول	م دار الشعب	المكتب الكشفي العربي	٩٦٤
٤٩	الائمة الاربعة (طبعتان)	مطبعة دار الهلال	دار الهلال	١٩٦٤
٥٠	حب الوطن في نظر الدين	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٤
٥١	الاسلام والاقتصاد	الدار القومية	وزارة الثقافة	١٩٦٥
٥٢	الدين وتنظيم الاسرة (طبعتان)	مطابع دار الشعب	وزارة الشئون الاجتماعية	١٩٦٥ و١٩٦٦
٥٣	الغزالي والتصوف الاسلامي	مطبعة دار الهلال	دار الهلال	١٩٦٦
٥٤	مع المجاهد (طبعتان)	مطبعة التحرير	ادارة التوجيه المعنوي	١٩٦٧
٥٥	الدين والحياة	دار الكتاب العربي	وزارة الثقافة	١٩٦٨
٥٦	نافذة على الاسلام	دار التحرير	جريدة الجمهورية	١٩٦٩
٥٧	ملامح ادبية	مطبعة الرسالة		١٩٦٩
٥٨	المقصورة في الادب العربي	مطبعة الرسالة		١٩٦٩
٥٩	ادب الاحاديث القدسية	مطبعة الشعب	دار الشعب	١٩٦٩
٦٠	الفداء في الاسلام (طبعتان)	مطبعة دار المعارف	دار المعارف	١٩٦٩
٦١	رشيد رضا صاحب المنار	مطابع الاهرام	المجلس الاعلى للشئون الاسلامية	١٩٧٠
٦٢	بين الدين والدنيا	مطابع الاهرام	المجلس الاعلى للشئون الاسلامية	١٩٧٠
٦٣	يسالونك في الدين والحياة (ج١و٢)	دار الرائد العربي ببيروت	دار الرائد العربي ببيروت	١٩٧٠ ١٩٧٢

رقم	اسم الكتاب	اسم المطبعة	الناشر	سنة الطبع
٦٤	مدائنيون في تاريخ الاسلام	دارالرائد العربي بيروت	دارالرائدالعربي بيروت	١٦٧٠
٦٥	الدين والمجتمع	المطبعهالنموذجية	معهد التعاون	١٩٧٠
٦٦	مدرسة الاستاذ الامام	مطبعه الرساله		١٩٧١
٦٧	صراع (مسرحية)	دارالرائدالعربي	دارالرائد العربي	١٩٧١
٦٨	أخلاق القرآن (ج ١ و ٢)	دارالراتدالعربي	دارالرائد العربي	١٩٧١ و ١٩٧٢
٦٩	حدث في رمضان	دار التعاون	الاذاعةوالتليفزيون	١٩٧١
٧٠	عودة الى الاسلام	شركه الاعلانات الشرقية	جريدة الجمهورية	١٩٧١
٧١	من أدب النبوة	مطابع الاهرام التجارية	المجلس الاعلى للشئون الاسلامية	١٩٧٢
٧٢	التربية الدينية (بالاشتراك)	دار التأليف	وزارة التربية	١٩٧٢
٧٣	ابطال عقيدة وجهاد	الشركة المصرية للطباعة والنشر بالقاهرة	مجمع البحوث الاسلامية	١٩٧٢
٧٤	التربيةالدينية لمدارس المعلمين (بالا شتراك)			١٩٧٣
٧٥	الشاعر سليل المحمذين			١٩٧٣
٧٦	توجيهات نبوية	مطابع الاهرام	المجلس الاعلى للشئون الاسلامية	١٩٧٤
٧٧	خديجة أم المؤمنين	دار القدس بيروت	دار القدس	١٩٧٤

الفهرس

الموضوع	الصفحة

